

فِي هَوَاكَ النَّبِيِّينَ

دراسة تحليلية هادفة لسير الأَنْبياء السابقين
في ضوء الآيات القرآنية والثابت من الأحاديث الشريفة

الجزء الأول



ي. أحمد الكيلاني



Bibliotheca Alexandrina

0122636



في موكب النبيين
أحداث و عبر

فِي هَوَاكِيزِ النَّبِيِّينَ

دراسة تحليلية هادفة لسير الأنباء السابقين
في ضوء الآيات القرآنية والثابت من الأحاديث الشريفة

الجزء الأول

تأليف
سيد أحمد الكيداني



الطبعة الأولى
١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤ م
حقوق الطبع محفوظة

دار القلم - الكويت
شارع السور - بجانب وزارة الخارجية - عمارة السور
ص. ب. ٢٠١٤٦ - هاتف : ٢٤٥٧٤٠٧ - ٢٤٥٨٤٧٨ - برقية : توزيعكو

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قال الله تعالى :

﴿ إِنَّ هَذَا هُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ ، وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ ، وَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾

(آل عمران — ٦٢)

﴿ فاقصص القصص ؛ لعلهم يتفكرون ﴾

(الأعراف — ١٧٦)

﴿ نحن نقص عليك أحسن القصص ، بما أوحينا إليك هذا القرآن ﴾

(يوسف — ٣)

﴿ لقد كان في قصصهم عبرة لأولى الألباب ، ما كان حديثاً يُفتَرى ، ولكن تصديق الذي بين يديه ، وتفصيل كل شيء ، وهدى ورحمة لقوم يؤمنون ﴾

(يوسف — ١١١)

التقديم :

- خطبة الحاجة .
- لم أُلّف هذا الكتاب ؟
- ١ - السبب الأول في ١٩٦٩/٦٨ م
- ٢ - السبب الثاني في ١٩٧٩ م
- ٣ - السبب الثالث في ١٩٨٠ م
- الرسل - عليهم السلام - يدعون جميعاً إلى عقيدة واحدة
- توجيه النظر إلى قصص السابقين .
- لمن أُلّف هذا الكتاب ؟
- منهج الكتاب ، وطريقته .

التقديم

« إن الحمد لله نحمده ، ونستعينه ، ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ، وسيئات أعمالنا .

من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله .
﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ ، وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ (١) .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ، اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ، وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا ، وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً ، وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ؛ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً ﴾ (٢) .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ، اتَّقُوا اللَّهَ ، وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيداً ؛ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ، وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً ﴾ (٣) .
أما بعد » (٤) .

(١) سورة آل عمران ، الآية رقم ١٠٢ .

(٢) سورة النساء ، الآية رقم ١ .

(٣) سورة الأحزاب ، الآيتان رقما ٧٠ ، ٧١ .

(٤) تُسمى هذه خطبة الحاجة ، فعن أبي الأحوص ، عن عبد الله بن مسعود — رضى الله عنه — قال : علمنا رسول الله ﷺ — التشهد في الصلاة ، والتشهد في الحاجة . أخرجه النسائي ، والترمذي ، والطبراني في الكبير عن الأعمش ، وابن ماجه عن يونس ابن أبي إسحاق ، والطحاوي ، والبيهقي عن المسعودي ، ثلاثهم عن أبي إسحاق عن ابن مسعود . والحديث على شرط مسلم . (خطبة الحاجة ، للشيخ ناصر الألباني ص ١٥ وما بعدها) .

فلسائل أن يسأل :

لم أُلّف هذا الكتاب ، وقد سبقه من الكتب الكثير في نفس الموضوع تقريباً ؟! وها هي الدوافع ، والأسباب مرتبة حسب أزمانها ، لا حسب أهميتها .

١ - في أواخر عام ١٩٦٨ ، وحتى شهر مايو من عام ١٩٦٩ كنت - بعون الله سبحانه ، وتوفيقه - قد كتبت مذكرة مختصرة عن الأنبياء - عليهم السلام - مبيناً صلة كل بالآخر ، والوقت الذي عاش فيه ، والمنطقة الجغرافية التي كان عليها ، والقوم الذين أرسل إليهم ، وإن لم يكن على وجه اليقين بالنسبة لبعضهم ، فكان على سبيل الترجيح .

وعلى هذا ظهرت للطلاب في إحدى المدارس الثانوية بالكويت وسيلة إيضاح موضوعية لشجرة الرسل ، والأنبياء - عليهم السلام - بعد عناء وجهد .

وفوجئت ، والعمل يظهر في شكله النهائي بأن هناك شجرة أخرى من عمل آخرين ، شجرة التطور ؛ أي تطور الإنسان عن غيره من الحيوان ؛ أي أن آدم - عليه السلام - السويّ الخلق ، والذي صنعه الله بيديه ، ونفخ فيه من روحه ، في شجرة الرسل . لم يكن في نظر الآخرين ، وفي شجرة التطور سويّ الخلق ، بل إنه انحدر من حيوان آخر ، أو ترقى من حيوان آخر دون منزلة . وظهرت وسيلة شجرة التطور هذه في صورة جميلة ، تُوحى بالاهتمام الكبير من المسؤولين عنها ، ورصد المساعدة اللازمة لجودة إخراجها . وعجبت حين رأيت عملاً فنياً جميلاً لمضمون نتن قبيح من وحي الخيال والتخمين ، وليس عليه دليل مسلم ، أو حجة واضحة ، أو برهان ساطع .

وكان من الطبيعي في محاولة إنكار المنكر أن أستثير من الزملاء والمسؤولين من ظننت فيه المساعدة فخذلني قائلاً :

اترك غيرك يعمل كما نعمل ، وقارع الحجة بالحجة .

واستفدت من هذه العبارة - على الرغم من شدتها - وبدأت أقرأ عن نظرية دارون قليلة أيام متتالية .

والتقيت بالمسؤولين عن هذا العمل في حجرتهم في نقاش طويل يمتد أحياناً ، ويهدأ أحياناً أخرى ، وجزى الله سبحانه أحدهم بالخير فقد كان صمام الأمان إذا ما احتد النقاش ، وكادت الغاية أن تبتعد ، ولازلت أذكره حتى الآن هادئاً رزيناً ، مبتسماً ، ومن أوائل المدرسين آتخذ حرصاً على جماعة الظهر بالمدرسة .

وانتهى اللقاء على خير — والحمد لله — وكان من نتائجه :

- أ — أنى عرفت أن الكثير من المتعلمين يدرسون هذه النظرية ، ولا يؤمنون بها ، بل إنهم يدرسونها ؛ لأنها في المنهج فقط ، وأن المسؤول الأكبر في ذلك هو من وضع المنهج ، وأقره غيره بالعمل به .
- ب — أنهم تمنوا أنهم لم يصنعوا هذا العمل ، والذي لم يظهر في شكل نظرية فقط خاضعة للرد والحوار ، بل ظهر في ثوب الحقيقة ، وقد زخرفت حواشيه وأطرافه .
- ج — أن طُلبَ إليّ أن أكتب ملحوظاتي عن النظرية ، فكتبتها في نقاط علقت بجوار عملهم مدة من الزمن .

وأذكر أنى قلت لهم حين طلبهم :

طلما أنكم اقتنعتم بوجهة نظري ، فأنتم إذن أقدر على كتابة النقد الموجه لهذه النظرية ، ولكنهم أصروا على طلبهم ، فلم يسعنى فوات الفرصة .

وإن كان قد انتهى الموقف على هذا النحو ، فقد ظل عالقاً بذهنى ، وثابعت في جمع النصوص على اختلافها ، واختلاف مصادرها لأخرج للناشئة من الطلاب مذكرة صغيرة عن نظرية دارون في عام ١٣٩٠ هـ — ١٩٧٠ م ، وهذه المذكرة هي الفصل الثاني من هذا الكتاب مع التنقيح ، والزيادة اللازمة ، وجعلتها بعد فصل آدم — عليه السلام — لأزيل عن الحق زعم الزاعمين وكذب المفترين .

٢ - ومنذ ثلاث سنوات تقريباً أى فى نهاية السبعينيات كُلفت مع آخرين بتأليف كتاب فى السيرة النبوية ، وكان من نصيبى فصلان من الكتاب ورأيت قبل أن أكتب أى موضوع أن أستحضر الأحاديث التى وردت بهذا الشأن ، وأذكر أنى تصفحت آنئذ صحيح البخارى كله أنقل منه كل ما يتصل بالموضوعات التى سأكتب فيها ، وقيل بدء الكتاب قرأت عشرات من كتب السيرة ، فتبين لى أمر خطير جداً ؛ هذا الأمر أن أكثر كُتّاب السير لم يلجئوا إلى تحقيق الأحاديث ، واكتفى بعضهم بتخريج الأحاديث فقط أى نسبتها إلى الراوى ، دون نظر إلى أقوال علماء الحديث حول السند قوة ، أو ضعفاً ، أو نكارة ، أو وضعاً حسب أصول متبعة فى هذا العلم .

وإن كان هذا الخطأ العلمى قد ألت به الكتب القديمة ، والحديثة ، ولكن أمهات الكتب القديمة كانت لها إشارات حول الحديث تُفهم من قارئ ذى خبرة بالرواة ، ويستطيع أن يميز إلى حد ما صحيح الحديث من ضعيفه ، أو موضوعه . أما أغلب الكتب الحديثة فإنها تذكر الرواية دون الإشارة إلى من رواها ، ثم تبدأ فى الاستباطات ، والاستنتاجات ، فتكون كمن بنى قصراً جميلاً على غير أساس ، وقد يكون بعد البحث اليسير أن أساسه هذا غير صحيح فتصبح الجهود المبذولة هباءً لا جدوى منها .

وشذ من الكتب الحديثة بعضها فظهرت أقرب إلى التمهيص ، والدقة فى الاختيار وتحقيق الأحاديث الواردة بالكتاب ..

وخطورة الاعتماد على الأحاديث غير الثابتة أنها تقرر السنة الفعلية للنبي ﷺ — فإذا ما كان الحديث دون الحسن مثلاً معناه أننا قررنا سنة من عندنا ، الرسول ﷺ — منها براء ، والعمل بها لا ينجى صاحبها ..

وما ذكر فى السيرة يذكر أيضاً فى سير الأنبياء والمرسلين السابقين بل ما يذكر بشأنهم كثيراً ما يعتمد على كتب أهل الكتاب بعد تحريفها وتبديلها .. وأمام وضع كهذا رأيت من الواجب على أن أقدم للمسلمين عملاً يخلو من هذه المزالق ، وأخص منهم الناشئة من الشباب المسلم ، والشابات المسلمات ،

ومن يعنون بتوجيههم ، وتريتهم . ورأيت أيضاً أن أبدأ المسيرة من أولها منذ عهد آدم إلى البشر — عليه السلام — . وكان هذا الجزء والذي أدعو الله سبحانه أن يخلص النية فيه ، وأن ينفع به ، وحسبى أنى أردت الخير ، فإن كان توفيق فمن الله سبحانه ، وإن كان خطأ فمن نفسى ومن الشيطان . أرجو من ربى الرحيم أن يغفر لى زلتى .

٣ - وفى أواخر عام ١٩٨٠ عانيت عناءً شديداً من مرض عضال — وأرجو من ربى الكريم أن يكون كقارة لما اقترفت من ذنوب — وكان من نتيجة هذا المرض أن دخلت المستشفى عدة مرات كدت فى إحداها أن ألفظ أنفاسى الأخيرة ، وظننت أننى مقضى علىّ لا محالة — وأذكر أنى لفظت الشهادتين حرفاً حرفاً لعدم قدرقى على نطق الكلمة جملة ، وأحسست سعادة تغمرنى ؛ لأن الشهادتين كانتا آخر كلامى بالدنيا ، وأراد الله سبحانه ألا يكون الأمر كما يظن البشر ، فقد قدر للناس آجالهم ، لا يستقدمون عنها ، ولا يستأخرون .

و حين أحسست بعض القوة بدأت أفكر بتنفيذ ما قد عزمت سلفاً ، وقد سبق التنفيذ الانتهاء من عمل علمى مشترك والحمد لله ، وقد صحبه تصفح صحيح مسلم جميعه ، والذي بدأ قبل مرضى ، وشغلنى وأنا بالمستشفى حتى انتهت منه بعد ذلك ناقلاً ما يخص البحث العلمى المشترك آتتد ..

٤ - وفى أول أيام رمضان عام ١٤٠١ هـ الموافق ١٩٨١ م بدأت كتابة المسودات مستعيناً بعد الله سبحانه بما لدى من أمهات كتب الحديث ، والتفسير ، والسير . وجعلت هذا العمل مشغلتى عن أى عمل إضافى يكلفنى جركة لا أقوى عليها . وحسبى من عملى الأخير أنى أقوم به وأنا فى جلسة مريحة لما بى من ضعف . وكلما أشرفت على الانتهاء ازددت سروراً وغبطة ، وأرجو أن يخرج للناس بالصورة الموقفة بعون الله تعالى .

الرسال — عليهم السلام — يدعون جميعاً إلى عقيدة واحدة

الإسلام عقيدة ، وشريعة . أى اعتقاد وإيمان بالقلب ، وتشريع عملى تقوم بتطبيقه الجوارح ..

وقد يُطلق الإسلام على أحدهما فقط ، أى يراد به التشريع . وفي حديث أبي هريرة — رضى الله عنه — قال : كان النبي — ﷺ — بارزاً للناس فأثابه رجل فقال : ما الإيمان ؟ قال :

« الإيمان ، أن تؤمن بالله ، وملائكته ، وبلقائه ، وبرسله ، وتؤمن بالبعث »

قال : ما الإسلام ؟ قال :

« الإسلام ، أن تعبد الله ، ولا تشرك به ، وتقيم الصلاة ، وتؤدى الزكاة المفروضة ، وتصوم رمضان .. » (٥) .

فأنت ترى هنا أن الحديث قصر الإسلام على التشريع ، كما قصر الإيمان على الاعتقاد القلبي .

وحديث ابن عمر — رضى الله عنهما — قال : قال رسول الله — ﷺ — :

« بنى الإسلام على خمس : شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، والحج ، وصوم رمضان » (٦) .

وفي الباب أحاديث أخرى تؤكد صحة هذا الإطلاق .

والعمل بالتشريع بهذا المفهوم ، عمل تال للإيمان ونتيجة له ، وليس هو الإيمان ، أو الاعتقاد .

وقد يذكر الإسلام ، ويراد معناه اللغوى وهو الاستسلام لله سبحانه ، والخضوع والذلة له ، وتوحيده ، والإيمان بكل ما أمر به . وهو بهذا الإطلاق يراد به مفهوم الإيمان الوارد فى حديث أنى هريرة — رضى الله عنه — كما تذكر كلمة « شرع » ويقصد بها أيضاً ما ينسجم مع هذا المفهوم للإيمان . قال تعالى :

(٥) أخرجه الشيخان . اللؤلؤ والمرجان ، كتاب الإيمان ، باب الإيمان ، هو وبيان خصاله . حديث رقم ٥ ص ٢ .

(٦) أخرجه الشيخان . المصدر السابق رقم ٩ .

﴿ شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً ، والذي أوحينا إليك ، وما وصينا به إبراهيم ، وموسى ، وعيسى ، أن أقيموا الدين ، ولا تتفرقوا فيه ﴾ (٧)

فما شرعه الله سبحانه لنا من الدين ، ووصانا به كما وصّى رسله السابقين هو أصول العقائد وقواعد الإيمان ، لا فروع الدين ، ولا شرائعه العملية فإن لكل أمة من التشريعات العملية ما يتناسب مع ظروفها ، وأحوالها ، ومستواها الفكرى ، والروحى ، قال تعالى :

﴿ لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً ﴾ (٨)

والإسلام بهذا المفهوم ، أى مفهوم الإيمان ، والاعتقاد ، دعا إليه كل الأنبياء والمرسلين — عليهم الصلاة والسلام .

قال الله تعالى عن إبراهيم الخليل — عليه السلام :

﴿ ما كان إبراهيم يهودياً ، ولا نصرانياً ، ولكن كان حنيفاً مسلماً ، وما كان من المشركين ﴾ (٩) وقال على لسانه ، ولسان ابنه إسماعيل — عليهما السلام :

﴿ وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت ، وإسماعيل . ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم ، ربنا ، واجعلنا مسلمين لك ، ومن ذريتنا أمة مسلمة لك ... ﴾ (١٠) .

وقال على لسان نوح — عليه السلام — مخاطباً قومه :

﴿ فإن توليتم فما سألتكم من أجر ، إن أجرى إلا على الله ، وأمرت أن أكون من المسلمين ﴾ (١١) .

(٧) سورة الشورى ، الآية رقم ١٣ .

(٨) سورة المائدة ، الآية رقم ٤٨ .

(٩) سورة آل عمران ، الآية رقم ٦٧ .

(١٠) سورة البقرة ، الآيتان رقما ، ١٢٧ ، ١٢٨ .

(١١) سورة يونس ، الآية رقم ٧٢ .

وعلى لسان الخليل موصياً بنيه ، ويعقوب موصياً بنيه ، قال أيضاً : ﴿ ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه ، ولقد اصطفيناه في الدنيا ، وإنه في الآخرة لمن الصالحين ﴾ * إذ قال له ربه أسلم . قال : أسلمت لرب العالمين ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب . يا بني ، إن الله اصطفى لكم الدين . فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت . إذ قال لبنيه : ما تعبدون من بعدى ؟ قالوا نعبد إلهك ، وإله آبائك ؛ إبراهيم ، وإسماعيل ، وإسحاق ، إلهاً واحداً ونحن له مسلمون ﴾ (١٢) .

وقال على لسان يوسف بن يعقوب عليهما السلام : ﴿ رب ، قد آتيتني من الملك ، وعلمتني من تأويل الأحاديث ، فاطر السموات والأرض . أنت ولي في الدنيا ، والآخرة ، توفني مسلماً وألحقني بالصالحين ﴾ (١٣) .

وقال على لسان سليمان — عليه السلام — في قصة ملكة سبأ : ﴿ وأوتينا العلم من قبلها ، وكنا مسلمين ﴾ (١٤) .

وعلى لسان السحرة حين آمنوا قال : ﴿ ربنا أفرغ علينا صبراً ، وتوفنا مسلمين ﴾ (١٥) .

وعلى لسان الحواريين قال : ﴿ وإذ أوحيت إلى الحواريين : أن آمنوا بي وبرسولي ، قالوا : آمنا ، واشهد بأننا مسلمون ﴾ (١٦) .

(١٢) سورة البقرة الآيات من رقم ١٣٠ ، إلى رقم ١٣٣ .

(١٣) سورة يوسف الآية رقم ١٠١ .

(١٤) سورة النمل ، الآية رقم ٤٢ .

(١٥) سورة الأعراف ، الآية رقم ١٢٦ .

(١٦) سورة المائدة ، الآية رقم ١١١ .

وعلى لسان غير البشر من الجن قال أيضاً :
﴿ وأنا منا المسلمون ، ومنا القاسطون . فمن أسلم فأولئك تحروا
رشداً ﴾ (١٧) .

وقد أمر الله سبحانه نبيه محمداً — ﷺ — أن يكون أول هؤلاء المسلمين
فقال :

﴿ قل : إني أمرت أن أكون أول من أسلم ﴾ (١٨) .
كما طلب إلى الدعاة والمصلحين أن يفخروا بهذه التسمية فقال :
﴿ ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله ، وعمل صالحاً ، وقال : إني من
المسلمين ﴾ (١٩) .

وبناء على هذا :
فلا قبول لأي عمل إلا إذا كان صاحبه مسلماً . قال تعالى :
﴿ ومن يبتغ غير الإسلام ديناً ، فلن يقبل منه ﴾ (٢٠) .
﴿ إن الدين عند الله الإسلام ﴾ (٢١) .
﴿ بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه ﴾ (٢٢) .

وبناء على هذا أيضاً :
فالإسلام هو الدين الذي دعا إليه كل الأنبياء والمرسلين — عليهم الصلاة
والسلام — وإن كان لكل منهم تشريع خاص يتناسب مع الزمن الذي عاش فيه ،
والناس الذين أرسل إليهم كما سبق .

(١٧) سورة الجن ، الآية رقم ١٤ .

(١٨) سورة الأنعام ، الآية رقم ١٤ .

(١٩) سورة فصلت ، الآية رقم ٣٣ .

(٢٠) سورة آل عمران ، الآية رقم ٨٥ .

(٢١) سورة آل عمران ، الآية رقم ١٩ .

(٢٢) سورة البقرة ، الآية رقم ١١٢ .

عن طلحة بن عبيد الله — رضى الله عنه . أن رسول الله — ﷺ — قال :

« أفضل الدعاء دعائى يوم عرفة ، وأفضل ما قلت أنا والنبيون من قبلى : لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له » (٢٣) .

وعن أبى هريرة — رضى الله عنه — قال : سمعت رسول الله — ﷺ — يقول :

« أنا أولى الناس بعيسى بن مريم ، والأنبياء أولاد علات . ليس بينى وبينه نبي » (٢٤) .

توجيه النظر إلى قصص السابقين :

قال الله تعالى :

﴿ ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن مكناهم في الأرض ما لم نمكن ﴾

(٢٣) أخرجه الإمام مالك في الموطأ ، باب ما جاء في الدعاء ص ١٥٠ طبعة كتاب الشعب ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي .

وقال المحقق : وأخرجه الترمذى مرفوعاً عن عمرو بن شعيب ، عن أبيه ، عن جده ، في كتاب الدعوات ، باب في دعائى يوم عرفة .

وقيل في مثل هذا السند : إنه حسن . أى في درجة الثبوت . والله أعلم .

(٢٤) أخرجه الشيخان . اللؤلؤ والمرجان ، كتاب الفضائل ، باب فضائل عيسى — عليه السلام — رقم ١٥٢٦ ص ٦٢٢ وبالهامش للمراجع :

« أنا أولى الناس بعيسى بن مريم : لكونه مبشراً بى قبل بعثتى ، ومهدداً لقواعد ملئتى في آخر الزمان ، تابعاً لشريعتى ، ناصراً لدينى ، فكأننا واحد ، علات : العلة الضرة ، مأخوذة من العلل ، وهى الشربة الثانية بعد الأولى ، وكأن الزوج قد علّ منها بعد أن كان ناهلاً من الأخرى ، وأولاد العلات ؛ أولاد الضرات من رجل واحد ، يريد أن الأنبياء أصل دينهم واحد ، وفروعهم مختلفة ، فهم متفقون في الاعتقادات المسماة بأصول الدين ، كالوحيد ، مختلفون في الفروع وهى الفقهيات .

لكم ، وأرسلنا السماء عليهم مدراراً ، وجعلنا الأنهار تجري من تحتهم ، فأهلكناهم بذنوبهم ، وأنشأنا من بعدهم قرناً آخرين ﴿ (٢٥) .

وقال في نفس السورة :

﴿ ولقد كُذِّبَتْ رسل من قبلك ، فصبروا على ما كُذِّبُوا ، وأوذوا حتى أتاهم نصرنا ، ولا مبدل لكلمات الله ، ولقد جاءك من نبأ المرسلين ﴾ (٢٦) .

وقال أيضاً :

﴿ ولقد أرسلنا إلى أُمَمٍ من قبلك ، فأخذناهم بالبأساء ، والضراء ؛ لعلهم يتضرعون ﴾ (٢٧) .

وقال :

﴿ وما نرسل المرسلين إلا مبشرين . ومنذرين ، فمن آمن ، وأصلح ، فلا خوف عليهم ، ولا هم يحزنون ، والذين كذبوا بآياتنا يمسهم العذاب بما كانوا يفسقون ﴾ (٢٨) .

في سورة واحدة هي سورة الأنعام يوجه الله سبحانه خطابه ، إلى رسوله محمد — ﷺ — وإلى قومه المعاصرين له ، وإلى الناس كافة إلى يوم القيامة .

وسورة الأنعام مكية نزلت جملة واحدة على النبي — ﷺ — واستقبلها بالتسبيح لله سبحانه ، كما شيعها الكثير من الملائكة :

فمن جابر بن عبد الله — رضى الله عنهما — قال :

لما نزلت سورة الأنعام ، سبح رسول الله — ﷺ — ثم قال :

(٢٥) سورة الأنعام ، الآية رقم ٦ .

(٢٦) سورة الأنعام ، الآية رقم ٣٤ .

(٢٧) سورة الأنعام ، الآية رقم ٤٢ .

(٢٨) سورة الأنعام ، الآية رقم ٤٨ ، ٤٩ .

« لقد شيع هذه السورة من الملائكة ما سدّ الأفق » (٢٩) .

والاحتفاء بهذه السورة في السماء ، والأرض على هذا النمط ؛ لما تضمنته من العظمت والعبر في ضوء آياتها ، والمفاصلة الواضحة بين طريقين : طريق الجاهلية بكل أصنافها ، وطواغيتها المتداعية ، وطريق الحق في دعوة التوحيد ، التي توحد الناس ، وتعبدهم لرب الناس لا للناس ، أو مزاعم الناس .

ونحن في ضوء ما سجل من آيات كريمة نجد :

أولاً : أن الأمم السابقة سبق لهم أن تمكنوا في الأرض ، وتقلدوا السلطة ، واستبدلوا بها دون الاهتداء بالشرائع . فهم إذن في الجانب السياسي في أيديهم أزمة الحكم ، ودفته .

وأن الله سبحانه قد أعطاهم من نعمه الكثير ، فالسماء درت عليهم بالماء الغزير ، ففاضت الأنهار وسارت بإذن الله تعالى . فاخضرت الأرض ، واعشوشبت . ونما اقتصادهم بإذن الله تعالى .

وأن هذه الأمم لم تستفد من توجيه هذه النعم في مرضاة الله ، ولم يفدها وضعها السياسي ولا الازدهار الاقتصادي ، وقال أحدهم في موضع آخر : ﴿ إِنَّمَا أُوتِيَتْهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي ﴾ (٣٠) .

وأن هذه الأمم ، عاثت في الأرض فساداً ، واركتبت الذنوب ، وأشركت بالله سبحانه ، وبذل أن تشكر الله تعالى على نعمه ، قدمت المعاصي والذنوب .

وأن قضاء الله سبحانه حاق بهذه الأمم بسبب هذه الردة الجاهلية . وإذا قضى الله فلا رادّ لقضائه ، ولا معقب لحكمه ، ولم يكن إهلاك السابقين إلا نتيجة عصيان صادر منهم .

(٢٩) أخرجه الحاكم في المستدرک ، وقال : صحيح على شرط مسلم . ابن كثير ، مقدمة تفسير سورة الأنعام .

(٣٠) سورة القصص ، الآية رقم ٧٨ .

ثانياً : أن الله سبحانه كان يذكر هؤلاء السابقين بوسائل متنوعة ؛ فهذه النعم لم يكونوا هم صانعيها كما سبق أن عرفنا . وأن الله تعالى كان يأخذهم بنوع خفيف من البأس ، والضر ، دون الإهلاك العام ، لعلهم يرجعون إلى توحيد ربهم . . .

وأنه تعالى أيضاً قد أرسل إليهم الرسل الذين يبينون لهم طريق الحق ، ويحذروهم طريق الشر . . . فما كان منهم إلا التكذيب هؤلاء الدعاة المخلصين ، مصممين على السير في جاهليتهم المنتنة .

ثالثاً : أن الله سبحانه يوجه أنظار أهل مكة ، وكل الأجيال اللاحقة إلى أخذ العبر والعظات من سير السابقين ، والاستفادة مما حدث لهم . والتفكير الجاد في اختيار أقوم الطرق ، وفي القرآن الكريم الكثير من الآيات التي تجبض على هذا .

رابعاً : أن الله سبحانه حين أهلك من أشرك ، وانحرف عن الطريق المستقيم ، أنشأ بعدهم قروناً آخرين . فكل من يتولى ، ويعرض ، فالهزيمة ، والإهلاك له . والبقاء لمن سار على منهج الحق ، سيراً صحيحاً ، لا تزييف فيه ، ولا تحريف ، ولا نكوص ، ولا قعود .

﴿ إلا تفروا يعذبكم عذاباً أليماً ، ويستبدل قوماً غيركم ، ولا تضره شيئاً ، والله على كل شيء قدير ﴾ (٣١) .

خامساً : أن الله سبحانه يوصي رسوله محمداً ﷺ — ومن معه من أتباعه ، والمهتدين بهديه بعدة وصايا :

— التعرف على نفسيات الناس من خلال تعرضهم للأحداث التي تمر بهم .

— الإصرار على دعوة الناس ، في كل مجالاتهم ، وأماكنهم . بكل الأساليب الممكنة التي بمقدور الدعاة أن يفعلوها .

(٣١) سورة التوبة ، الآية رقم ٣٩ .

- الصبر على ما يتحملون في سبيل الدعوة من إيذاء .
- تناول الإنسان بجانبى الرغبة ، والترهيب معاً ، وعدم الاكتفاء بواحد منهما دون الآخر .
- أن من لوازم الإيمان بالدعوة ، العمل الصالح بكل مجالاته على هدى من نور الله سبحانه ، ورسالاته .
- سادساً : أن من آمن وأصلح . يحقق الله سبحانه له الأمن والأمان في الدنيا ، والآخرة ، فهو على ما يلاقيه من إيذاء الجاهلية يعيش متفياً ظلال هذا الأمن الذى يسبغه ربه تعالى عليه .
- وأن الجاهلين يعيشون وإن تمكنوا في الأرض في قلق دائم ، وخوف من أنفسهم : ﴿ ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ، ونحشره يوم القيامة أعمى ، قال : رب ، لم حشرتني أعمى ، وقد كنت بصيراً ؟ قال : كذلك أتتك آياتنا فنسيتها ، وكذلك اليوم نُنسى ، وكذلك نجزي من أسرف ولم يؤمن بآيات ربه ، وللعذاب الآخرة أشد وأبقى ﴾ (٣٢) .
- سابعاً : طالما والأمر كذلك فعلى دعاة الحق أن يتآزروا ، ويتعاونوا ، ولا تتسرب إلى صفوفهم عوامل الفرقة بسبب اختلاف الوضع الاجتماعى ، والاقتصادى . فهم جميعاً يمثلون الأمة التى هى خير أمة أخرجت للناس .
- ويوصيهم ربهم في سورة الأنعام بقوله : موجهاً الخطاب إلى نبيهم محمد — ﷺ :
- ﴿ ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ﴾ (٣٣) .
- تلك هى نفحات سورة الأنعام ، وما أكثر ما فيها من نفحات .

(٣٢) سورة طه ، الآيات ١٢٤ ، ١٢٥ ، ١٢٦ ، ١٢٧ .

(٣٣) سورة الأنعام ، الآية رقم ٥٢ .

لمن ألف هذا الكتاب ؟

وفي ضوء ما تقدم من أسباب ، وظروف مصاحبة لهذا العمل ، فقد أحسست تجاه الشباب المسلم ، الذى يريد أن يضع رجله على أول الطريق ، فيجد الكثير من الكتب التى تحتاج إلى تحقيق ، وتمحيص لما تتضمنه من نصوص . وقد تذكر فيها النصوص مع اصطلاحات خاصة ، لا يفهمها إلا المتدرس فى علم الحديث ، ومصطلحه ، فيلتبس على الشاب حين قراءته ، ويخلط بين الصحيح ، والضعيف ، والمنكر ، والموضوع . وفي ضوء هذا ، وغيره آثرت أن أبدأ الطريق مع هؤلاء الشباب ، مع إضافة شيء جديد أيضاً هو ما يُستنبط من أحكام ، وعبر ، وعظات نحن مأمورون شرعاً بأخذها ، واستنباطها ، وتعويد الشباب على مثل هذا النهج القويم ، فلا يقف عند النص ، بل يحاول إذا ما توافرت لديه الأسباب أن يتأمله ، ويفكر فيه ، ويجتهد فى الأسلوب التطبيقي ، والبعيد عن الشطط والمخالفة للأصول المرعية فى مجال الاجتهاد ، وإذا ما خصصت الشباب بمثل هذا العمل ، فإني أخص بالضرورة من يرعون هؤلاء الشباب تربية ، وتعليماً ، وتدريباً سديداً .

منهج الكتاب ، وطريقته :

رأيت أن أوزع الكتاب إلى فصول ، وإن كانت هذه الفصول غير مرقمة ، فلأنها مسماة بأسماء الرسل الكرام .

وقد تأخذ سيرة الرسول فصلاً واحداً ، وقد تتوزع إلى عدة فصول كما سترى فى سيرة موسى ، وهارون — عليهما السلام — وقد تأخذ سيرة رسولين فصلاً واحداً فقط ؛ لقلة ما ورد بشأنهما من نصوص .

وفى بداية كل فصل بينت الموضوعات التى ستبحث فيه فى الصفحة الأولى لهذا الفصل ، وبنفس ترتيب تناولها .

وحرصت الحرص الشديد أن أنقى الكتاب من أى نص ضعيف ، فالأحاديث الشريفة إما أن تكون متفقاً عليها من الشيخين : البخارى ، ومسلم ، والمرجع الأول فى ذلك ، اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان ، وإما أن

يخرجها أحدهما . وإذا ما كان نص من غيرهما فقد حرصت أن أقف على درجة السند في حدود طاقتي ، وصرحت بمن صحح مثل هذا الحديث ، أو أثبته ، ولم أتردد في عدم الاستشهاد بغير ذلك ، تنفيذاً لما وعدت به ، والحمد لله .

وتيسيراً لي ، ولكل قارئ ذكرت بالهامش المراجع مع تحديد الجزء ، والكتاب ، والفصل ، أو الباب ، أو الرقم والصفحة ، وقد أضيف الطبعة ، ودار النشر في أول ذكر هذا المرجع غالباً .

وفي كل فصل تلمست قدر طاقتي الأحكام المستفادة ، والمستنبطة ، والعبر ، والعظات ، وقد أضيفت بالهامش — من باب الإسقاط التاريخي — ما يماثل الموقف ، أو ما فيه رد على شبهة مثلاً .

على الرغم من تحديد المراجع بالهامش فقد ضمنت الفهرس هذه المراجع مجموعة ، ولتساؤلنا حين ذكر الصحابي وغيره عن سيرته ، ومواقفه آثرت أن أسجل ترجمة هادفة له ، وبختام الكتاب فهارس الكتاب ؛ للأحاديث للمراجع ، للموضوعات ..

هذا وأرجو من الله سبحانه ، أن يخلص النوايا إليه ، وأن يسدد خطانا ، وأن يتقبل منا صالح أعمالنا ، فإن كانت صواباً فممه سبحانه ، وإن كانت خطأ فمن أنفسنا ، ومن الشيطان .

هذا وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

سيد أحمد الكيلاني

٢٨ / ٤ / ١٤٠٣ هـ

١٤ / ١ / ١٩٨٣ م

الكويت في يوم الجمعة .

أبو البشر آدم — عليه السلام .

- بدء الخلق .
- مم خلق ؟ وكيف ؟
- آدم وحواء .
- آدم والملائكة .
- آدم وإبليس .
- آدم في السماء الأولى .
- آدم والشفاعة .
- دروس وعبر .

بدء الخلق :

« كان الله سبحانه وتعالى ولم يكن شيء غيره ، وكان عرشه على الماء ، وكتب في الذكر كل شيء ، وخلق السموات والأرض » (١) ، وذلك قبل أن يخلق آدم — عليه السلام .

وسبق آدم — عليه السلام — في الخلق ما سخره الله له ، ولبنيه من بعده ، وما به تستقيم الحياة على وجه الأرض ، فعن أبي هريرة (٢) — رضى الله عنه — قال : أخذ رسول الله — ﷺ — بيدي ، فقال :

« خلق الله عز وجل التربة ، يوم السبت ، وخلق فيها الجبال يوم الأحد ، وخلق الشجر يوم الاثنين ، وخلق المكروه يوم الثلاثاء ، وخلق النور

(١) نص حديث رواه البخارى ، عن عمران بن حصين — رضى الله عنهما — قال : قال أهل اليمن للرسول — ﷺ : جئناك نسألك عن هذا الأمر . قال : (الحديث) كتاب بدء الخلق ج ٤ ص ١٢٩ ومشكاة المصابيح ، للخطيب التبريزى رقم ٥٦٩٨ ، وروى البخارى حديثاً آخر بهذا الشأن أيضاً ، عن عبد الله بن عمرو بن العاص — رضى الله عنهما — قال : سمعت رسول الله — ﷺ — يقول :

« كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض » .

(٢) هو الصحابى الجليل ، الحافظ المكثر ، واختلف فى اسمه ، واسم أبيه ، قال ابن عبد البر : الذى تسكن النفس إليه من الأقوال ، أنه عبد الرحمن بن صخر ، وهو أكثر الصحابة حديثاً ، فليس لأحد منهم ما يقارب ما رواه ، مات فى المدينة سنة تسع وخمسين ، وهو ابن ثمان وسبعين سنة ، ودُفن بالبقيع ، وقيل مات بالعقيق ، وكان يومئذ أميراً على المدينة كما قاله ابن عبد البر . سبل السلام للصنعانى (١٠٥٩ - ١١٨٢ هـ) وهو شرح بلوغ المرام من أدلة الأحكام ، لأحمد بن حجر العسقلانى (٧٧٣ - ٨٥٢ هـ) ج ١ ص ١٤ ك الطهارة ، باب المياه . الحديث الأول .

وقد روى الشيخان حديثاً فى سبب كثرة روايته للأحاديث .
عن أبي هريرة — رضى الله عنه — قال : إنكم تزعمون أن أبا هريرة يكثر الحديث على رسول الله — ﷺ — والله الموعود (بضم الهاء ، والذال ؛ أى فيحاسبنى إن تعمدت كذباً ،

يوم الأربعاء ، وبث فيها الدواب يوم الخميس ، وخلق آدم العصر من يوم الجمعة في آخر الخلق ، في آخر ساعة من ساعات الجمعة فيما بين العصر إلى الليل » (٣)

ونلاحظ من هذا الترتيب أن الأرض قد سبقت في الوجود الشجر والنبات ؛ فلا شجر ولا نبات إلا في تربة تدها بالغذاء ، وسبقت الأشجار في الوجود الدواب ؛ لأن الدواب تعتمد في حياتها على ما تناله من الأشجار والنبات .

ويحاسب من ظن بىّ السوء) ، إني كنت امرأ مسكيناً (من مساكين الصفة) ألزم رسول الله ﷺ — على ملء بطنى (أى لا أنقطع عنه خشية أن يفوتنى القوت) ، وكان المهاجرون يشغلهم الصنف بالأسواق ، (أى التبايع فيها) وكانت الأنصار يشغلهم القيام على أموالهم ، (أى ، فى الزراعة) فشهدت من رسول الله ﷺ — ذات يوم ، وقال :

« من ييسط رداءه حتى أقضى مقالتي ، ثم يقبضه (أى الرداء) . فلن ينسى شيئاً سمعه منى ؟ » .

فبسطت بردة كانت علىّ ، فوالذى بعته بالحق ما نسيت شيئاً سمعته منه .

اللؤلؤ والمرجان ، فيما اتفق عليه الشيخان ، ك فضائل الصحابة ، رقم ١٦٢١ .

(٣) رواه مسلم . ك ذكر الأنبياء وفضلهم ، باب . فى ابتداء خلق آدم — عليه السلام — المختصر للحافظ المنذرى ، رقم ١٦٠٥ ، ومشكاة المصابيح رقم ٥٧٣٤ ك أحوال القيامة وبدء الخلق ، باب ، بدء الخلق وذكر الأنبياء ج ٣ ص ١٢١ تحقيق الشيخ ناصر الألبانى .

قال المحقق : فى الصحيح ... ولا مطعن فى إسناده ألبتة ، وليس هو بمخالف للقرآن ، بوجه من الوجوه ، خلافاً لما توهمه بعضهم ؛ فإن الحديث يفصل كيفية الخلق على الأرض وحدها ، وأن ذلك كان فى سبعة أيام ، ونص القرآن على أن خلق السموات والأرض كان فى ستة أيام ، والأرض فى يومين لا يعارض ذلك ؛ لاحتمال أن هذه الأيام الستة غير الأيام السبعة المذكورة فى الحديث ، وأنه — أعنى الحديث — يتحدث عن مرحلة من مراحل تطور الخلق على وجه الأرض ، حتى صارت صالحة للسكنى ، ويؤيده أن القرآن يذكر بعض الأيام عند الله تعالى كآلف سنة ، وبعضه مقداره خمسون ألف سنة . فما المانع أن تكون الأيام الستة من =

ثم كان أبو البشر ، آدم — عليه السلام — وقد سبقه في الخلق ، الماء ،
والسما ، والأرض بما فيها من جبال ، وأشجار ، ونبات ، ودواب ؛ لتكون في
خدمته مسخرة له .

= هذا القليل ؟ والأيام السبعة من أيامنا هذه ؟ كما هو صريح الحديث . وحيث فلا تعارض بينه
وبين القرآن . اهـ .

ويشير المحقق بهذا إلى ابن قيم الجوزية في كتابه : المنار المنيف في الصحيح والضعيف ،
حققه وخرج نصوصه وعلق عليه عبد الفتاح أبو غدة ، الناشر مكتب المطبوعات
الاسلامية — حلب ١٣٩٠ هـ — ١٩٧٠ م .

قال ابن القيم في فصل ١٩ مسألة رقم ١٥٣ ص ٨٤ ما نصه :

ما وقع فيه الغلط من حديث أبي هريرة : « خلق الله التربة يوم السبت ... »
الحديث ، وهو في « صحيح مسلم » ولكن الغلط وقع في رفعه ، وإنما هو من قول
كعب الأحبار ، كذلك قال إمام أهل الحديث : محمد بن إسماعيل البخاري في
« تاريخه الكبير » وقاله غيره من علماء المسلمين أيضاً ، وهو كما قالوا : لأن الله أخبر أنه خلق
السموات ، والأرض ، وما بينهما في ستة أيام ، وهذا الحديث يقتضى أن مدة التخليق سبعة
أيام « والله أعلم » اهـ .

وقال محقق المنار المنيف بالهامش تعليقاً ما نصه :

« قال العلامة المناوي في « فيض القدير » ٣ : ٤٤٨ : قال الزركشي : أخرجه
مسلم ، وهو من غرائب ، وقد تكلم فيه — أى في هذا الحديث . ابن المديني ، والبخاري ،
وغيرهما من الحفاظ ، وجعلوه من كلام كعب الأحبار ، وأن أبا هريرة إنما سمعه منه ، لكن
اشتبه على بعض الرواة فجعله مرفوعاً ، وقد حرر ذلك البيهقي — في كتابه
« الأسماء والصفات » ص ٣٨٣ ، ٣٨٤ — وذكره ابن كثير في « تفسيره » وقال بعضهم :
هذا الحديث في متنه غرابة شديدة ، فمن ذلك أنه ليس فيه ذكر السموات ، وفيه ذكر
خلق الأرض ، وما فيها في سبعة أيام ، وهذا خلاف القرآن ، لأن الأربعة خلقت في أربعة
أيام ، ثم خلقت السموات في يومين .

= وقال الحافظ ابن كثير في تفسيره في سورة الأعراف عند الآية ٥٤ ، وفي سورة السجدة عند الآية ٤ ، وفي سورة فصلت عند الآية ٩ — ١٢ ما خلاصته :

فأما حديث أبي هريرة .. فقد رواه مسلم ، والنسائي في كتابيهما من حديث ابن جريج ، وهو من غرائب الصحيح ، ففيه استيعاب الأيام السبعة ، والله تعالى قد قال : ﴿ في ستة أيام ﴾ ولهذا تكلم البخاري وغير واحد من الحفاظ في هذا الحديث ، وجعلوه من رواية أبي هريرة — رضى الله عنه — عن كعب الأحبار وليس مرفوعاً ، وقد علله البخاري في التاريخ الكبير ١/١ : ٤١٣ فقال : « رواه بعضهم عن أبي هريرة عن كعب الأحبار ، وهو الأصح .

وللشيخ عبد الرحمن بن يحيى المعلمي اليماني رحمه الله تعالى في « الأنوار الكاشفة » ص ١٨٨ — ١٩٣ كلام طويل حول هذا الحديث وتوجيه رواية أبي هريرة هذه ...

وقد قال الحافظ عبد القادر القرشي في آخر كتابه « الجواهر المضيئة في طبقات الحنفية » ٢ : ٤٢٩ ، وقد ذكر فيه بعض ما ينتقد على مسلم في « صحيحه » ومنها هذا الحديث ، وقال : « اتفق الناس على أن يوم السبت لم يقع فيه خلق ، وأن ابتداء الخلق يوم الأحد » انتهى كلام المحقق بهامش الكتاب .

والتوفيق الذى ذكره محقق مختصر مسلم أولى ، كما سبق ، وحيث لا يكون تناقض بين الحديث ، وصريح القرآن الكريم ، والله أعلم بالصواب .

وليس في كلام ابن القيم وغيره مطعن في أبي هريرة ، فقد أسند النسيان إلى بعض رجال السند غيره ، فتوهم أن الصحابي رفعه إلى النبي — ﷺ .

ويبقى السؤال عن شخصية كعب الأحبار ، وإليك ما ذكره محقق الكتاب السابق في ص ٨٩ وما بعدها : بتصرف :

« هو كعب بن ماتع الحميري ، والأحبار (العلماء) ، وكان هو من أحبار اليهود ، ومن أوسعهم اطلاعاً على كتبهم ، ولد في اليمن ، وكان من المخضرمين ، أدرك الجاهلية ، والإسلام ، وأقام في اليمن إلى أن هاجر ، وأسلم سنة اثنتى عشرة في زمن عمر — رضى الله عنه ، ومات بمحصر سنة ٣٢ هـ .

مم خلق ، وكيف ؟

تحيب الآيات القرآنية بأن آدم — عليه السلام — أُخلق من تراب ، وفي ذلك يقول الله تعالى :

﴿ إِن مِثْلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمِثْلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تَرَابٍ ، ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ (٤) .

وبأنه خلقه من طين . وفي ذلك يقول تعالى :

﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ : إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ ﴾ (٥) .
ويقول أيضاً :

﴿ إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ ﴾ (٦) .
وبأنه خلقه من صلصال ، وفي ذلك يقول :

= وقد كان كعب كثير الحديث عن الأوائل ؛ حتى نهاه عمر رضى الله عنه ، عن ذلك ، فى قوله :

«لتتركن الحديث عن الأول ، أو لألحقنك بأرض القردة » .

وقد قال معاوية — رضى الله عنه . عنه فى رواية للبخارى « كتاب الاعتصام »

« إن كان من أصدق هؤلاء المحدثين الذين يحدثون عن أهل الكتاب ، وإن كنا لنبلو عليه الكذب » .

ونهاه عوف بن مالك أن يقص على الناس ؛ كما فى الإصابة لابن حجر فى المخضرمين . كما أن حذيفة قال فيه : كذب كعب ، حين زعم أن السماء تدور على قطب كالرحى . وقد قال الشيخ أحمد شاكر — رحمه الله — فى تعليقه على تفسير ابن حجر ٦ : ٤٥٧ « إن رواية كعب الأخبار إنما هى لاشيء ، ولا يحتج بها » .

(٤) سورة آل عمران ، الآية رقم ٥٩ .

(٥) سورة ص ، الآية رقم ٧١ .

(٦) سورة الصافات ، الآية رقم ١١ .

﴿ خلق الإنسان من صلصال كالفخار ﴾ (٧)

وبأن هذا الصلصال من حمأ مسنون ، وفي ذلك يقول :

﴿ قال : لم أكن لأسجد لبشر خلقت من صلصال من حمأ

مسنون ﴾ (٨)

ويقول أيضاً :

﴿ إني خالق بشراً من صلصال من حمأ مسنون ﴾ (٩) .

ولا غرابة في هذا الاختلاف ؛ فالأصل الأول هو التراب ، فإذا ما خلط بالماء صار طيناً ، وإذا ما طالت عليه المدة الزمنية صار الطين حمأ مسنوناً ؛ أى طيناً متغيراً ، وإذا ما شكل هذا الحمأ المسنون ، ثم جف ، صار صلصالاً ، إذا ما قرع أصدر صوتاً ، ورنيناً كالفخار ، فأمكن بذلك الرجوع إلى مرحلة من هذه المراحل ، في بيان أصل الخلق .

عن أبي هريرة — رضى الله عنه — أن النبي — ﷺ — قال :

« إن الله خلق آدم من تراب ، فجعله طيناً ، ثم تركه ، حتى إذا كان حمأ مسنوناً ، خلقه ، وصوره ، ثم تركه ، حتى إذا كان صلصالاً كالفخار كان إبليس يمر به فيقول : لقد خلقت لأمر عظيم ، ثم نفخ الله من روحه ، وكان أول ما جرى فيه الروح بصره ، وخياشيمه ، فعض ، فقال : الحمد لله ، فقال الله : يرحمك ربك ... » (١٠) .

(٧) سورة الرحمن ، الآية رقم ١٤ .

(٨) سورة الحجر ، الآية رقم ٣٣ .

(٩) سورة الحجر ، الآية رقم ٢٨ .

(١٠) رواه الترمذى ، والنسائى ، والبخارى ، وصححه ابن حبان ، ذكره الحافظ ابن حجر ، في فتح البارى بشرح البخارى . كتاب أحاديث الأنبياء ، باب خلق آدم وذريته ج ١٣ ص ٩٧ طبعة مكتبة الكليات الأزهرية بمصر ١٣٩٨ هـ — ١٩٧٨ م .

وعن أنس بن مالك — رضى الله عنه — أن النبي — ﷺ — قال :
« لما خلق الله آدم تركه ما شاء أن يدعه ، فجعل إبليس يطيف به ،
فلما رآه أجوف عرف أنه لا يتالك » (١١) .

وعن أبى موسى — رضى الله عنه — أن النبي — ﷺ — قال :
« إن الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض ، فجاء بنو آدم
على قدر الأرض » (١٢) .
ثم إنه خلقه خلقاً سوياً فى أحسن تقويم ، وفى ذلك يقول الله تعالى :
﴿ لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم ﴾ (١٣) .

وقد بلغ طوله حين خلقه ستين ذراعاً ، كثير شعر الرأس كأنه نخلة
سحوق ، مرتفعة عالية ، وعلى صورة القمر ليلة البدر .

فعن أبى هريرة — رضى الله عنه — عن النبي — ﷺ — قال :
« خلق الله آدم ، وطوله ستون ذراعاً ، فلما خلقه ، قال : اذهب
فسلم على أولئك من الملائكة ، فاستمع ما يحيونك ، تحيتك وتحية ذريتك ،
فقال : السلام عليكم ، فقالوا : السلام عليكم ورحمة الله ، فزادوه ورحمة
الله ، فكل من يدخل الجنة على صورة آدم ، فلم يزل الخلق ينقص حتى
الآن » (١٤) .

وقال أيضاً :

« إن أول زمرة يدخلون الجنة على صورة القمر ليلة البدر ، ثم الذين

(١١) رواه أحمد ، ومسلم . المرجع السابق .

(١٢) رواه أبو داود ، والترمذى ، وصححه ابن حبان . المرجع السابق .

(١٣) سورة التين ، الآية رقم ٤ .

(١٤) أخرجه البخارى كتاب الأنبياء ، باب خلق آدم ج ٤ ص ١٥٩ ، وفى الفتح ج ١٣ ص ١٠١ ،
رقم ٣٣٢٦ .

يلونهم ، على خلق رجل واحد ، على صورة أبيهم آدم ستون ذراعاً في السماء » (١٥) .

وعن أبي بن كعب — رضى الله عنه — أن النبي — ﷺ — قال :
« إن الله خلق آدم رجلاً طوالاً ، كثير شعر الرأس ، كأنه نخلة سحوق » (١٦) .
ودبت الحياة في هذا الجسم الذى سواه الله سبحانه ، ثم نفخ فيه من روحه .

وفى ذلك يقول الله تعالى :

﴿ فإذا سويته ، ونفخت فيه من روحي ، فقعدوا له ساجدين ﴾ (١٧) .
وكان اكتمال خلقه يوم الجمعة كما سبق .

عن أبي هريرة — رضى الله عنه — أن النبي — ﷺ — قال :
« خير يوم طلعت فيه الشمس يوم الجمعة ، فيه تخلق آدم ، وفيه أدخل الجنة ، وفيه أخرج منها ، ولا تقوم الساعة إلا في يوم الجمعة » (١٨) .

آدم وحواء .

يقول الله تبارك وتعالى :

(١٥) صحيح البخارى . الكتاب والباب السابقان ، رقم ٣٣١٧ مع اختصار ، وصحيح مسلم كتاب صفة الجنة ، مع اختلاف فى اللفظ .

(١٦) رواه ابن أبى حاتم بإسناد حسن ، ذكره الحافظ فى الفتح . نفس الكتاب والباب ، ص ١٠٢ .

(١٧) سورة الحجر ، الآية رقم ٢٩ وسورة ص ، الآية رقم ٧١ .

(١٨) أخرجه مسلم والنسائى ، واللفظ لمسلم ، المختصر ، باب فضل يوم الجمعة رقم ٤٠٠

﴿ يَأَيُّهَا النَّاسُ ، اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ، وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾ (١٩) .

وتؤكد الآيات الكريمة ، والأحاديث الشريفة السابقة ، أن هذه النفس الواحدة هي نفس آدم — عليه السلام — ولا ريب في ذلك ، كما تؤكد آية النساء السابقة أن زوج آدم — عليه السلام — وهي حواء ، خلقت من هذه النفس الواحدة ، نفس آدم — عليه السلام .

ويأتى الحديث الشريف لبيان ذلك ؛ فعن أئ هريرة — رضى الله عنه — قال : قال رسول الله — ﷺ :

« استوصوا بالنساء فإن المرأة خلقت من ضلع ، وإن أعوج شيء في الضلع أعلاه ، فإن ذهبت تقيمه كسرته ، وإن تركته لم يزل أعوج ، فاستوصوا بالنساء » (٢٠) .

وبمجموع الآية الكريمة ، والحديث الشريف ، نعلم أن المخلوق الأول من البشر هو آدم — عليه السلام — وأن حواء خلقت من أحد أضلاعه .

آدم والملائكة — عليهم السلام .

خلق الله سبحانه آدم — عليه السلام — وأهله بالعلم لقيادة المخلوقات إذا ما سار على منهج خالقه سبحانه . منهج التفكير ، والتلقى من الله سبحانه ، وقد ظنت الملائكة أن مصدر الخلق المتمايز ، هو أصل المفاضلة ، فعن أم المؤمنين عائشة (٢١) رضى الله عنها — أن النبى — ﷺ — قال :

« خلقت الملائكة من نور ، وخلق إبليس من مارج من نار ، وخلق آدم »

(١٩) سورة النساء ، الآية رقم ١ .

(٢٠) أخرجه الشيخان ، صحيح البخارى ، ج ٤ ص ١٦٠ ، مختصر مسلم كتاب النكاح ، باب في مداراة النساء ، والوصية بهن ج ١ ص ٢١٨ ، ٢١٩ رقم ٨٤٤ .

(٢١) هي أم المؤمنين عائشة بنت أبى بكر الصديق — رضى الله عنهما — أمها =

مما وصف لكم » (٢٢) أى من طين ، فرد الله سبحانه عليهم حجبتهم ، وبين لهم أن أساس التكريم ما آتاه الله سبحانه وتعالى لآدم — عليه السلام — من علم ، وفى ذلك يقول الله تعالى :

﴿ وإذ قال ربك للملائكة : إني جاعل في الأرض خليفة ، قالوا : أتجعل فيها من يفسد فيها ، ويسفك الدماء ، ونحن نسبح بحمدك ، ونقدس لك ؟ قال : إني أعلم ما لا تعلمون . وعلم آدم الأسماء كلها ، ثم عرضهم على الملائكة ، فقال : أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين . قالوا سبحانك ! لا علم لنا إلا ما علمتنا ، إنك أنت العليم الحكيم ، قال : يا آدم ، أنبئهم بأسمائهم . فلما أنبأهم بأسمائهم ، قال : ألم أقل لكم : إني أعلم غيب

= أم رومان ابنة عامر ، خطبها النبي — ﷺ — بمكة ، وتزوجها في شوال سنة عشر من النبوة وهى بنت ست سنين ، وعرس بها في المدينة وهى بنت تسع سنين ، ومات عنها ولها ثمان عشرة سنة ، ولم يتزوج بكرة غيرها ، وكانت فقيهة عالمة فصيحة فاضلة ، كثيرة الحديث عن رسول الله — ﷺ — روى عنها جماعة من الصحابة والتابعين ، توفى رسول الله — ﷺ — في بيتها ودُفن فيه ، وماتت بالمدينة سنة سبع وخمسين ، ودُفنت بالقيع ، وصلى عليها أبو هريرة — رضى الله عنهما .

ومما ورد بشأنها : عن عمرو بن العاص — رضى الله عنه — أن النبي — ﷺ — بعثه على جيش ذات السلاسل ، فأتيته ، فقلت : أى الناس أحب إليك ؟ قال : « عائشة » فقلت : من الرجال ؟ قال : « أبوها » قلت : ثم من ؟ قال : « ثم عمر بن الخطاب » فعد رجالاً ، أخرجه الشيخان ، اللؤلؤ والمرجان ، كتاب فضائل الصحابة ، رقم ١٥٤٢ .

وعن عائشة — رضى الله عنها — أن النبي — ﷺ — قال لها : « يا عائشة ، هذا جبريل يقرأ عليك السلام » فقالت : وعليه السلام ورحمة الله وبركاته ، ترى ما لا أرى ، تريد النبي — ﷺ » أخرجه الشيخان ، المرجع السابق رقم ١٥٨٩ .

وقد نزل وحى من السماء بشأن تيرثها كما في سورة النور .
(٢٢) أخرجه مسلم ، وأحمد ، المختصر كتاب التفسير ، سورة الرحمن رقم ٢١٦٩ عزوه لأحمد من ابن كثير في تفسيره لسورتي الأعراف ، والحجر .

السموات والأرض ، وأعلم ما تبدون ، وما كنتم تكتمون ﴿٢٣﴾ .
وعلى أساس هذا التكريم ، طلب الله سبحانه إلى الملائكة ، السجود
لآدم — عليه السلام — فكانت إجابتهم الفورية بالسجود ، قال تعالى :
﴿فسجد الملائكة كلهم أجمعون ، إلا إبليس أبى أن يكون مع
الساجدين﴾ ﴿٢٤﴾ .

وصدق الله سبحانه إذ قال فيهم :

﴿ لا يعصون الله ما أمرهم ، ويفعلون ما يؤمرون ﴾ ﴿٢٥﴾ .
وتعلم آدم — عليه السلام — الأسماء كلها من ربه سبحانه مباشرة ،
كما تلقى العلم أيضاً على يد الملائكة ؛ فعن أبى هريرة — رضى الله عنه — عن
النبي — ﷺ — قال :

« خلق الله آدم ، وطوله ستون ذراعاً ، ثم قال : اذهب فسلم على
أولئك من الملائكة ، فاستمع ما يحبونك تحيتك ، وتحية ذريتك ، فقال :
السلام عليكم ، فقالوا : السلام عليك ورحمة الله . فزادوه ، ورحمة الله ،
فكل من يدخل الجنة على صورة آدم ، فلم يزل الخلق ينقص حتى
الآن » ﴿٢٦﴾ .

آدم — عليه السلام ، وإبليس .

منذ أن فتح آدم — عليه السلام — عينيه ، وقد رأى الخير والشر ؛ وجد

(٢٣) سورة البقرة ، الآيات ٢٩ — ٣٣ .

(٢٤) سورة الحجر ، الآيتان ٣٠ ، ٣١ .

(٢٥) سورة التحريم ، الآية رقم ٦ .

(٢٦) أخرجه البخارى ، كتاب بدء الخلق ، باب خلق آدم ، وقول الله : ﴿ وإذا قال ربك
للملائكة ... ﴾ ج ٤ ص ١٥٩ ، ١٦٠ .

أن الخير في الملائكة — عليهم السلام — ﴿ لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ﴾ ، ووجد الشر متمثلاً في إبليس لعنه الله ، ﴿ فسق عن أمر ربه ﴾ ، وفي وصف النوعين ورد قوله تعالى :

﴿ فسجد الملائكة كلهم أجمعون ، إلا إبليس أبى أن يكون مع الساجدين ﴾

وتوعد إبليس أبناء آدم — عليه السلام — بالغواية والإضلال إلى يوم القيامة ، قال الله تعالى على لسانه :

﴿ قال : رب بما أغويتى لأزينن لهم في الأرض ، ولأغوينهم أجمعين ﴾ (٢٧) .

وقال :

﴿ لأحتكن ذريته إلا قليلاً ﴾ (٢٨) .

كل من آدم — عليه السلام — وإبليس — عليه لعنة الله — من خلق الله سبحانه ، ولكنهما اختلفا وتباينا في أمور كثيرة .

فآدم — عليه السلام — أبو البشر ، تُخلق من طين ، وإبليس وذريته من الجن خلقتوا من نار السموم ، قبل خلق آدم — عليه السلام — وفي ذلك يقول الله تعالى :

﴿ وإذ قلنا للملائكة : اسجدوا لآدم ، فسجدوا إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه ﴾ (٢٩) .

ويقول أيضاً :

(٢٧) سورة الحجر ، الآية رقم ٣٩ .

(٢٨) سورة الإسراء ، الآية رقم ٦٢ .

(٢٩) سورة الكهف ، الآية رقم ٥٠ .

﴿ ولقد خلقنا الإنسان من صلصال من حمأ مسنون ، والجان خلقناه من قبل من نار السموم ﴾ (٣٠) .

وزعم إبليس أن خلقه من نار يعطيه أفضلية على آدم — عليه السلام — قال الله تعالى على لسانه :

﴿ أنا خير منه ؛ خلقتني من نار ، وخلقته من طين ﴾ (٣١) .

وفي الحديث الشريف ما يدل على التباين في الخلق كما سبق .

ولكن الله سبحانه فضل آدم — عليه السلام — بما آتاه من علم على إبليس ، وذريته ، وعلى الملائكة أيضاً وهم أفضل من إبليس وذريته ؛ بناء على حجته هو ، في أن مناط التفضيل مرتبط بأصل الخلق ، فالنور أفضل من النار . ولكن الملائكة قد لبث أمر الله سبحانه ، في السجود لآدم — عليه السلام — وإبليس أوى ، واستكبر ، فاستحق بذلك غضب الله سبحانه إلى يوم الدين . يقول الله تعالى :

﴿ قال : يا إبليس ، ما لك ألا تكون مع الساجدين ؟ قال : لم أكن لأسجد لبشر خلقته من صلصال من حمأ مسنون ، قال : فاخرج منها ؛ فإنك رجيم ، وإن عليك اللعنة إلى يوم الدين ﴾ (٣٢) .

ووصف الله سبحانه هذا الإباء استكباراً ، وفسقاً ، فقال :

﴿ إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين ﴾ (٣٣) .

(٣٠) سورة الحجر الآيتان ٢٦ ، ٢٧ .

(٣١) سورة الأعراف ، الآية رقم ١٢ .

(٣٢) سورة الحجر ، الآيات ٣٢ — ٣٥ .

(٣٣) سورة البقرة ، الآية رقم ٣٤ .

وثبت في الصحيح عن النبي — ﷺ — أنه قال :

« لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر » (٣٤) .

وابتدأت عداوة إبليس وذريته لآدم — عليه السلام — ولذريته ؛ يقف لهم في طريق الخير ؛ يصدّهم عنه ، ويزين لهم طريق الشر ، وإذا ما كانت النفس البشرية تلح في طلب معصية بذاتها ، ولا ترضى بغيرها بديلاً ، فإن الشيطان يراوغ الإنسان ، إذا لم يستجب للشيطان في أمر ، سلك معه سبيلاً آخر ، وسبيلاً ثالثاً دون يأس منه ، لأن بغيته معصية الإنسان على أى حال ، وعلى أى درجة من الدرجات ، والمعصوم من عصمه الله تعالى . قال الله تعالى :

﴿ قال : فما أغويتني لأقعدن لهم صراطك المستقيم ﴾ (٣٥) .

وحذر الله سبحانه آدم — عليه السلام — وحواء من إغواء إبليس ، ومعصية الله سبحانه ، ولا يكفى المرء أن يعرف عدوه فقط ، بل عليه أن يتعرف إلى أساليبه في الإغواء التي تيسر ارتكاب المنكر ، يقول الله تعالى :

﴿ فقلنا يا آدم ، إن هذا عدو لك ولزوجك ، فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى ، إن لك ألا تجوع فيها ولا تعرى ، وأنت لا تظمأ فيها ولا تضحى ﴾ (٣٦) .

وبدأت أول محاولة للإغواء ، ومخالفة أمر الله سبحانه ؛ فقد طلب الله سبحانه إلى آدم — عليه السلام — وحواء ، ألا يقربا هذه الشجرة ، وكانت وسوسة إبليس على هذا النحو : اتجه إبليس إليهما يهون من أمر النهى عن الشجرة ، والأكل منها ، وأن الأكل منها سبيل إلى تحقيق ملك لا يبلى ، واتخذ

(٣٤) أخرجه مسلم عن ابن مسعود — رضى الله عنه — المختصر رقم ٥٤ مع زيادة .

(٣٥) سورة الأعراف ، الآية رقم ١٦ .

(٣٦) سورة طه ، الآيات ١١٧ — ١١٩ .

إبليس القسم بالله سبحانه مؤكداً صدقه المزعوم ، ونصحه الكاذب ، وفى ذلك يقول الله تعالى :

﴿ فوسوس لهما الشيطان ليبدى لهما ما وورى عنهما من سواتهما ، وقال : ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين ، أو تكونا من الخالدين ، وقاسمهما إني لكما لمن الناصحين ﴾ (٣٧) .

وأمام التهوين من شأن النهى ، والقسم بصحة الزعم ، وأن خيراً كبيراً سيتحقق من الأكل من الشجرة كما زعم إبليس ، وأمام إلحاحه عليهما ، والإتيان إليهما من كل باب أكل آدم — عليه السلام — وحواء ، فبدت عوراتهما ، ثم كان الخروج من الجنة ، وتبين لآدم — عليه السلام — وحواء أن تبريرات إبليس جوفاء ، لا أصل لها ، وإن كان بعد فوات الأوان . وعليهما أن يستفيدا من التجربة بطاعة الله سبحانه ، وعدم الانصياع لإبليس من أى باب ، وفى ذلك يقول الله تعالى :

﴿ فأكلا منها فبدت لهما سواتهما ، وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة ، وعصى آدم ربه فغوى ، ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى ، قال : اهبطا منها جميعاً بغضكم لبعض عدو ، فإما يأتينكم منى هدى فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى ، ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ، ونحشره يوم القيامة أعمى ﴾ (٣٨) .

وتوجهت الآيات بإثبات المعصية من آدم — عليه السلام — وحده « فتشقى » ، « تجوع » ، « تعرى » ، « تظلم » ، « تضحى » على الرغم من أن إبليس استغل حواء فى الوصول إلى المعصية . فعن أى هريرة — رضى الله عنه — قال : قال رسول الله — ﷺ :

(٣٧) سورة الأعراف ، الآيتان ٢٠ ، ٢١ .

(٣٨) سورة طه ، الآيات ١٢١ — ١٢٤ .

« لولا حواء لم تكن أنثى زوجها الدهر » (٣٩) .

كما تدل الآيات السابقة أيضاً على أن الله سبحانه تاب على آدم — عليه السلام — ثم اصطفاه رسولاً ﴿ ثم اجتباه ربه ، فتاب عليه وهدي ﴾ وقد قال الله سبحانه في موطن آخر :

﴿ إن الله اصطفى آدم ﴾ (٤٠) .

وكانت العصمة من المعصية بعد هذا الاجتباء ، والاصطفاء ، وازداد اليقين بقدر الله سبحانه ؛ فعن أنى هريرة — رضى الله عنه — عن النبي — ﷺ — قال :

« حاج موسى آدم ، فقال له : أنت الذى أخرجت الناس من الجنة بذنبك ، وأشقيتهم . قال : قال آدم : يا موسى ، أنت الذى اصطفاك الله

(٣٩) أخرجه مسلم فى كتاب النكاح ، باب لولا حواء لم تكن أنثى زوجها ، المختصر ج ١ ص ٢١٩ رقم ٨٤٦ . وورد بالهامش تعليق المحقق الشيخ ناصر الدين الألبانى (أى لولا حواء خانت آدم فى إغوائه ، وتحريضه على مخالفة الأمر بتناول الشجرة ، وسنت هذه السنة لما سلكها أنثى مع زوجها ، وذلك منها خيانة . وليس المراد بالخيانة الزنا) .

(٤٠) سورة آل عمران ، الآية رقم ٣٣ .

قال صاحب الفتح فى باب قول الله عز وجل :

﴿ لقد أرسلنا نوحاً إلى قومه ﴾ (سورة الأعراف الآية رقم ٥٩) فى شرح الحديث الذى وردت فيه هذه العبارة : « يا نوح ، أنت أول الرسل إلى أهل الأرض » رقم الحديث فى الفتح ٣٣٤٠ ج ١٣ ص ١١٠ .

« فأما كونه أول الرسل ، فقد استشكل بأن آدم كان نبياً ، وبالضرورة تعلم أنه كان على شريعة من العبادة ، وأن أولاده أخذوا ذلك عنه ؛ فعلى هذا فهو رسول إليهم ، فيكون هو (أى آدم) أول رسول .

فيحتمل أن تكون الأولية فى قول أهل الموقف لنوح مقيدة بقولهم : إلى أهل الأرض ؛ لأنه فى زمن آدم لم يكن للأرض أهل ، أو لأن رسالة آدم إلى بنيه كانت كالترية للأولاد ، ويحتمل أن يكون المراد أنه (أى نوح) رسول أرسل إلى بنيه وغيرهم من الأمم الذين أرسل إليهم مع تفرقهم فى عدة بلاد ، وآدم إنما أرسل إلى بنيه فقط ، وكانوا مجتمعين فى بلدة واحدة .

برساته ، وبكلامه . أتلو منى على أمر كتبه الله على قبل أن يخلقنى ، أو قدره على قبل أن يخلقنى ؟ قال رسول الله ﷺ — فحج آدم موسى « (٤١) .

آدم فى السماء الأولى .

فى حادثة الإسراء والمعراج حدث أنس بن مالك (٤٢) عن مالك ابن صعصعة ، قال : قال النبى ﷺ :

« .. فانطلقت مع جبريل حتى أتينا السماء الدنيا ، قيل : من هذا ؟ قال : جبريل . قيل : من معك ؟ قيل : محمد . قيل : وقد أرسل إليه ؟ قال : نعم . قيل : مرحباً به ، ولنعم الحىء جاء . فأتيت على آدم فسلمت عليه ، فقال : مرحباً بك من ابن ، ونبى ... » (٤٣) .

وروى أبو ذر (٤٤) — رضى الله عنه — عن النبى ﷺ — قال :

(٤١) أخرجه الشيخان . صحيح البخارى ، كتاب التفسير ، سورة طه جـ ٦ ص ١٢٠ ، ١٢١ . مختصر مسلم جـ ٢ ص ٢٤٦ رقم ٢٨٤٢ . كتاب القدر ، باب إثبات القدر ، وتحاج آدم وموسى .

(٤٢) هو أبو حمزة الأنصارى من بنى النجار ، خدم رسول الله ﷺ — منذ قدم المدينة إلى وفاته — وقد كانت سنة حين الهجرة عشر سنين أو دون ذلك بقليل ، سكن البصرة من خلافة عمر — رضى الله عنهما — يفقه الناس ، وطال عمره وهو آخر من مات من الصحابة فى البصرة سنة ٩٣ أو ٩٢ أو ٩١ .

أخرج الشيخان عن أم سليم — رضى الله عنها — قالت : يا رسول الله ، أنس خادمك ، ادع الله له ، قال : « اللهم أكثر ماله ، وولده ، وبارك له فيما أعطيته » اللؤلؤ والمرجان رقم ١٦١٢ .

(٤٣) أخرجه الشيخان . صحيح البخارى ، كتاب بدء الخلق جـ ٤ ص ١٣٣ . مختصر مسلم ، كتاب الإيمان باب الإسراء جـ ١ ص ٢٦ رقم ٧٦ .

(٤٤) اسمه جُنْدُب بضم الجيم وسكون النون وضم الدالة المهملة ، وفتحها أيضاً ، ابن جُنادة ، بضم الجيم ، وهو من أعيان الصحابة المهاجرين وزهادهم ، وهو أول من حيا

« .. فلما جاء إلى السماء الدنيا ، قال جبريل لخازن السماء الدنيا :
افتح . قال : من هذا ؟ قال : هذا جبريل . فلما علونا السماء ، إذا رجل عن
يمينه أسودة ، وعن يساره أسودة . فإذا نظر قبل يمينه ضحك ، وإذا نظر قبل
شماله بكى ، فقال : مرحباً بالنبي الصالح ، والابن الصالح . قلت : من هذا
يا جبريل ؟ قال : هذا آدم ، وهذه الأسودة عن يمينه وعن شماله نسم بنيه ؛
فأهل اليمين منهم أهل الجنة ، والأسودة التي عن شماله أهل النار ؛ فإذا نظر قبل
يمينه ضحك ، وإذا نظر قبل شماله بكى .. » (٤٥) .

ونرى في الحديثين فرح آدم — عليه السلام — بقلوم النبي — ﷺ —
وفرحة أيضاً بمن عمل صالحاً فاستحق دخول الجنة في الآخرة .
آدم والشفاعة :

عن أبي سعيد الخدري (٤٦) — رضى الله عنه — عن النبي — ﷺ —
قال :

= النبي — ﷺ — بتحية الإسلام ، وأسلم قديماً بمكة . يقال : كان خامساً في الإسلام ، ثم
انصرف إلى قومه إلى أن قدم المدينة على النبي — ﷺ — بعد الخندق ، ثم سكن بعد
وفاته — ﷺ — الربرة إلى أن مات بها سنة اثنتين وثلاثين في خلافة عثمان ، وصلى عليه
ابن مسعود — رضى الله عنهم .

ومما ورد بشأنه ما أخرجه مسلم عن ابن عباس — رضى الله عنهما — قول
النبي — ﷺ — بعد أن أسلم : « ارجع إلى قومك فأخبرهم ؛ حتى يأتيك أمري »
المختصر رقم ١٨٠٥ ، وقوله في قومه : « غفار غفر الله لها » رقم ١٨٠٤ في رواية عبد الله
وأخرجه البخاري أيضاً . اللؤلؤ والمرجان رقم ١٦٣٦ .

(٤٥) أخرجه الشيخان . صحيح البخاري ، كتاب الأنبياء ، وكتاب الصلاة ، ومختصر
مسلم باب الإسراء رقم ٧٦ ج ١ .

(٤٦) اسمه سعد بن مالك بن سنان الخزرجي الأنصاري الخدري ، نسبة إلى خدرة
حى من الأنصار . قال الذهبي : كان من علماء الصحابة ، ومن شهد بيعة الشجرة ، وروى
حديثاً كثيراً ، وأفتى مدة . عاش ستاً وثمانين سنة ، ومات في أول سنة أربع وسبعين .
وحدث عنه جماعة من الصحابة ، وله في الصحيحين أربعة وثمانون حديثاً .

« يقول الله تعالى : يا آدم ، فيقول : لييك وسعديك ، والخير في يديك . فيقول : أخرج بعث النار . قال : وما بعث النار ؟ قال : من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين ، فعنده يشيب الصغير ، تضع كل ذات حمل حملها ، وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد » (٤٧) .

وفي وسط هذا الهول الشديد يلجأ الناس إلى من يشفع لهم عند ربهم سبحانه . فيتجهون أول ما يتجهون إلى آدم — عليه السلام — فعن أى هريرة — رضى الله عنه — قال : كنا مع النبي ﷺ — فى دعوة ، فرفع إليه الذراع وكانت تعجبه ، فنهس منها نهسة ، وقال :

« أنا سيد القوم يوم القيامة . هل تدرون بمن يجمع الله الأولين والآخرين فى صعيد واحد ؟ فيصرهم الناظر ، ويسمعهم الداعى ، وتدنو منهم الشمس ، فيقول بعض الناس : ألا ترون إلى ما أنتم فيه إلى ما بلغكم ؟ ألا تنظرون إلى من يشفع لكم إلى ربكم ؟ فيقول بعض الناس : أبوكم آدم .

فيأتونه ، فيقولون : يا آدم ، أنت أبو البشر ؛ خلقك الله بيده ونفخ فيك من روحه ، وأمر الملائكة فسجدوا لك ، وأسكنك الجنة . ألا تشفع لنا إلى ربك ؟ ألا ترى ما نحن فيه وما بلغنا ؟ فيقول : ربي غضب غضباً لم يغضب قبله مثله ، ولا يغضب بعده مثله ، ونهاني عن الشجرة فعصيته . نفسى . نفسى . اذهبوا إلى غيرى . اذهبوا إلى نوح . فيأتون نوحاً . فيقولون : يا نوح ، أنت أول الرسل إلى أهل الأرض ، وسماك الله عبداً شكوراً . أما ترى ما نحن فيه ؟ ألا ترى إلى ما بلغنا ؟ ألا تشفع لنا إلى ربك ؟ فيقول : ربي غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ، ولا يغضب بعده مثله . نفسى .

(٤٧) أخرجه الشيخان . البخارى كتاب الأنبياء ج ٤ ص ٦٨ مختصر مسلم . كتاب الإيمان ج ١ ص ٣٧ رقم ١٠٣ .

نفسى . اثتوا النبى - ﷺ - فىأتونى ، فأسجد تحت العرش . فىقال :
يا محمد ، ارفع رأسك ، واشفع تشفع ، وسل تعطه » (٤٨) .

(٤٨) أخرجه الشيخان . واللفظ للبخارى . كتاب بدء الخلق ، باب قول الله تعالى : ﴿ إنا أرسلنا نوحاً إلى قومه ﴾ ج ٤ ص ١٦٢ ، ١٦٣ . مختصر مسلم . كتاب الإيمان ، باب الشفاعة ج ١ ص ٣٣ . (انظر إلى فصل نوح عليه السلام) ، لتعرف المراد من « أنت أول الرسل » .

دروس وعبر :

والتأمل في سيرة آدم — عليه السلام — يرى :

— أن الله سبحانه وتعالى خلق آدم — عليه السلام — خلقاً خاصاً ،
غير متطور عن الحيوانات التي قبله .

— وأن خلق آدم — عليه السلام — تم بعد أن خلق الله سبحانه من
سماء وأرض ، وجبال وأشجار ، ودواب ؛ لتكون جميعها في خدمة
آدم — عليه السلام — يُسخرها في طاعة الله سبحانه ، ولا يُسخر
هو لها بعبادتها من دون الله سبحانه .

— وأن تكريم الإنسان ليس بشكله ، ولا بأصله ، ولكن بما حصله من
علم آتاه الله سبحانه إياه ، وبما عمل من عمل صالح .

— وأن عداوة إبليس وذريته لآدم — عليه السلام — وذريته منذ
المرحلة الأولى في خلق آدم — عليه السلام .

— وأن إبليس يختار الوقوف بالطريق المستقيم ليصد الناس عنه ، متخذاً
في تحقيق مآربه كل أساليب الإغواء ، وتزيين المخالفة ، واتخاذ
التبريرات لإحباط الهمم كخطوة أولى للانحراف .

— وأن الكبر الذي كان سبباً في لعنة إبليس ، وطرده من رحمة الله
تعالى ، سبب أيضاً في غضب الله سبحانه على من اتصف به من بني
آدم .

— وأن إبليس يتخذ من المرأة ما يهون عليه مهمته .

— وأن الذي يتحمل أعباء الحياة وتكاليفها في الدرجة الأولى هو
الرجل .

— وأن العرى وكشف العورات من مقاصد إبليس ، وذريته وأن فطرة
الإنسان تأبى ذلك .

— وأن التوبة تمحو المعصية ، وأن البصير هو الذي يستفيد من

التجربة ، ويأخذ العبرة والعظة ، ويعرف عدوه من صديقه .
— وأن الأنبياء والرسل جميعاً — عليهم الصلاة والسلام — على طريق
واحد وطريق الإسلام ، وأن الناس يلجئون إليهم يوم القيامة ؛
ليشفعوا لهم عند ربهم ، وأن صاحب الشفاعة العظمى يوم القيامة
هو النبي محمد ^{صلى الله} عليه وسلم .

التطور فى الخلق

- عرض تاريخى عام .
- أشهر القائلين بالتطور العضوى .
- أشهر القائلين بالتطور العام .
- النظرية كما يراها أصحابها .
- القواعد الأربعة لنظرية دارون : ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤
- الحفريات التاريخية التى يعتمدون عليها .
- مناقشات وردود .
- أدلة من علم التشريح المقارن .
- مواقف مخزية لبعض علماء التطور تُظهر كذبهم .
- كيف تُدرس نظرية دارون فى بلادنا ؟
- الخلق الخاص .
- التشابه والاختلاف .
- العالم يكرم عالماً يقول بالخلق الخاص .
- ما الهدف من إشاعة نظرية باطلة ؟
- خاتمة .

قال الله تعالى :

﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ
الْآخِرَةَ ، إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ .

الآية (٢٠) من سورة العنكبوت .

« لا تتصوروا أن تصريحاتنا كلمات جوفاء ، ولاحظوا أن نجاح دارون ، وماركس ، ونتشه ، قد رتبناه من قبل ، والأثرية غير الأخلاق لاتجاهات هذه العلوم في الفكر الأسمى (غير اليهودى) سيكون واضحاً لنا على التأكيد » .

برتوكولات حكماء صهيون أو الخطر اليهودى
ص ١٢٣ ، ١٢٤ البروتوكول الثانى .

عَرَضُ تَارِيخِي عَام

منذ مطلع القرن الثامن عشر حتى الآن والعالم يعج ببادئ ومذاهب وآراء هادئة أحياناً ، ومضطربة أحياناً ؛ معبرة في حالتها عن مشاعر وأحاسيس أصحابها .

وقد بلغ الغرب المبلغ الكبير في تصدير هذه الآراء والأفكار إلى العالم بأكمله ، وبخاصة المنطقة التي تفتقر إلى الغرب لتأخذ منه ما تحتاج من وسائل المعيشة والحياة .

وإنها لفترة مظلمة حقاً تلك التي يعيشها أهل تلك المنطقة ، حين تركوا أو أهملوا دينهم الذي جعلهم قادة الدنيا ، وقد كان لهم فعلاً هذا الأمر حين اعتزوا به ، وترسموا خطاه ، وبذلوا كل ما في وسعهم لنهضتهم العلمية ، ليخشوا الله عز وجل ، وحين انحرفوا عن الطريق المستقيم تردّوا في الجهل المطبق ، والشقاء الديني ، والاستعمار الكافر بوجهيه : الحرى ، والفكرى .

وأى جهل أكبر وأسوأ من أن نعيش على فتات موائد الغرب العفن ، بعد أن نبذوه ، وطرحوه ، وأصبحنا نقلد كالقروء الأفكار البالية المهترئة التي قال العلم المنصف فيها كلمته ، وكشف التزييف فيها .

وظهر على مسرح الوجود شيء غريب جداً .

هذا الشيء هو تطور الأحياء عن بعضها ، بما في ذلك الإنسان . فالإنسان متطور عن غيره ، وليس خلقاً مستقلاً أوله آدم — عليه السلام .

وإذا ذكرت كلمة الأحياء ، يُقصد بها النبات والحيوان والإنسان ، فالإنسان متطور عن الحيوان ، والحيوان متطور بدوره عن النبات ، والنبات كما سنعرف عن بعض القائلين متطور أيضاً عن الجماد .

أشهر القائلين بالتطور العضوى

وأشهر القائلين بالتطور العضوى هذا أى فى النبات ، والحيوان ، والإنسان .

- | | |
|-------------|--|
| ١٧٧٨ - ١٧٠٧ | ١ - العالم النباتى السويدى كارل لينوس |
| ١٧٨٨ - ١٧٠٧ | ٢ - العالم النباتى الفرنسى بوتون |
| ١٨٠٢ - ١٧٣١ | ٣ - أراسموس دارون جد دارون |
| ١٧٩٩ - ١٧١٤ | ٤ - العالم الفقيه الإيقوسى لورد منبودو |
| ١٨٢٩ - ١٧٤٤ | ٥ - العالم الفرنسى لامارك |
| ١٨٨٢ - ١٨٠٩ | ٦ - العالم الإنجليزى شارل دارون |
| ١٩١٣ - ١٨٢٣ | ٧ - العالم الإنجليزى رسل والاس |

وكل من لامارك ودارون ووالاس يقول بتحول الأنواع ، ويرد كثرتها إلى نوع واحد أو أنواع قليلة ، وعلى مباحث هؤلاء الثلاثة يقوم مذهب النشوء أو مذهب التطور ، واشتهرت هذه المباحث باسم « نظرية دارون » على الرغم من عدم اجتيازها مراحل التخمين والظن ، ومعارضتها لليقين ، كما ينطق بذلك العلم نفسه .

أشهر القائلين بالتطور العام

على الرغم من هذه المزاغم على ألسنة القائلين بالتطور العضوى فى النبات ، والحيوان ، والإنسان . هناك من يقولون أيضاً بالتطور العام ، أى فى الكون كله : من جماده ، وأحيائه .

وأشهر القائلين بالتطور العام أى فى الكون كله :-

- | | |
|-------------|------------------------------------|
| ١٩٠٣ - ١٨٢٠ | ١ - هيربرت سبنسر |
| ١٨٥٦ - ١٧٨٨ | ٢ - الفيلسوف الإيقوسى هاملتون |
| ١٨٠٤ - ١٧٢٤ | ٣ - الفيلسوف الألمانى عمانويل كانت |

وبذلك نعرف أن هناك نوعين من العلماء القائلين بالتطور .

- ١ - نوعاً يجعله خاصاً بالنبات والحيوان والإنسان .
- ٢ - ونوعاً يجعله في الكون كله ، بما في ذلك النبات ، والحيوان والإنسان ، والجماد .

والذى يهمنى فى هذه المذكرة النوع الأول لشيوعه ، وللآثار الواسعة ، والكثيرة التى يعج بها عالمنا العربى والإسلامى للأسف الشديد ، حتى وصل الأمر أن ألفت كتب ، وعرضت لوحات ، وكتبت مقالات كلها تعتمد من قريب أو من بعيد على مثل هذه النظرية « نظرية داروين » دون مناقشتها المناقشة العلمية ، مما يجعل القارئ يظنها حقيقة لا جدال فيها ، على الرغم من مخالفتها للحقائق العلمية .

النظرية كما يراها أصحابها

إن نظرية التطور والارتقاء خلاصتها :

أن أنصارها يزعمون أن الحياة الأولى للإنسان والحيوان والنبات بدأت على ظهر هذه الأرض بجرثومة أو جراثيم قليلة ، تطورت من حال إلى حال تحت فواعل طبيعية حتى وصلت إلى هذه التنوعات التي نراها وعلى رأسها الإنسان .

ويقولون : إن الحياة الأولى عندما وجدت حول المستنقعات كان عليها أن تُصارع من أجل البقاء وأن أول عمل وقائي لتحصن الحياة ضد الفناء هو أن تغلف هذه الحياة بصدف كلسي يقيها من الحرارة . ويقول لامارك مؤسس نظرية التطور والارتقاء :

إن أول درجات سلم الكائنات الحية ، والذي هو بداية البداية التي نشأت منها صور الحياة الأخرى بمختلف أنواعها هو البوليب .

والبوليب هذا وصفه لامارك بقوله : إنه ليس له أعضاء خاصة للحس أو التنفس أو الدوران أو التكاثر وأنه لا شيء إلا قناة صغيرة منفردة للاغذاء . وأنه يستطيع أن يمتص غذاءه من خلال أى جزء من أجزاء جسمه ، وأن أنواع البوليب هذه لضالة جسمها تكاد تكون غير ذات شكل معين كأنها كريات من الهلام والجلاتين .

هذا ما يراه لامارك أستاذ دارون في بداية الخلق ويحددها كما مر (١) .

ويكمل التلميذ دارون الحلقة فيبين طريق السير حتى كان الارتقاء فعلاً كما يدعى .

(١) الإسلام ونظرية دارون (بتصرف) للأستاذ أحمد باشميل .

القواعد الأربعة لنظرية دارون :

جاء دارون وخطط ونظم ، وجعل لنظريته قواعد أربعاً تعتمد عليها :

١ - القاعدة الأولى : ناموس تنازع البقاء .

٢ - القاعدة الثانية : الانتخاب الطبيعي .

٣ - القاعدة الثالثة : المطابقة .

٤ - القاعدة الرابعة : الوراثة .

ناموس تنازع البقاء :

أما ناموس تنازع البقاء كما يراه دارون هو أن الكائنات الحية في تنازع مستمر ، وأن البقاء إنما يكون للأكمل والأقوى من المتنازعين ، أما الأضعف فإنه يتلاشى لأنه غير صالح للحياة .

ويضرب دارون لذلك مثلاً بما معناه .

إذا فرضنا وجود سرب من الأبقار تسير في غابة ، فإذا رأت مرعى تراحمت عليه فالقوى منها يفوز بقيمة أكثر من المرعى ، فيزداد قوة على قوة . أما الضعيف فيزداد ضعفاً على ضعف ، ويستمر على هذا حتى يتلاشى .

ناموس الانتخاب الطبيعي :

أما ناموس الانتخاب الطبيعي ، فيقول عنه دارون معقلاً على المثل السابق : بأن السرب حينما يمر بطريق وعرة لا يقوى على اختراقها إلا الممتازون منها بالقوة ، وهذا يعني أن نتيجة هذا السباق بقاء الأقوى والأصلح ، والباقي يتلاشى .

ناموس المطابقة :

والمقصود أيضاً من ناموس المطابقة أن الأسد مثلاً من أكلة اللحوم ، وعلى

هذا له أنياب حادة ، وتطول أمعاؤه طبقاً لآكلي النبات والأعشاب .

ناموس الوراثة :

ومعنى ناموس الوراثة وهو القاعدة الرابعة لنظرية دارون ، أن الصفات العرضية التي تحدث في الآباء بوساطة اختلاف الأحوال والأوساط المعيشية تنتقل إلى الأبناء . وتظل على هذا حتى تكون الصفات الموروثة جوهرية تميز نوعاً عن نوع آخر . (٢)

والمتبع لكل ما سبق عن دارون يجد أنه لم يبين هذه النظرية على أسس علمية ثابتة ، لا يمكن الرجوع عنها وإنما بناها على افتراضات وتخمينات وتقديرات تحمل الخطأ والصواب ، ومثله أستاذه لامارك الفرنسي حين ادعى أن الحياة بدأت على شكل جرثومة ، ولم يستند في ذلك إلى أساس علمي . (٣)

الحفريات التاريخية التي يعتمدون عليها :

وقد اعتمد القائلون بالتطور على حفريات تاريخية ، ظهر لهم في زعمهم أنها تؤيد دعوى التطور ، ومن أبرز هذه الآثار :

١ - إنسان بكين عمره نصف مليون إلى مليون سنة اكتشف بقايا آثاره سنة ١٩٢٩ جنوب غربى بكين .

٢ - إنسان جاوة عمره أقل من مليون سنة اكتشف بقايا آثاره سنة ١٨٩١ في جزيرة جاوة .

(٢) ويلاحظ مع هذا الجزء ما سيجده القارئ في هذه المذكرة في مكان آخر عن ليسنكو الروسي حين ادعى إلغاء أثر الوراثة في النبات ١٩٣٥ ، واستغل هذا الأمر ستالين فطبقه على الإنسان ، وأعلن فشله في موسكو ١٩٦٢ .

(٣) الاسلام ونظرية دارون (بتصرف) .

٣ - إنسان بليتداوين ما قبل نصف مليون سنة اكتشفت بقايا آثاره سنة ١٩١١ في مدينة بليتداوين .

٤ - إنسان هايدلبرك وهو معاصر للإنسان بليتداوين ، اكتشفت بقايا آثاره سنة ١٩٠٧ في هايدلبرك الألمانية .

٥ - إنسان نياندرتال ما قبل ١٠٠ ألف سنة إلى ٤٠٠ ألف سنة ، اكتشفت بقايا آثاره في سنة ١٨٥٦ في وادي غلندر .

٦ - إنسان كرومانيون ما قبل ٥٠ ألف سنة (٤) .

ولظهور اختلاف في المكتشفات الحفرية السابقة بينها وبين الإنسان الحديث ظن القائلون. بالتطور أن هذه المكتشفات هي الحلقة بين الإنسان والحيوان . مما يدل حسب ادعائهم على أن الإنسان متطور عن الحيوان والأنواع العليا بشكل خاص ، والمتطور بدورها عن الحيوانات الوسطى وهكذا .

(٤) عن مجلة الشهاب للكاتب قيس القرطاس ، العدد التاسع عشر ، السنة الثانية . ٢٤ من شعبان ١٣٨٨ الموافق ١٥ تشرين الثاني ١٩٦٨ والعدد التالي له أيضاً .

« مناقشات وردود »

وقد أثارت الحفريات السابقة الكثير من المختصين بهذا المضمار ، وناقشها الكثير مناقشة علمية ، وردوا على من اعتمدوا عليها مستدلين على التطور أو النشوء والارتقاء ...

وفيما يلي ما يتناسب مع هذه المذكرة القصيرة من آراء العلماء الذين ناقشوا هذه الحفريات ، أو هذه النظرية .

١ - رأى عالم سوفياتي :

هو العالم اب كاروزينا في كتابه « مبادئ علم الجيولوجيا » عند كلامه عن جمجمة الإنسان النياندرتالي .

« وقد أثار العثور على هذه الجمجمة نقاشاً حاداً بين العلماء حيث اعتبرها البعض جمجمة الإنسان القديم ، بينما اعتقد البعض أنها جمجمة إنسان معاصر كان قد أصيب بمرض ^(٥) .

وزيادة في توضيح كلام العالم السوفياتي حين ذكر احتمال أن بقايا الإنسان النياندرتالي المكتشفة لإنسان مريض معاصر نذكر هذا النص لأحد ^(٦) المعنيين بهذه المسألة :

« ... فقد رأيت مرة في أحد أقطار إفريقيا الشرقية « أريتريا » إنساناً ذا

(٥) مجلة الشهاب العدد السابق .

(٦) الاستاذ باشميل في كتابه ص ٨٨ .

شكل غريب ، رأيت شاباً قد اجتمع الناس عليه (وبدافع الفضول) التحقت بهم لأعرف سبب تجمعهم ، وإذا بي أمام شاب طويل القامة ، غير أن الغريب فيه (والذي كان سبب التجمع) هو أن رأسه كانت من الصغر بحيث لا تتناسب مع جسمه . فقد كان حجم الرأس صغيراً جداً ، فعلى الرغم من تجاوزه العشرين من العمر فإن رأسه تكاد تحويها كفا الإنسان العادى . وقد تبين لى أنه لا يستطيع النطق ، ولا يكاد يعقل أو يدرك ، وكانت له عينان ضيقتان جداً ، رأيت هذا فى مدينة « تسنى » عندما كنت فى أريتريا . . .

ويعقب الكاتب على ما شاهده فى أريتريا بقوله :

« فلا شك أن ما وجده الدارونيون من عظام الجمجمة والهيكلى التى استدلوا بها على عدم اكتمال تكوين صاحبها ، واستدلوا بها على صحة نظرية التطور والارتقاء ، هو من الأنواع الشاذة التى يُصاحبها النقص فى التكوين » ..

٢ - مناقشة حسائية :-

بعد أن ذكر الأستاذ قيس القرطاس (٧) الآثار الحفرية السابقة ، ناقش أهم هذه الحفريات ، وهو الإنسان النياندرتالى قائلاً :

« ومن العجيب أن جمجمة ذلك الإنسان النياندرتالى يبلغ حجمها ١٣٠٠ — ١٦٠٠ سم بينما ذكر فى كتاب علم الحيوان أن حجم جمجمة الإنسان الطبيعى ١٤٨٠ للرجال ، و ١٣٠٠ للنساء ، ويبلغ وزن دماغ الرجل ١٣٥٠ جراماً ويبلغ وزن دماغ المرأة ١٢١٠ جرامات .

وأن أصغر وزن لدماغ بشرى طبيعى مهما كان عرقه ١٠٢٥ جراماً . فلو اعتبرنا بالقياس للنسبة بين الوزن والحجم للإنسان لبلغ الحجم ٩٤٠ سم . فهل يعتبر الإنسان النياندرتالى شخصاً دون مرتبة الإنسان الحالية ، وهو يبلغ أكثر من الحجم الأخير بكثير ؟ (٨) .

(٧) مجلة الشهاب العدد السابق .

(٨)،(٩) قيس القرطاس ، المصدر السابق .

٣ - الإنسان كما هو منذ عشرة ملايين سنة :

« على أن المعلومات المكتملة التي ظهرت ، والتي أخفاها أنصار التطور تؤكد أن المعلومات عكس كل ادعاءات أنصار التطور فمن المعلوم أن بقايا هذه الآثار لا يزيد عمرها عن مليون سنة حسب تقدير أنصار التطور أنفسهم .

فلا ندرى ما موقف أنصار التطور إذا كان علماء الآثار قد اكتشفوا آثاراً لجمجمة إنسان مضى عليها عشرة ملايين سنة وقد احتفظت بشكلها الحالي (٩) .

يقول الأستاذ عبد الرزاق نوفل (١٠) :

« وقد أذاع البروفسور .. جوهانس هورذرلر « العالم النرى فى سمنتبال بسويسرا بياناً فى ١٠ مارس ١٩٥٦ عارض فيه نظرية دارون بشدة ، وقال : « إنه لا يوجد دليل واحد من ألف على أن الإنسان من سلالات القرد ، وأن التجارب الواسعة التي أجراها دلت على أن الإنسان منذ عشرة ملايين سنة وهو يعيش منفرداً وبعيداً جداً » .

وأضاف إلى ذلك :

« أن الهياكل التي درس عليها تؤكد نظريته ، وقد قدم البروفسور المذكور للمتحف الطبيعي بمدينة بال قطعة من الفحم بداخلها قطعة من فك إنسان يرجع تاريخها إلى عشرة ملايين سنة . وهذا التاريخ الذى أمكن الحصول فيه على هياكل آدمية » .

« ... وبتاريخ ٣١ مارس ١٩٥٦ أعلن فى أمريكا أن الدكتور « دويتير المشرف على الأبحاث بجامعة « كولومبيا » قد أيد البروفسور « هورذرلر » فى وجهة نظره ، واعتبرت نظرية دارون بذلك رأياً لا يستند إلى دليل علمى ، وأن الكائنات إنما خلقت مستقلة الأنواع استقلالاً تاماً فمنها الإنسان الذى يمشى على

(١٠) الله والعلم الحديث ص ٢٣١ . واعتمد عليه الأستاذ عفيف الأسمر فى عدد الشهاب السابع — السنة الثامنة ٢٨ من شعبان ١٣٩٤ هـ ١٥ من أيلول ١٩٧٤ م ص ١١ .

رجليه ، ومنها اللوالب التي تمشى على أربع ، ومنها الزواحف التي تمشى على بطنها » (١١) .

« وقد ذكر الأستاذ محمد قطب في كتابه « الإنسان بين المادية والإسلام » أنه قد ذكرت الصحف أخيراً أن عالمين أمريكيين قد كشفوا في أحد الكهوف آثاراً من مخلفات الإنسان الأول ، وأن هذا الكشف سيؤدى إلى نتائج مخالفة لنظرية دارون » .

فلماذا لا تعرض المتاحف النموذج الذى عثر البروفسور عليه ؟ والآثار التى عثر عليها الأمريكيان ؟ (١٢) .

« فكيف يكون الإنسان قبل عشرة ملايين سنة مساوياً للإنسان الحالى ؟ من حيث التركيب العام ؟ وربما طرأت عوارض أو زلازل أو إشعاعات جعلت انحرافاً فى الإنسان قبل مليون سنة .

هذا وإن سلمنا جدلاً بصحة ما زعموه ، وتوفيقاً بين الاكتشافات » (١٣) .

٤ - علم أساسه الخيال :

يقول الدكتور فورد بلات ، ترجمة مجلة المختار تحت عنوان « متى بدأت الحياة على الأرض ؟ » (١٤) ..

« ... لا نستطيع أن نحدد كم من الوقت استغرقت البادرة الأولى من بواذر

(١١) الله والعلم الحديث لعبد الرزاق نوفل ص ٣٢١ ، ٣٢٢ ، نشر مكتبة صايغ ، طبع دار الجيل للطباعة .

(١٢) قيس القرطاس المصدر السابق .

(١٣) قيس القرطاس المصدر السابق ، يلاحظ فى مكان آخر « نظرية الكوارث » .

(١٤) ركائز الإيمان للأستاذ محمد الغزالي ص ٥٤ .

الحياة لكي تظهر . فلم يكن هناك أى تحديد للوقت آنذاك ، وفي العصور المظلمة ، ظلت القطرات تبيض ، وتضطرب في مياه البحار الفاترة ، ولا بد أن تجمعات لانهاية من الذرات قد حدثت في المادة العضوية الهلامية ولكن هذه التجمعات كانت تُمحي من الوجود ، بينما تمكنت أفضل القطرات تركيباً من البقاء . أما القطرات الأضعف فقد انهارت خلال عملية يمكن أن نسميها بالاختبار الطبيعي قبل بدء الحياة . وهكذا ظلت العناصر تُكافح وتُناضل نحو خلق الحياة في سكون وحركة لا تُرى .

ثم يقول بالنسبة للبروتين :

« ظهرت تدريجياً جزيئات أخرى جبارة ، أو مجموعة من الجزيئات . وهي سلاسل معقدة من القطرات الهلامية البسيطة . وتستمر العملية حتى يتكون في النهاية جزيء البروتين العجيب بعد وقت يبدو كأنه لا نهائى ، وبعد تفاعلات ، وامتزاجات كيميائية لا نهاية لها .

ونحن (أى فورد بلات) نتحدث عن هذا الحدث ، وكأنه وقع فجأة واتحدت معاً في تركيب خاص .

« والواقع أننا اكتشفنا فقط ظهور المادة البروتينية في الزمن الماضي ، ولا نعرف كيف جاءت إلى هنا ؟

ويمكننا أن نقول (أى فورد بلات) :

« إن فرصة . اتحاد ذرات الكربون والإكسوجين ، والنيتروجين والإيدروجين ، وكذلك ذرات الفوسفور ، ومجموعة العناصر الفلزية بالنسب اللازمة ، وفي الظروف الملائمة بعيدة جداً .

إن هذه الفرصة يمكن أن نقارنها بفرصة سقوط مجموعة من أوراق اللعب على مائدة بعد نثرها في الهواء ، بحيث يتألف منها مجموعات الأرقام مرتبة تماماً . « وهذه الفرصة تكاد تكون مستحيلة » حتى لو ظللنا نكرر التجربة ، وننثر أوراق اللعب في الهواء ، وبلا انقطاع طوال التاريخ الإنساني .

ولكننا رأينا كيف أن الجزيئات تتطور نحو أشكال أكثر تعقيداً كما أخذت
تصطدم بعضها البعض الآخر بسرعة ألكترونية خلال زمن لا نهاية له .
وفي مثل هذه الظروف يمكن أن تتحقق الفرصة البعيدة جداً يوماً ما ، وأن
يتكون جزيء البروتين » .

— هكذا يزعم الكاتب —

الرجل يقول أولاً :

« إن الخلق بطريق الصدفة مستحيل ولو كررنا التجربة طوال التاريخ
الإنساني » .

ويعود فيقول :

« ولكن مع تراخي الزمن ، وامتداد الليل والنهار وقع المستحيل وأمكن
الخلق » .

ونفس الأمر وقع لدارون .

فقد قال :

« إن تفسير النشوء والارتقاء بتدخل الله هو بمثابة إدخال عنصر خارق
للطبيعة في وضع ميكانيكي بحت » (١٥) .

ونقل أيضاً عن دارون :

« يستحيل على العقل الرشيد أن تمر به ذرة من الشك في أن هذا العالم
الفسيح بما فيه من الآيات البالغة ، والأنفس الناطقة المفكرة ، قد صدر عن
مصادفة عمياء ؛ لأن المصادفة لا تخلق نظاماً ، ولا تبدي حكماً ، وذلك عندي

(١٥) قد يكون هذا راجعاً للقصور السطحي التألف للخالق عنده النصرى وأنه إنسان ولد
كما ولد البشر ، أو أنه يتزوج من البشر وينجب ويصارع ويمكر .. الخ ما جاء في
التوراة والإنجيل ، فقد يكون دارون معذوراً إذا نفى الخلق عن مثل هذا الإله .

أكبر دليل على وجود الله « (١٦) .

فإلى أى مدى يكون هذا الخيال أساساً لنظرية تقود العالم ؟

٥ - تلفيق :

جاء في مقدمة كتاب النشوء والارتقاء (١٧) :

« وقد حاول « كلاتش » من سقف الجمجمة التى وجدت فى « يون » والفك الأسفل الذى وجد فى « كرايتا » أن يتصور شكل الإنسان النياندرتالى . جمجمة ركبت من ثلاثة أماكن ، ثم يُضاف لها الخيال لإكمالها فيصرح فى مؤتمر ١٩٠٩ التشرىحي بأنه :

« إذا وجدت فيما بعد جمجمة نياندرتالية محتفظة بهيئتها جيداً ، فلا بد أن تكون مماثلة لهذا الرسم » .

إننا احترماً للعلم لا نشك فى المعلومات العلمية لأى عالم كان ، ولكن من حقنا أن نشك فى المعلومات المبينة على الحدس والتخمين ، والخيال ، وانتظار ما سيكون أياً كان هو » .

« ولنتأمل كلام البروفسور « هرمن كلاتش » يقول بنفسه :
« هذا وليس لدينا شيء من بقايا عظام تلك الحيوانات الفقيرة البرية الأولى ، وإنما كل ما لدينا منها هو آثار خلفتها فى أثناء تحركها ، فانطبعت على الرمال الرخية ، فإذا فرضنا أننا سنعثر على هياكلها ، وهذا ما لا يخرج عن دائرة الممكنات ، فإننا لن نعرف منها شيئاً عن تاريخ ما قبل الإنسان » .

(١٦) ذكر النص الأول الأستاذ محمد قطب فى كتابه . ذكر النص الثانى الأستاذ عبد الرزاق نوفل ص ١٢٤ « بين الدين والعلم » .

(١٧) قيس القرطاس . المصدر السابق .

« نعم قد يكون لنا عند ذاك أن نقول بجواز نشوء الأشكال العظمية الإنسانية من تلك الهياكل ، إلا أنه ليس من المنتظر أن نجد في هذه الحفريات شيئاً خصيصاً بالإنسان » .

ويعقب الأستاذ قيس القرطاس على ما نقله عن البروفسور « هرمن كلاتش » بقوله :

وكلام البروفسور يحتوى على عدة نقاط مهمة :

الأولى : لا يوجد لدينا شيء من بقايا عظام الحيوانات الفقرية التى نشأ منها الإنسان .

الثانية : أنه في حالة العثور على هياكلها ، فإننا لن نجد فيها شيئاً خصيصاً بالإنسان .

الثالثة : يصح عند العثور عليها أن نقول : إن الإنسان نشأ منها إلا أنها ليست بإنسان .

وإذا كان الأمر كذلك ، وهو أمر استنتاجي ، فإن موقف معارضى التطور أقوى بكثير في هذه النقطة بالذات . ذلك لأن مؤيدى التطور يفترضون الحصول على شيء في المستقبل ثم يفترضون أن الإنسان نشأ من هذا الشيء المندثر الذى يتوقعون الحصول عليه ، بينما موقف معارضى التطور يتمسكون بفكرة الخلق المستقل ؛ لأنهم لا يقتنعون بافتراض العثور على أشياء مندثرة ، وبناء استنتاجات عليها ، وهى لم تولد بعد » .

« ويقولون : إنه بالرغم من أن احتمال وجود الشيء لا زال بعيداً ، فإن ذلك لا يحل المشكلة ؛ فكل ما في الأمر أنه يضيف نوعاً جديداً إلى السلسلة الحيوانية ، وتستقبل شجرة التصنيف حيواناً يضاف إلى ملايين الحيوانات الموجودة حالياً » .

٦ — الشك في تحديد عصر الإنسان الأول :

وأورد تحت هذا العنوان عبارات علمية جريئة في كتاب الجيولوجيا للصف

الرابع الثانوى : (١٨)

« وسنقى فى شك من حيث تحديد العصر الذى بدأ فيه ظهور الإنسان على الأرض حتى تكشف آثار لا يحيط بها أى شك أو غموض » .
 ويعبر الكتاب نفسه عن عدم وضوح الآثار لدرجة عدم قبولها برهاناً فيقول : (١٩)

« ولقد كان البحث يكشف لنا من وقت لآخر آثار الإنسان الأول ... فى مختلف الطبقات ، استنتج منها بعضهم أنه بدأ حياته على سطح الأرض فى غضون العصر الميوسينى ، على أن هذه الآثار لم تكن واضحة لدرجة يقبلها الجميع برهاناً على هذه النتيجة .

ذلك لأن العظام التى قيل إنها إنسانية لم تتوافر فيها كل الخواص لعظام الإنسان ، وقد تكون لنوع راق من القردة تشبه الإنسان فى بعض صفاته » .
 وكلام مثل هذا فيه الكثير من الإنصاف ، والاعتدال فى عرض الآراء ، عكس ما سنراه فى غيره ...
 وتوضح العبارات أن الآثار التى اعتمد عليها الكثير من العلماء القائلين بالتطور غير واضحة ، ولا تصح أن تكون برهاناً (٢٠) .

٧ — رأى العالم « فيركو » :

يذكر الأستاذ قيس القرطاس عن العالم الأنثروبولوجى « فيركو » فى كتابه « النوع الإنسانى » :

(١٨) ص ١٥٣ من الكتاب . طبعة أواخر الستينيات بالكويت .

(١٩) ص ١٥٢ ، ١٥٣ .

(٢٠) يلاحظ القارئ فى غير هذا المكان نقولات أخرى عن نفس الكتاب .

« يجب على أن أعلن بأن جميع الترقيات الحسية التي حدثت في دائرة علم الأنثروبولوجيا السابقة على التاريخ ، تجعل القرابة المزعومة بين الإنسان والقرود تبعد عن الاحتمال شيئاً فشيئاً .

فإذا درسنا الإنسان الحفري في العهد الرابع ، وهو الذي يجب أن يكون أقرب إلى أسلافه نجد إنساناً مشابهاً لنا كل الشبه ، فإن جماجم جميع الرجال الحفريين تثبت بطريقة لا تقبل المنازعة بأنهم كانوا يؤلفون مجتمعاً محترماً للغاية ، وكان حجم الرأس فيهم على درجة يعتبرها الكثير من معاصرينا أنفسهم سعداء إذا كان لهم رأس مثلهم ، فإذا قابلنا مجموع الرجال الحفريين الذين نعرفهم بما نراه في أيامنا هذه استطعنا أن نؤكد بكل جرأة بأن الأشخاص ناقصى الحلقة بين الرجال العصريين أكثر منهم بين الرجال الحفريين (٢١) ولا أتجاسر (الكلام للعالم « فيوكو ») أن أفترض في اكتشافاتنا الحفرية — فلم نصادف غير أصحاب القرائح السامية (٢٢) من أهل العهد الرابع .

ومهما كان الأمر فيجب أن أقول : « أى فيركو » لم توجد قط جمجمة قرد تقرب من جمجمة « إنسان » والمتتبع لكلام هذا العالم يعرف عدة أمور :

١ — أن الإنسان القديم كان بحالة أحسن مما نحن عليه الآن (٢٣) .

٢ — أن بعض الاكتشافات العلمية ليس يبعد أن تكون لغير الأصحاء .. من المرضى ، والمصابين بإشعاعات أو زلازل ، أو كوارث (٢٤) .

٣ — كلما كان التقدم في العلم فإن احتمال تطور الإنسان عن الحيوان يبعد شيئاً فشيئاً .

(٢١) يلاحظ ما تقدم في هذا المجال من مشاهدات باشميل .

(٢٢) عكس نظرية النشوء والارتقاء تماماً .

(٢٣) هذا الكلام يوافق ما قرره القرآن الكريم ، وما بينه الرسول ﷺ من أن آدم خلق وطوله ستون ذراعاً ، ولم يزل يتناقص الخلق حتى الآن .

(٢٤) يلاحظ ما يناقض هذا في كتاب الجيولوجيا للصف الرابع كما سنعرف .

٨ — ماذا كان في قارة مو المفقودة ؟

الكولونيل « جيمس شر شوارد » في كتابيه « قارة مو المفقودة » و « أبناء مو » روى فيهما أخبار حضارات سابقة لعصور التاريخ ترجع بها قدماً إلى أكثر من عشرين ألف سنة قبل الميلاد ، ويعزز دعواه برموز وإشارات يفسرها بمعانيها اللغوية .

والجدید في قصة هذه القارة :

أنها تصف لنا هذا الإنسان مخلوقاً مميزاً بين جميع المخلوقات وتربط بين خاصة التدين ، وهذه المزية التي تفرده بين أنواع الأحياء ، على خلاف المفهوم من مذهب النشويين الذين جعلوا الإنسان نوعاً من هذه الأنواع بغير مزية تفصله عنها سزمى مزية الارتقاء » (٢٥) .

والأستاذ « شامبان بنشر » في كتابه عن تعليل التطور عقب عليه قائلاً :
« إنه لا احتمال لتسلسل الإنسان من القردة كما نعرفها ؛ لأن القردة منفردة بتركيب خاص يستحيل تشريحياً أن يتطور منه تركيب إنسان ، إذا كان الإنسان قد نما له من خلال مليون سنة دماغ أكبر وقامة أقوم ، ويد — فوق هذا وذاك — أصلح للتناول والتصرف والاستعمال » (٢٦) .

ويذكر الأستاذ العقاد عقب هذين الفصلين هذا التعقيب :

« وإذا كان علماء النشوء قد استباحوا لأنفسهم أن يرجحوا وقوع تحول الأنواع وتقدم الإنسان جسداً وعقلاً منذ ألاف السنين ، ولكننا لا نعلم أن واحداً منهم أباح لنفسه أن يتنبأ بتطور واحد سيحصل في المستقبل » .

(٢٥) ملخص ص ٦٥ ، ٦٦ ، ٦٧ من كتاب الإنسان في القرآن للعقاد .

(٢٦) ص ٨٠ الإنسان ... للعقاد .

كتاب أصل الأنواع (٢٧) تضمن غلطة وبه نقص :

يقول الدكتور جراهام كانون عضو الجمعية الملكية بلندن : (٢٨)

« والواقع أن العنوان قد تضمن غلطة وبه نقص ، ولكن لم يفتن لهما وقتئذ أحد ، كما أن أسلوب الكتاب ثقیل غیر شيق ، ولكن هذا بالطبع مسألة تختلف فيها الأذواق ... »

فالكتاب متخم بالتخبط البالغ في التفكير ، وكثير من الحشو الذي لا يمت إلى موضوعه بصلة ...

ويتابع جراهام قائلاً :

« الناس قد ضلّوا وسيقوا إلى الاعتقاد بأنهم قد فهموا الموضوع كله . فالعنوان يشير إلى أصل الأنواع ، ولكن دارون لم يقصد الأصل أى النشوء ، وإنما قصد تأصل الأنواع ، وتوطد وجودها بعد نشوئها فعلاً من قبل ، ثم هناك ما هو أسوأ من ذلك ، وهو أنه لم يعرف النوع تعريفاً محدداً .. »

ويتابع الدكتور جراهام في موطن آخر من كتابه قائلاً : (٢٩)

« سبق لى أن ناقشت قصور آراء دارون حين قال : « إن تلك الأفراد التي طالما فيها جزء أو بعض من أجزاء أجسامها أكثر مما هو معتاد في نوعها هي ، تمكنت بصفة عامة من البقاء . فلنوازن الآن بين هذا القول ، وما هو

(٢٧) اسم الكتاب كاملاً : « أصل الأنواع بالانتخاب الطبيعي ، أو بقاء السلالات الصالحة في معركة التنافس لأجل الحياة » طبع في ٢٤ من نوفمبر ١٨٥٩ ونفدت نسخ الكتاب (١٢٥٠) في يوم واحد . عن المصدر التالي ص ١٢٢ .

(٢٨) كتاب نظرات في تطور الكائنات الحية ، تأليف الدكتور جراهام كانون عضو الجمعية الملكية بلندن . ترجمة الدكتور عبد الحافظ حلمي محمد . الأستاذ بكلية العلوم بجامعة عين شمس . مراجعة الدكتور كامل منصور الأستاذ بكلية العلوم . ملتزم الطبع والنشر مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٦٩ م ص ٣٠ تحت عنوان : الداروينية الجديدة .

(٢٩) ص ٢٠٩ ، ٢١٠ من المصدر السابق .

منسوب — خطأ — للامارك ، وسوف يتضح لنا ضيق فرصة الاختيار بين الرأيين فهما في الحقم سواء ، وكان والاس هو أول من أساء التعبير عن آراء لامارك ، فهو قد عزي للامارك أنه قال :

إن الزرافة قد اكتسبت عنقها الطويل نتيجة لرغبتها في أن تقتات بالأشجار العالية ، ومنذ ذلك اليوم إلى وقتنا هذا أصبح تطور عنق الزرافة موضع الزايرة والسخرية .

أما ما قاله لامارك فعلاً فهو أن الحيوانات دأبت على أن تحاول جاهدة أن تبلغ الأوراق في الفروع المرتفعة من الأشجار ، ومن المعقول أن نؤول هذا إلى أنه يعنى أن الحيوانات التي اكتسبت عادة الشبوب إلى أعلى على الدوام بالارتفاع بأجسامها على رجليها الأماميتين ، ونتيجة لذلك طالت هاتان الرجلان ، ولا يستطيع أحد أن ينكر أن مداومة إلقاء ضغط زائد على أطراف العظام الطوال للرجلين الأماميتين قد يجرّض تلك العظام إلى أن تطول . ولكننا إذا حاولنا تطبيق هذا الاستدلال المنطقي على العنق وجدنا أن جميع الثقات نقلوا عن لامارك :

أن الحيوان حاول جاهداً أن يطيل رقبة ، ومن ثم طالت ، ولكن الخطأ في هذا هو أنه لا الزرافة ، ولا أى حيوان فقارى سواها يستطيع أن يحاول جاهداً أن يطيل رقبة ؛ فإن الحيوان يستطيع أن يشرّب أى يمد رقبة أما أن يطيلها فلا .

بل الواقع أن عملية مد الرقبة قد تعمل على الإقلال من جملة طولها إقلالاً طفيفاً نتيجة للضغط الواقع على العناصر المرنة الموجودة بين الفقار ، ولكنها لا تطيلها بحال من الأحوال ؛ فإن هذا مستحيل من الناحية التشريحية ، وليحاول أى قارئ أن يطيل رقبة بإرادته ، وسوف يتضح له أن محاولته لن تكمل بأدنى نجاح ، وسوف يدرك مدى سخافة هذه الفكرة ، واستحالة تحقيقها .

والسبب في ذلك هو — ببساطة — عدم وجود الدولاب العصبى الذى يهيمن على عضلات لا وجود لها .

ويعقب الدكتور جراهام بقوله : (٣٠)

(٣٠) ٢١٣ ، ٢١٤ من المصدر السابق .

« إن جميع الأدلة التي حلتها في الفصول السابقة لتؤدي — في نظري —
إلى وجهة واحدة لا تنشئ عنها . . . »

فهى تنتهى إلى فكرة وجود قوة موجهة هادية مستقرة فى أعماق كل كائن
حتى فتتحكم فى تطوره وتوجهه ، لا عن طريق التغيرات العشوائية ، وإنما عن
طريق تحولات مختارة . وعلى أية حال قد برزت فكرة تلك القوة الموجهة .
ولتسمها كيف شئت » انتهى كلام الدكتور جراهام .

أدلة من علم التشريح المقارن

٩ - الإنسان الزنجي أو كاسر الجوز :

في شهر يوليو ١٩٥٩ (أى بعد صدور كتاب أصل الأنواع لدارون بمائة سنة تماماً) وجد الدكتور « ليكي »^(٣١) جمجمة فى القارة الإفريقية ، ووجد معها بقايا حيوانات يظن الدكتور أن صاحب الجمجمة كان يصطادها لطعامه ، يستخدم فى صيدها أسلحة حجرية ، وجدت آثارها على مقربة منه ، وقد استقرت هذه الحفائر تحت مجرى « أولدفاي » « بتجانيقا » وسمى هذا الإنسان باسم علمى معناه « الإنسان الزنجي » ولقبوه فى الدوائر العلمية بلقب « كاسر الجوز » لضخامة فكه وضروسه ، ويقدرّون تاريخه بنحو ستائة ألف سنة على حسب قياس الزمن بمقاييسه المتعددة ، ومنها حساب زمن التحجر ، وزمن تكوين الطبقة ، وزمن التطور فى تركيب العظام ، وزمن البقايا التى تختلف من عظام الفك والأسنان .

« والمحقق كذلك أن الإنسان القديم الذى دلت عليه تلك البقايا كان يستخدم الآلات الحجرية ويستعين فى كفاح أعدائه من الحيوانات الضارية بنصيب من الذكاء لم يكن معهوداً فى حيوان منها ، فهو فى أقدم عهوده مميز بالعقل ، والنطق ، وهما صفتان إنسانيتان لا تنفصلان عن استخدام الآلة ، ولا عن الخاصّة المميزة للحيوان الناطق من اعتدال القامة ، ومطاوعة اليد للإرادة

(٣١) مدير المتحف الوطنى فى كينيا وقد دامت أبحاثه ٢٨ عاماً ، وانتهت فى سنة ١٩٦٤ ، ويساعده ابنه ريتشارد . ص ١١ من مجلة الشهاب ٢٨ من شعبان ١٣٩٤ هـ . ١٥ أيلول ١٩٧٤ م .

في حالات المشي والوقوف ، ولولا ذلك لما استطاع الإنسان أن يستخدم السلاح وأن يصنعه لإصابة الحيوانات الضارية من بعيد » (٣٢) .

١٠ — زيادة نمو الدماغ في الإنسان :

قال الدكتور : بشارة زلزل في كتابه « تنوير الأذهان في علم حياة الحيوان والإنسان » : (٣٣)

« فإذا نظرنا إلى الإنسان على سبيل المقابلة للقرود التي هي لا شك أقرب الحيوانات إليه ، يرى أن الإنسان عاش منتصب القامة على قدميه ، لأن سلسلة ظهره مقوسة في العنق ، وفي الظهر ، وفي الصلب ، وليس للقرود شيء من ذلك . وعلّة ذلك كما قال بعض المدققين زيادة نمو الدماغ لأنه يؤدي إلى كبر القحف ، فتتغير الجلسة بدليل عدم استوائها في الأطفال ، وبناء عليه تكون موازنة الرأس للبدن سبباً لاستواء الجمجمة على العمود الفقري ، وقالوا : إن الأقواس الثلاثة المذكورة تكون في المتمدنين أوضح مما هي عليه في المتوحشين .

وعلى الجملة فإن موازنة الرأس مع البدن في أكثر الحيوانات اللبونة تناط بالأربطة العنقية ، وهي قوية جداً فيها ، وفي القرود بالعضلات المتينة التي تندغم في (القذال ، والسناسن) (التوتوات الشوكية) وهي فيهما أطول وأغلظ مما في الإنسان بضعفين ، ويتوقف عليهما وعلى الرأس حفظ الرأس على الوضع الأفقي ، فلا يضغط على الصدر لذلك .

وليس الأمر كذلك في الإنسان ؛ لأن ثقل جمجمته يتكافأ مع ثقل البروز الوجهي ، فيستوى الرأس على الهامة دون أن يكون للعضلات والأربطة العنقية

(٣٢) الانسان في القرآن الكريم للاستاذ العقاد ص ٦٢ ، ٦٣ .

(٣٣) يذكر الاستاذ العقاد أنه قد صدر الاذن بطبعه ١٣ من رجب ١٢٩٧ وتم طبعه بمطبعة الجامعة في الاسكندرية ، وبين المؤلف فيه بتفصيل الفروق بين الإنسان من القرد وهذه الفروق كما ذكر العقاد في كتابه ص ١٦٧ وقد نقلنا هذه المعلومات عن كتاب الانسان في القرآن الكريم للعقاد ص ١٣٩ .

إلا المحافظة على الموازنة المذكورة ، ومقاومة ميل الرأس إلى الأمام ، ولذلك كانت هذه الأربطة في الإنسان ضعيفة » .

وقال الأستاذ بروقا وتابعه كثيرون : (٣٤)

« إن السبب في انتصاب قامة الإنسان واستوائه ماشياً على قدميه إنما هو نمو الدماغ ؛ لأن هذه المشية تجعل اليدين مطلقتى الحركة ، والنظر متجهاً إلى الأفق ، وطفل الإنسان يشبه الدبابات ؛ لأنه عديم الأقواس الفقرية ، فلا يظهر القوس العنقى إلا متى ابتداء الطفل أن يضبط رأسه في الجلسة التي يعود عليها ، وذلك في الشهر الثالث من عمره ، وفي السنة الثانية يتكون القوس الظهرى من جراء فعل العضلات الظهرية والصلبية للقطر السفلى للعمود الفقرى ، وذلك إذ يبتدئ الطفل أن يدرج .

وبالجملة فإن الخاصة التي يصدر عنها حسن تقويم الإنسان ، ويتوقف عليها امتيازه على سائر الحيوان وتتفاوت بحسبها مراتب الأمم في المدينة ، وإنما هي نمو الدماغ ، وزيادة حجم الجمجمة » .

قال الدكتور بشارة : (٣٥)

وذلك بعد أن ذكر المقارنة الحسائية بين وزن دماغ الإنسان ووزن دماغ القرد ، وقد مر بنا هذا في موضع آخر .

« وعلى قدر نمو الدماغ تزداد سعة القحف ، ويقل البروز الوجهى ، والفرق بين الإنسان ، والحيوانات من هذا القبيل أوضح من أن يبين .

فإذا نظرت إلى جمجمة إنسان من الأعلى لا ترى البروز الوجهى بخلاف ما إذا نظرت إلى جمجمة القردة وغيرها من الحيوانات ، وإذا نظرت إلى جمجمة القرد من جانب ترى الوجه شاخصاً إلى الأمام يؤلف خطأ مستطيلاً ، وذلك من

(٣٤) العقاد المصدر السابق .

(٣٥) المصدر السابق .

الخصائص البهيمية .

ويستدل على معرفة درجة هذا البروز بالزاوية الوجهية .

وفضلاً عن ذلك فإن الجزء الوجهي للعظم قليل التواء في الإنسان ، بخلاف ما هو عليه في القرد ، وإذا نظرت إلى الجمجمة من وراء لا ترى الثقب المؤخرى في جمجمة الإنسان ، وتراه كله أو قسماً منه في جمجمة القرد .

وهذه الأعراف الدالة على الشراسة ، والصفات البهيمية في القرد غير موجودة في الإنسان ، وهي لازمة فيها عن نمو العضلات المضغية التي يترتب عليها تحريك الفكين الضخمين ، عن نمو عضلات القذال التي يتوقف عليها إسناد الرأس على العنق .

ومعلوم أن قحف الحيوان الصغير لا يتسع لاندغام هذه العضلات فيه ، فحيث وجدت اضطرت النسيج العظمي في إبان نموه أن يهبط لها مندغماً فنشأ عرفاً .

والدليل على ذلك أن هذه الأعراف لا توجد في القرد الصغيرة .

الرجل اليدوي ، والإنسان ١٤٧٠

اكتشف الدكتور ليكي أيضاً نموذجين من الجماجم ، وقيس عمرها بأجهزة الإشعاع النوى فبلغ مليونين وستمائة ألف سنة وحجم مخها ضعف حجم غن القرد مما يدل بما لا يقبل الشك على أن الإنسان الحديث أقرب انتماء لهذه السلالة منه للقرد . وسمى النموذج الأول : الرجل اليدوي ، والثاني : الإنسان رقم ١٤٧٠ حسب رقمه في المتحف ، ويمتاز بمقدرته على المشي واقفاً وخلوه من الصفات الوحشية .

كذلك لا تزال اكتشافات القبائل المجهولة في إستراليا وإفريقيا تثبت لنا وجود بشر يعيشون اليوم ليس لهم شكل جمجمة الإنسان الحالي ، ولا حجمها ،

ومع ذلك يمتازون بفرق هائل عن الحيوانات وبصفات طبيعية بسلوكهم ودينهم
وبتفكيرهم (٣٦) .

آراء سريعة معارضة

١١ — مذهب دارون خطأ علمي باطل في الواقع :

« والأستاذ : إبراهيم حوراني عالم لغوي مطلع على المباحث العلمية . ألف
في الرد على مذهب دارون رسالة « مناهج الحكماء في نفي النشوء والارتقاء » ثم
أتبعها برسالة « الحق اليقين في الرد على داروين » وطبعها في بيروت ١٨٨٦ رداً
على مناقشة الدكتور شلبي شمیل (٣٧) .

قال الأستاذ حوراني هذا : (٣٨)

« إن العلماء لم يثبتوا مذهب دارون ، وكذلك نفوه وطعنوا فيه مع علمهم
أنه بحث فيه عشرين سنة » .

١ — ومن العلماء أيضاً العلامة « ونشل » مع أنه من أشد الناس ميلاً إلى
القول بالارتقاء بفعل الله .

٢ — ومنهم العلامة « ولاس » قال ما خلاصته : إن الارتقاء بالانتخاب
الطبيعي لا يصدق على الإنسان ولا بد من القول بخلقه رأساً .

٣ — ومنهم الأستاذ « فرخو » قال :

إنه يتبين لنا من الواقع أن بين الإنسان والقرد فرقاً بعيداً ، فلا يمكننا أن
نحكم بأن الإنسان سلالة قرد أو غيره من البهائم ، ولا يحسن أن نتفوه بذلك .

(٣٦) الأستاذ عفيف الأسمر في عدد الشهاب .

(٣٧) يعتبر من أنصار مذهب دارون ، وقد ألف في هذا بعض الكتب ، وهو لبناني الأصل
توفي في القاهرة وقد كاد أن يسبق دارون وأصحابه في الأخذ بالنظرية .

(٣٨) الإنسان في القرآن الكريم للأستاذ العقاد ص ١٠٨ ، ١٠٩ .

- ٤ — ومنهم « ميفرت » قال بعد أن نظر في حقائق كثير من الأحياء :
إن مذهب دارون لا يمكن تأييده ، وأنه رأى من آراء الصبيان .
- ٥ — ومنهم العلامة « فون بسكوف » قال بعد أن درس هو
و « فرخو » تشریح المقابلة بين الإنسان والقرد :
إن الفروق بين البشر والقروء أصلي وبعيد جداً .
- ٦ — ومنهم العلامة « أغاسيز » قال في رسالة في أصل الإنسان تليت في
ندوة العلم الفكتورية ما خلاصته :
إن مذهب دارون خطأ علمي باطل في الواقع ، وأسلوبه ليس من أساليب
العلم بشيء ولا طائل تحته .
- ٧ — ومنهم العلامة « هكسلي » وهو من اللأدرية وصديق لدارون
قال :
إنه بموجب ما لنا من الينيات لم يتبرهن قط أن نوعاً من النبات أو الحيوان
نشأ بالانتخاب الطبيعي أو الانتخاب الصناعي .
- ٨ — ومنهم العلامة « تندل » وهو كهكسلي قال :
« إنه لا ريب في أن الذين يعتقدون بالارتقاء يجهلون أنه نتيجة مقدمات لم
يسلم بها .
ومن المحقق عندي أنه لا بد من تغيير مذهب دارون » (٣٩) .

رُدود مَنطقيّة

تركزت الردود السابقة على شيء مهم ، هو أن الإنسان متطور عن

(٣٩) ص ١٠٨ ، ١٠٩ الإنسان ... للعقاد .

الحيوان ، ووضحت أن الأمر بالعكس أى أن الإنسان خلق خلقاً مستقلاً ،
والخلق المستقل إذاً ليس فكرة فقط بل حقيقة لا جدال فيها ، تكمل هذه الحقيقة
بأن أول إنسان هو آدم أبو البشر ...

وقد نلتقى مع بعض القائلين بالتطور في :

أن هذا الخلق أو التطور على أساس الإيمان بالإله لهذا الكون فهو الخالق ،
أو من أودع الكائنات القدرة على التطور على النحو الذى أبطلناه فيما سبق ...
ولكننا الآن نواجه النوع الثانى من القائلين بالتطور ... النوع القائل بأن
الحياة تسير هكذا صدفة ...

فالحياة وجدت أول ما وجدت صدفة ، وتتطور إلى أعلى صدفة ..
والفترة الزمنية التى نواجههم فيها هى فترة بدء الحياة أو بدء الخلق ،
والعقيدة التى تصحبها ...

١٢ — الصدفة لا تخلق نظاماً :

ولنبداً بصاحب كتاب « العلم يدعو إلى الإيمان » « كريسي موريسون » .
بدأ « كريسي موريسون » فصله الأول تحت عنوان « عالمنا الفذ » بمناقشة
منطقية لنفى الصدفة فى الخلق ، وضرب لذلك مثلاً فقال : (٤٠)

« خذ عشرة بنسات ، كلا منها على حدة ، وضع عليها أرقاماً متسلسلة من
١ إلى ١٠ ثم ضعها فى جيبك وهزها هزاً عنيفاً شديداً ، ثم حاول أن تسحبها
حسب ترتيبها من ١ إلى ١٠ .

إن فرصة سحب البنس رقم ١ هى بنسبة ١ إلى ١٠ وفرصة سحب
رقم ١ ، ورقم ٢ متتابعين هى بنسبة ١ إلى ١٠٠ ، وفرصة سحب البنسات التى
عليها أرقام ١ ، ٢ ، ٣ متتالية هى بنسبة ١ إلى ١٠٠٠ وفرصة سحب ١ ، ٢ ،

(٤٠) الكتاب المذكور ص ١٥ .

٣ ، ٤ متوالية هي بنسبة ١ إلى ١٠,٠٠٠ وهكذا ، حتى تصبح فرصة سحب البنسات بترتيبها الأول من ١ إلى ١٠ هي بنسبة ١ إلى ١٠ بلايين .

والغرض من هذا المثل البسيط هو أن نبين لك كيف تتكاثر الأعداد بشكل هائل ضد المصادفة ، ولابد للحياة فوق أرضنا هذه من شروط جوهرية عديدة بحيث يصبح من المحال أن تتوافر كلها بالروابط بمجرد المصادفة على أى أرض في أي وقت . « اهـ

ونرى للدكتور الدمرداش عبد المجيد سرحان مثلاً يشبه المثل السابق ، ولكن المثل الجديد يوصف بالطرافة والملاحاة .

قال الدكتور : (٤١)

« إذا كان لدينا صندوق كبير مليء بالآف عديدة من الأحرف الأبجدية فإن احتمال وقوع حرف الألف بجوار حرف الميم لتكوين كلمة « أم » قد يكون كبيراً . أما احتمال تنظيم هذه الحروف لكي تكون قصيدة مطولة من الشعر ، أو خطاباً من ابن إلى أبيه ، فإنه يكون ضئيلاً إن لم يكن مستحيلاً » اهـ

١٣ — كيف يكون مادياً ولا يثبت بداية أصله المادي ؟

القائلون بالتطور فرقتان كما عرفنا .

فرقة تعمم تطبيقه على الكون كله بما اشتمل عليه من مادة وحياة ، وأخرى تقصره على عالم الكائنات العضوية .

فمن أي شيء تطور الكون كله إذن على الرأي الأول ؟

ومن الذى أودع الكائنات هذه القوة لتتطور لو سلمنا جدلاً بالتطور

(٤١) هذا ما حاول مثله ، عالم الطبيعة البيولوجية ، فرانك ألن في كتاب « الله يتجلى في

عصر العلم » ترجمة الدكتور سرحان .

ركائز الايمان للأستاذ الغزالي ص ٥٧ ، ٥٨ .

المعهود ؟ (٤٢)

أما دارون نفسه فيهرب ويقول :

« إنه شيء ميكانيكي »

والشيء الميكانيكي لموجود أصلاً من حيث المادة كما هو معروف عندهم ،
وكما كانوا يدعون (٤٣) .

فكيف يكون الشيء الميكانيكي خالقاً لمادة من عدم ؟

وتنوع القائلون نوعين من جانب آخر :

نوعاً مؤمناً يفسر الأصول بأنها من صنع الخالق الحكيم . ونوعاً مادياً
يقول : هكذا كان .

و « هكذا » تشبه كلمة الطفل حينما يجيب ، والجاهل حينما لا يعي علة
للأشياء .

فكيف يكون مادياً ولا يثبت بداية أصله المادي ؟

١٤ — كيف يكون الخالق أحط من المخلوق ؟

هذا السؤال يناقش من يدعي أن الطبيعة بنفسها دون قوة أخرى هي التي
ولدت الحياة ، أو أخرجت الحياة ، ووهبتها للكون كما مر بنا عن بعضهم بادعاء
التولد الذاتي .

طبيعة جامدة بكماء لا تعي ولا تفقه ، تستطيع أن توجد وتبدع الحركة
الواعية المدركة من الانسان والحيوان والنبات . ويأتي الانسان ليسخر هذه

(٤٢) أرجو أن يعرف القارئ أن التطور المعهود هو تطور الأنواع من بعضها كتطور
الإنسان من الحيوان ، والحيوان من النبات مثلاً .

(٤٣) يلاحظ في مكان لاحق مناقشة قاعدة « المادة لا تفنى ولا تستحدث » .

الطبيعة ، أو على زعمهم ليسخر خالقه .

وكيف يكون هذا ؟

عندما يغيب عقل الانسان وإدراكه ، وعندما يزيف له الحقائق ، فيعتمد على أساس فاسد لا أصل له ، ويقع في شرك محبوكة لا يستطيع الفكك منها .
أما السؤال في العنوان يجيب عنه « لامارك » مصطنعاً الهدوء دون أساس يعتمد عليه بقوله :

« إن المادة الخرساء الجامدة الميتة قد صنعت كل كائن حي ، وأشرفت على تطويره وترقيته ، ومن ذلك الإنسان العاقل المدرك المفكر » (٤٤) .

هكذا يجيب « لامارك » دون مقدمات معتمدة ، وعلى الرغم من مخالفة تلميذه « دارون » لهذا الاعتقاد

١٥ — كيف صنعت الطبيعة الحياة ؟

ولنفترض سجلاً بأن الطبيعة قد صنعت الحياة كما قال « لامارك » الفرنسي أستاذ « دارون » .

فكيف إذن صنعت الطبيعة هذه الحياة ؟

ولنستمع إلى إجاباتهم أولاً . إنهم يجيبون بقولهم :

« إن المادة التي نسب إليها القدرة على الخلق والإبداع مسيرة لا مخيرة ، ومحكومة لا حاكمة »

فمن الحاكم إذن ؟

لابد أن يقولوا : إن هناك قوة أكبر من قوة الطبيعة سخرتها ، وسيرتها .

ولن هذه القوة ؟

ولابد أن نصل إلى هذه النتيجة .

(٤٤) ص ٢٩ من كتاب الاسلام ونظرية دارون .

« إنها لخالق هذه المادة ، وهذه الطبيعة ، وبالتالي خالق الإنسان والحيوان والنبات .

وهذا الخالق الذي اعترفتم به مجبرين هو المبدع لهذا الكون ، وهو المرسل للرسول ، وهو المنزل للكتب ، وهو الذي عرفنا أن اتباع غير الشخص لابد أن يكون عن دليل فالإسلام علم أتباعه أن الأمور لا تساق هكذا دون برهنة علمية أو فعلية أو عقلية ، والإسلام قد علمهم أيضاً أن يعيشوا في رحاب هذا الكون وينظروا ويتأملوا فيستفيدوا أمرين :

١ — كشف أسرار الكون وقوانينه ، فتستغل في إسعاد البشرية ، وتسخر لخدمة الإنسان .

٢ — أن هذا الكون البديع المنظم المحكم إنما كان عن مبدع حكيم خالق قادر .

ويترتب على هذين الإيمان الكامل بأن مبدع هذا الكون ، وخالق الإنسان ، هو الذى يعلم علماً يقينياً أن خير هذا الإنسان في اتباع الدين القويم الإسلام ، وأن التشريع الذي قد شرعه لخلقه هو التشريع الأقوم ،

﴿ إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم ﴾

١٦ — العلم البشرى لا يعلم نهايات الأشياء :

العلم في تغير دائم .

هذه حقيقة ، بمعنى أن العلم لا يصل إلى نهايات الأشياء ، ولو وصل إلى هذه النهايات لجمد ، ولتوقفت حركة الإنسان .

فنظرية الأمس ، تعدل اليوم ، ثم تنقض غداً .

والتعديل أو النقض بناء عما اكتشف من قوانين جديدة أو أسرار كونية جديدة .

ولا أريد أن أضرب لذلك نظريات متداعية ، ولكنى سأضرب مثلاً أقوى

« قانوناً من قوانين الطبيعة » هذا القانون هو :

« المادة لا تفنى ولا تستحدث »

درس هذا القانون عشرات السنين إن لم يكن أكثر في المختبرات العلمية ... وبالطبع لا يمكن لإنسان أن يعارضه أو يناقشه ، حتى ولو اعتمد على أدلة دينية .. وانقضت حقبة طويلة من الزمن بدأ الإنسان الحديث بعدها بارتياحه الفضاء (بمجهوده العلمي) وظهر له في أبحاثه الجديدة شيء جديد .
فما هذا الجديد ؟

الجديد هو تحول المادة إلى غير المادة .

تحولت المادة إلى طاقة ، وتحولت الطاقة إلى مادة وقرأت بحثاً للدكتور أحمد زكي في مجلة العربي يعلن فيه أن القاعدة الجديدة هي :
« مجموع الطاقة والمادة لا يفنى ولا يستحدث »
والأمثلة كثيرة وخطيرة ...

كان « الاعتقاد السائد أنه لا توجد قوة على ظهر الأرض تستطيع أن تشطر الذرة ، بل مشاهير الفيزيائيين العالميين بما فيهم « إنشتين » و « بلانك » و « رزرفورد » و « بور » كانوا يعتقدون بعدم إمكان تفتيت الذرة » (٤٥)
وجاء بعد ذلك « إيرنكو فرمي » الذي اكتشف خطأ هذا الاعتقاد ، واهتدى إلى تفتيت ذرة « اليورانيوم » (٤٦)

أما لماذا يشتهر إنشتين أكثر من فرمي فهذا غريب .
ولماذا لم يشتهر أيضاً أمثال العالم المصرى علي مصطفى مشرفة الذي

(٤٥) المهندس قيس القرطاس مجلة الشهاب عدد ١٥ أيلول ٧٠ نقلاً عن كتاب على أطلال المذهب المادي لفريد وجدي .

(٤٦) نفس المصدر السابق .

اكتشف خطأ وقع فيه إنشتين مما جعل الأخير يختاره مساعداً له ، فأمر أشد غرابة .

البحث العلمي أمانة ، على المرء أن يقول : توصلت إلى كذا ويأتي دور غيري ليضيف جديداً ...

أما أن أدعي أنني وصلت إلى الحقيقة التي لا جدال فيها كما سنرى في فصل لاحق فأمر لا يمت إلى الحقيقة بشيء .

ومن الخير للبشرية أن تعتقد بأنها لم تصل إلى نهايات الأشياء حتى تستمر في البحث وتكشف عن المجهول ، وتعلم ما لم تكن تعلم ولأن في ذلك بعثاً على الحركة وعدم الجمود على قاعدة .

١٧ — مواقف مخزية لبعض علماء التطور تظهر كذبهم :

أضعك أيها القارئ العزيز أمام نقولات موجزة وسريعة لبعض علماء التطور ، وعلى رأسهم « دارون » أستاذهم الأكبر ، وقد مرت بنا إشارات إلى هذا .

١ — دارون

نقل عن دارون قوله :

« إن تفسير النشوء والارتقاء بتدخل الله هو بمثابة إدخال عنصر خارق للطبيعة في وضع ميكانيكي بحت » (٤٧) .

وتشبه هذه العبارة عبارة « لامارك » السابقة وقد نوقشت في حينها .

ونقل عن دارون أيضاً :

« يستحيل على العقل الرشيد أن تمر به ذرة من الشك في أن هذا العالم

(٤٧) التطور والثبات لمحمد قطب .

الفسيح بما فيه من الآيات البالغة ، والأنفس الناطقة المفكرة ، قد صدر عن مصادفة عمياء ، لأن المصادفة لا تخلق نظاماً ، ولاتبدع حكماً ، وذلك عندي أكبر دليل على وجود الله » (٤٨) .

وكتب إليه طالب ألماني في سنة ١٨٧٩ يسأله عن عقيدته الدينية ، وعن العقيدة التي يدعو إليها الأخذ بمذهب التطور ، فكلف أحد ذويه أن يجيبه ويجب غيره ممن يوجهون إليه هذه الأسئلة قائلاً :

« إن مستر دارون يعتذر لكثرة الرسائل التي ترد إليه ولا يتيسر له الرد عليها جميعاً ، ويود أن يقول : إن مذهب التطور يوافق كل الموافقة إيمان المؤمن بالله ، غير أننا يجب أن نذكر أن الناس يختلفون كثيراً في تعريفهم لما يعنونه بالإله » (٤٩) .

فإنكار الخالق كما يُفهم من العبارة الأولى المماثلة لعبارة « لامارك » يتغير إلى إيمان بالخالق في العبارتين الأخيرتين وما ذكره من اختلاف الناس في تعريفهم للإله مرجعه تعريف اليهود والنصارى للإله كما سبق ...

٢ — جوليان هكسلي :

جوليان هكسلي في كتابه « الإنسان في العالم الحديث » وهو من علماء الدارونية الحديثة يقول :

« وبعد نظرية دارون لم يعد الإنسان تجنب نفسه حيواناً » (٥٠)
وقد ألف كتاباً آخر أسماه :

« الإنسان يقوم وحده » أي هكذا دون خالق (٥١) .

(٤٨) بين الدين والعلم لنوفل ص ١٢٤ .

(٤٩) ص ١٢٤ من كتاب الانسان في القرآن الكريم للاستاذ العقاد .

(٥٠) ترجمة حسن خطاب ومراجعة عبد الحليم منتصر نقلاً عن التطور والثبات .

(٥١) عن مقدمة للدكتور أحمد زكي لكتاب العلم يدعو إلى الايمان لكريمي موريسون .

وانبرى له عالم آخر فألف كتاباً أسماه :
« الإنسان لا يقوم وحده » أراد بذلك أن يقول : إنه يقوم في هذه الدنيا
ومعه الله .

وقد قال موريسون :
« إن المتفق عليه عموماً هو أنه لا البيئة وحدها ، ولا المادة ، مهما كانت
موائمة للحياة ، ولا أي اتفاق في الظروف الكيموية والطبيعية قد تخلقه المصادفة ،
يمكنها أن تأتي بالحياة إلى الوجود » (٥٢) .

٣ - هيكل :

يقول هيكل وهو أحد علماء التطور :
« إنه لو أعطي ماءً ، ومواد كيموية ، ووقتاً كافياً لاستطاع أن يخلق
إنساناً » (٥٣) .

ولو سلم جدلاً لهيكل ، بل حتى لو استطاع أن يخلق إنساناً ، فذلك دليل
على أن هذا الإنسان الجديد خلق من تدير وتنظيم ولم يُخلق صدفة ، عكس
ما يريد هيكل تماماً .

﴿ إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا
له ﴾ (٥٤) .

٤ - توماس هكسلي :

توماس هذا جد جوليان هكسلي ، وقد كان معاصراً لدارون .

(٥٢) العلم يدعو إلى الإيمان لكريسي موريسون ص ٩٧ ترجمة الفلكي .

(٥٣) مقدمة الكتاب السابق للدكتور أحمد زكي ص ٤٥ .

(٥٤) سورة الحج ، الآية رقم ٧٣ .

أثار توماس أكبر ضجة ومهاترة ، وحمل لواء الحرب بين العلم والدين لفترة طويلة .

وهو الذي سبق دارون بالقول بنظرية التطور وتطبيقها على الإنسان ... ظل مدة طويلة يدرس كيف بدأت الحياة ؟

فقد كان من الشائع الاعتقاد بالتولد الذاتي ، حيث يُشاهد الناس الحشرات تظهر في اللحم الميت ، وكذلك تتولد داخل الأواني المغلقة ، فلما أثبت الطبيب الإيطالي « فرانيسكوردي » أن الحشرات لا تظهر مطلقاً في اللحم إذا غطي بقماش رقيق ، استمر دليل التولد الذاتي قائماً على مشاهدة وجود الديدان المعوية في الإنسان ، حتى ظهر « تندول » و « باستور » وقُضي على هذه الخرافة قضاء تاماً ، إذ عرف أن هذه الديدان إنما تنشأ عن بويضات يتناولها الإنسان على هيئة ميكروب أو جراثيم في طعامه أو شرابه ، وتقدمت الأبحاث إلى أن عرف أن البروتوبلازم هي مادة الحياة الأساسية ، وأمكن معرفة مكوناتها ، ولما اكتشف بعضهم وجود مادة هلامية في قاع البحار اعتقد هكسلي أنها حلقة الانتقال من الجماد إلى المادة الغروية المعروفة باسم البروتوبلازم ، ونادى بنظريته بخلق الحي من الجماد ، ولما اتضح أن هذه المادة إنما هي طين به رواسب مواد عضوية ، اعترف بذلك في دعاية لطيفة في أثناء مؤتمر علمي بشفيلد في عام ١٨٧٩ وأعلن أسفه لأنه كان السبب في تضليل كثيرين اعتمدوا على شهرته ، واستشهدوا به في تأييد التولد الذاتي « (٥٥) » .

٥ — برتراند راسل :

الفيلسوف الانجليزي « برتراند راسل » يقول في صفاقة نادرة :

« ليس وراء نشأة الإنسان غاية أو تدبير ، إن نشأته وحياته وآماله ومخاوفه وعواطفه ، وعقائده ليست إلا نتيجة لاجتماع ذرات جسمه عن طريق المصادفة » (٥٦) .

(٥٥) بين الدين والعلم لعبد الرزاق نوفل ص ١٢٦ .

(٥٦) ركائز الايمان للاستاذ محمد الغزالي ص ٦٠ .

وبذلك ضم رسل نفسه إلى جوليان ، وهيكل ولامارك في هذه المزاعم دون أي دليل أو برهان علمي .

وقد أبطل هذا الزعم علماء النشوء أنفسهم كما سبق .

٦ — أوبارين :

أوبارين هذا عالم سوفياتي طبيعي كبير ، يردد اليوم نفس المزاعم التي كان يرددها فلاسفة الإلحاد أمثال : — هيكل ، ولامارك — فهو يزعم :

« أن المادة بطبيعتها دائمة التحرك والتحول ، والتدرج ، وأنه بإمكان الإنسان صنع كائن حي عن طريق مزج عناصر مخصوصة ، تتفاعل بذاتها تفاعلاً كيميائياً ، وبيولوجياً كما حدث بزعمه عند ظهور الحياة الأولى منذ ملايين السنين ولكن العالم الشيوعي قد ارتج عليه عندما سأله البعض :

هل هذا التفاعل الكيميائي في المادة قادر الآن على إيجاد الحياة بالطريقة التي زعم انبثاق الحياة الأولى بها ؟ فقد تلعث ، ولعلمه بأن هذا القول خرافة في خرافة ، ومن المستحيل على أي انسان تحقيقه فقد قال :

إن هذا لا يزال ممكناً .

وحتى لا يطالب بالتدليل عملياً على صحة زعمه قال :

ولكن هذا ممكن في كواكب أخرى غير كوكبنا يعني الأرض .

وهكذا يتملص الملحدون عندما يدعون إلى البرهنة على صحة مزاعمهم الإلحادية عملياً (٥٧) . ويظل السؤال قائماً دون إجابة من أوبارين .

٧ — ليسنكو الروسي :

ليسنكو هذا عنوان مهزلة كبرى في عالم الوراثة والنبات والسياسة ،

(٥٧) الاسلام ونظرية دارون لباشمیل ص ٢٩ الهامش .

وخطورة المهزلة نشأت من تبني تجربة فريدة على نوع واحد من النبات لم يكشف عن الظروف التي أحاطت بهذه التجربة إلا أخيراً ...

فماذا كان عن ليسنكو هذا ؟

تحت عنوان « تطويع العلم للسياسة » ذكرت مجلة العربي (٥٨) في باب أنباء الطب والعلم والاختراع ما يلي :

ظهر كتاب اسمه « ارتفاع ليسنكو وسقوطه » وهو تأليف عالم روسي اسمه « زوروس مدفيس » يعمل في روسيا ، أما ليسنكو فهو العالم الروسي الذي اشتهر بأنه بسبب تجربة وحيدة قام بها على نبات واحد ، خرج بنظرية تناسلية قصد بها خدمة المذاهب السياسية ، التي كانت جارية عند ذلك ، وذلك في عام ١٩٣٥ ، وعلى الأخص المذهب الذي اعتنقه ستالين مذهباً سياسياً لا دخل له بالعلم .

ونال ليسنكو بذلك حظوة كبيرة عند الساسة .

وملخص نظرية ليسنكو الجديدة هي أن الإنسان يستطيع بواسطة البيئة إكساب النبات صفات وراثية في أنساله لم تكن في الآباء ، وأن يغير بنفس الوسيلة صفات وراثية سابقة في الإنسان .

وكان هذا بالطبع مناقضاً لحقائق علم الوراثة المعروفة ، وقام العلماء في أقصى الأرض يعارضونها أما السياسة فشئت أن تنتفع بأن ما يجري على النبات يجري على الإنسان ، وأنه بتغيير البيئة الإنسانية سياسياً واجتماعياً يمكن تغيير بعض الصفات من جيل إلى جيل .

وكان سقوط « ليسنكو » في بلده روسيا في عام ١٩٦٢ (أي بعد ٢٧ سنة من التجربة) وكان هذا (أي سقوطه) بسبب فشل مشروعاته الزراعية والاقتصادية التي بناها على نظرياته الوراثةية « ١ هـ كلام المجلة .

تجربة ناقصة وواحدة على النبات ، وتطبق على الإنسان بأوسع نطاق ، وفي

(٥٨) العدد ١٣٤ شوال ١٣٨٩ يناير ١٩٧٠ ص ١٤٠ .

كل النواحي ، ولا يجرؤ فرد على المعارضة حتى تمر هذه الفترة ٢٧ عاماً أي بعد موت مشجع النظرية ستالين بعشر سنوات .
كلام يُساق للعظة والاعتبار . (٥٩) .

كيف تُدرّس نظرية دارون في بلادنا ؟

تمهيد

إن التجارب العلمي شيء ضروري في حياتنا ، والحديث بالذات ، والأمة الناهضة هي التي تسعى إلى تعليم أبنائها جانين :

١ — جانب العقيدة .

٢ — وجانب البحث والاستكشاف لكل ما يمكن أن تصل إليه أيدينا أو أفكارنا .

وكلا الجانبين مرتبط بالآخر نوعاً ما .

وما انفصل الجانبان عن بعضهما إلا من وهم أو جهل ، والحقيقة : أن من يتأمل كوناً منظماً بديعاً ، ويكشف القوانين والأسرار لهذا الكون فتستغل لصالح الإنسان ، يستشعر عظمة الخالق المبدع فيعبده وحده لا شريك له ، ويلتمس منه الهداية الرشاد .

وما كان الانفصال بين الجانبين إلا نتيجة خطأ تربوي كبير . هذا الخطأ هو : أن من يدرس الدين مثلاً لا صلة له بالعلوم التطبيقية غالباً . ومن يدرس هذه العلوم لا صلة له بالعلوم الدينية غالباً إلا النادر من الجانبين ...

(٥٩) يمكنك أن ترجع أيضاً في ذلك إلى عدد الشهاب اللبنانية ١٤ من رمضان ١٣٩٤ هـ .
١ من تشرين الأول ١٩٧٤ م تحت عنوان : دارون .. عندما أجهز عليه العلماء
ص ١٠ للأستاذ عفيف الأسمر .

والأمر الواجب على كل فرد في الأمة الناهضة أن يتلقى عن فهم وإدراك مقداراً كافياً عن الإسلام ثم يكون التخصص بعد ذلك بما يتناسب وحاجات هذه الأمة ، فلا يجد أي فرد بعد ذلك صعوبة في تجاوب العلم مع الدين أبداً .
والقارئ لما تقدم من فصول عن « نظرية دارون » لابد أن يخرج بأحد أمرين :

١ — إما أن يعتقد أن « نظرية دارون » في التشوُّع والارتقاء وأن الإنسان متطور عن الحيوان ، كذب وباطل .

٢ — وإما أن يعتقد أن « نظرية دارون » ليست محل اتفاق بين المختصين من العلماء ، وأنها لم تصل (ولن تصل) إلى درجة الحقيقة العلمية الثابتة عن العلماء باتفاق .

يعتقد المرء الاعتقاد الأول وهو مستريح النفس لأنه قد علم الحقيقة المخالفة لها من دينه . وأن ما عداه كذب .

ويعتقد غير المسلم الاعتقاد الثاني على الأقل ، لأنه يزن الأمور بميزان العلم فقط ...

ولم نتجاهل هذا الصنف الثاني ، بل قد وضعت هذه المذكرة بياناً وإيضاحاً من جهة العلم الذي يؤمن به .

في الملتقى الدولي حول الثقافة

اقتراح غريب في تربية الجيل :

عُقد في صفر ١٣٩٤ هـ آذار ١٩٧٤ م (٦٠) مؤتمر للمدرسين والمربين لمناسبة « الملتقى الدولي حول الثقافة الذاتية والوعي القومي » وقد ألقى أحد القادة خطاباً في هذه المناسبة بوصفه رئيساً للمؤتمر ، لانعقاده في بلده . وما ورد في

(٦٠) عدد الشهاب اللبنانية ٢٣ من ربيع الأول ١٣٩٤ هـ . ١٥ نيسان ١٩٧٤ م ص ٤

خطابه حسب ما نشرته جريدة الصباح ٣١ / ٣ / ١٩٧٤ ص ٣ العبارات التالية عن المسئولية الفردية ، ومعجزة موسى ، وأهل الكهف :

« وهكذا نرى أن الله منح الإنسان حق الاختيار ، ووفى له إمكانية ذلك ، فالله مطلع على ما جرى وسيجرى ، ولكن الإنسان سيد مصيره يصنعه بنفسه^(٦١) ، فهو مسئول عنه ، ومصدق ذلك قوله تعالى :

﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ﴾ (٦٢) .

وهناك أمور أخرى مثل قصة عصا موسى ، التي ألقي بها فإذا هي حية تسعى ، وقد كان الإيمان بأن الحياة يمكن أن تخرج من الجماد سائداً في أوربا أيضاً ، ولكنه انقرض تماماً منذ عهد باسطور (٦٣) ، ومن هذه الأساطير التي ظلت موضع إيمان الناس في البلاد العربية دهرًا قصة أصحاب الكهف الذين لبثوا رقوداً مئات السنين ثم انبعث منهم الحياة »

وينتقل إلى موضوع الشرك الذي زعم أن الرسول أقره (حاشاه) فيقول :

« وحتى يوحد الرسول كلمة العرب ، ولا ينفهم من دعوته اضطراب إلى قبول كثير من طقوسهم التي لا تختلف في الحقيقة كثيراً عن عبادة الأصنام ، مثل التمسح بالحجر الأسود ، ورجم الشيطان ، ولم يشأ الرسول الذي كان عارفاً بسياسة الناس أن يصدهم دفعة واحدة ، وهم الذين اعتادوا تقديس الحجارة فحطم الأصنام في الكعبة ، وأبقى على الحجر الأسود الذي ظل الناس بعده يقبلونه (٦٤) ... وقد قال لينين في هذا المعنى إن الإنسان لن يقدر على تغيير أمر

(٦١) ينفي بذلك وجود الخالق سبحانه كما تقول العبارة .

(٦٢) سورة الزلزلة ، الآية رقم ٧ .

(٦٣) ناقض عبارته الأولى لمجرد الطعن دون وعى منه ، شأن المتخبطين فكراً .

(٦٤) ونسى ما أخرجه البخاري وغيره عن عمر بن الخطاب معتقداً عدم إسناد النفع والضرر للحجر ولم يعترض عليه أحد من الصحابة ، فدل على موافقتهم وإجماعهم على ذلك .

يسير إلا إذا تحمل أموراً كثيرة تأبأها نفسه « (٦٥) .

ثم انتقل إلى السيرة النبوية فقال :

« وفي سيرة الرسول وقائع لا يذكرها كثير من المشايخ . منها - وقد رويت هذه الواقعة في خطبى - :

إنه لما كان قاصداً مكة لفتحها أدركهم شهر رمضان فقال للمسلمين ، أفطروا كي نصل مكة أقوياء قادرين على الغلبة .. وأدنى من إناء الماء وشرب منه ، وبذلك قدم مصلحة الدولة على العبادات «

« وأثناء غزوة بدر نزل المسلمون بمكان غير مناسب فسألوا الرسول :

هل هذا وحى من الله يا رسول الله أم هو مجرد رأى ؟

فقال : لا ، إنه مجرد رأى .

فقالوا له : إن المكان خطير ، والأفضل أن نكون على مقربة من الماء .

فأجابهم بقوله : أنتم أعلم بأمور دنياكم « (٦٦)

ثم شرح نظرية التدرج والمرحلية فقال :

« ومن هنا يتضح مفهوم التدرج فى إدخال الأفكار والمعلومات الجديدة على عقول بعض الناس إلا بأفكار ومعلومات أكل عليها الدهر وشرب ، وكثير منها أثبت الواقع خطأه . ولو قيل لمعاصرى الرسول : إن البحر سيقل ذات يوم بواخر تزن أطناناً من الحديد (٦٧) ، أو أن طائرات ثقيلة الوزن أيضاً ، وتحمل الناس داخلها ستحلق فى الفضاء ما كانوا ليصدقوا بث حبال المواصلات فى البحر

(٦٥) وأصبح لينين حجة ولا يكذب بينما يسند غير ذلك إلى من يُوحى إليه من السماء .

(٦٦) لا يفهم أن هذه العبارة وردت فى موقف آخر ، فهذا أمر يجهله أمثاله .

(٦٧) ونسى قوله تعالى : ﴿ ويخلق ما لا تعلمون ﴾ وقوله : ﴿ وله الجوار المنشآت فى البحر كالأعلام ﴾ والجوارى هى السفن ، الأعلام هى الجبال .

أو كروية الأرض ، ودورانها بعد أن كان الناس قبله ، وبعده يظنونها منبسطة » .
وقد أورد في خطابه نظريات سياسية وسرداً تاريخياً كان يسوق إليه
الشواهد الإسلامية مما يدل على أن شعب دولته ما زال على إيمانه ، وأن المحاولة
هي استيعاب هذا الإيمان وهز أركانه من الجذور عن طريق الاستشهاد بكتاب الله
سبحانه وسنة رسوله — ﷺ — على أحداث لم تكن ، وتحميلها ما لا تحتمل ،
وهو وإن استشهد بكتاب الله ليس إلا تدرجاً كما قرر ، وكما قرر أستاذه وإلهه لينين
الماركسي ...

وترى أيها القارئ الكريم ماذا يُراد للمدرسين في بقعة ما من الوطن
الإسلامي والعربي ؟ .

كتاب الأحياء :

تحت عنوان « الخلاصة » ذكر الكتاب : (٦٨)

« سواء أكان التطور قد تم بواسطة الطفرة كما يرى « دي فري » أم
بالانتخاب الطبيعي كما يرى « دارون » أم بالاكتساب من البيئة كما يقول
« لامارك » فالحقيقة التي لا جدال فيها هي أن الأحياء تتغير وتتطور وتنوع تحت
تأثير قوى مختلفة ، وعوامل متشابكة ، والأدلة كثيرة واضحة على أن أحياء اليوم
غير أحياء الأمس ، وأن إنسان اليوم يختلف كثيراً عن إنسان الأمس ، وقد عثر
العلماء على بقايا هياكل وجماجم يرجح أنها لسلاسل بشرية بائدة ، تتدرج في
صفاتها من سلاسل قريبة الشبه بالقردة العليا ، إلى سلاسل قريبة الشبه بالإنسان
الحديث ، ولا يصح أن يفهم من هذا ما يقترن دائماً بالتطور من معانٍ تتضمن أن
الإنسان كان قرداً .

(٦٨) ص ٥٥٨ من كتاب الأحياء لطلاب السنة الرابعة الثانوية لمجموعة من المؤلفين . طبعة
أواخر الستينيات بالكويت ، والعجيب أن هذه العبارة قد تغيرت حين أسند تعديل
الكتاب إلى أحد الأستاذة .

• والأصح أن يُقال :

إن الإنسان والقرود ترتد جميعها إلى أصول واحدة ظهرت منذ فجر الحياة ،
وتطورت في اتجاهات وجاء الإنسان الحديث في نهاية اتجاه آخر بحيث يمثل أرقى
الأحياء جسماً وعقلاً وتكيفاً « ١ هـ

هذه أهم فقرة في الكتاب ، وقد كانت لأهميتها في آخر صفحة تحت عنوان
الخلاصة .

وقد بدت الفقرة كما رأى القارئ بالجزم القاطع بعبارتين :

الأولى : فالحقيقة التي لا جدال فيها .

والثانية : والأدلة كثيرة واضحة .

وحين احتاجت الفقرة إلى بيان الدليل الواضح الذي أوصلها إلى درجة
الحقيقة العلمية التي لا جدال فيها ، ذكرت أن هناك هياكل وجماجم يرجح أنها
لسلالات بشرية بائدة .

فالموضوع ترجيح غير يقين ، إذا كان كاتب الكلمة يقصد معناها فعلاً .
فكيف تكون الهياكل في نظر الفقرة لم تصل إلى درجة اليقين ، ولكنها تدل
على اليقين ؟

وقد يناقش الكاتب قائلاً إني أقصد « يعتقد » فعلى أي أساس يكون
الاعتقاد ، وقد وصل الأمر بالنظرية إما إلى الكذب ، وإما إلى عدم ثبوتها علمياً
في دائرة المختصين ..

ولم نقل هذا الكلام الآن جزافاً ، ولكن بعد الجولة السابقة الآمنة ...
ثم ماذا ؟

وتقول الفقرة أيضاً :

« ولا يصح أن يفهم من هذا ما يقترن دائماً بالتطور من معان تتضمن أن
الإنسان كان قرداً » ١ هـ

قد يتبادر إلى أذهان الساذجين من البشر أن العبارة بدأت تعتدل ، وأن خلق الإنسان على نحو خاص دون الحيوان ...

وكل هذا يذوب إذا قرأنا العبارة اللاحقة :

« والأصح : أن يُقال : إن الإنسان والقرد تترد جميعها إلى أصول واحدة ظهرت منذ فجر الحياة » .

فلم تقبل الفقرة أن ترد الإنسان إلى القردة العليا ، بل ردت الإنسان إلى ما دون القردة فقد أثبتت ما أوهمتنا أنها تنفيه ...

فلننظر إلى أي مدى خالفت هذه الفقرة الحقائق العلمية ؟ ثم يدعي : أن ما في الفقرة هو الحقيقة العلمية .

كتاب الأحياء ، وكتاب الجيولوجيا وجهاً لوجه :

علمنا من الفقرة السابقة منهج كتاب الأحياء للسنة الرابعة فما المنهج الذي سار عليه كتاب الجيولوجيا لنفس السنة ؟

وهذه عبارات من الكتاب الأخير بما لها وما عليها :

تحت عنوان « فوائد دراسة الحفريات » ذكر الكتاب (٦٩)

« ... إنها تساعد على إثبات نظرية التطور ، فمن اختبار الحفريات التي تحتويها الطبقات المكونة للقشرة الأرضية ، يتضح أن هناك رقياً دائماً مستمراً في الأنواع من أقدم العصور إلى أحدثها ، فأقدم الطبقات لا تحتوي من الحيوانات ، والنباتات إلا أذناها مرتبة ، وأبسطها تركيباً ، بينما الطبقات التي تليها تحتوي بالتدرج الأرق حتى تبلغ أرقاها في أحدث الطبقات » اهـ

والعبارة الأخيرة كما ترى تثبت دون نقاش أن الحفريات التاريخية تساعد

على إثبات تطور الأنواع عن بعضها ، بما في ذلك الإنسان بالطبع .

ولكن شيئاً جديداً في الكتاب قد ظهر .

الشك في الآثار والاستنتاجات منها ، وأن العلماء لم يعثروا ما يدل على اليقين والحقيقة التي لا جدال فيها ، ولكنهم منتظرون :

تحت عنوان « الإنسان في العصور الجيولوجية » (٧٠)

وسنبقى في شك من حيث تحديد العصر الذي بدأ فيه ظهور الإنسان على الأرض حتى تكشف آثار لا يحيط بها أي شك أو غموض .

واليك عبارة أخرى :

« ولقد كان البحث يكشف لنا من وقت لآخر آثار الإنسان الأول — في مختلف الطبقات ، استنتج منها بعضهم أن بدء حياته على سطح الأرض في غضون العصر الميوسيني ، على أن هذه الآثار لم تكن واضحة للدرجة يقبلها الجميع برهاناً على هذه النتيجة ، ذلك لأن العظام التي قيل إنها إنسانية لم تتوافر فيها كل الخواص لعظام الإنسان ، وقد تكون لنوع راق من القرودة تشبه الإنسان في بعض صفاته » اهـ

أرأيت أكثر من هذا اعتدالاً وأمانة في عرض المعلومات . هنا الآثار غير واضحة ولا تصلح أن تكون برهاناً وفي عبارة كتاب الأحياء الآثار والدلائل واضحة تماماً حتى العظام التي نسبت زوراً للإنسان ...

تذكر العبارة أنها قد تكون أيضاً لغير الإنسان .

وقد افترضت العبارة جدلاً وجود آثار للإنسان الأول ولكنها لم تقل إن الجميع يؤكلون أن هذه الآثار تدل دلالة واضحة على شيء ما بل قالت : إن بعض العلماء وليس كل العلماء .

فأي العبارات صواب إذن ؟؟ !!

(٧٠) ص ١٥٣ من الكتاب نفسه .

نظرية الكوارث

مر بنا حديث العالم الأنثروبولوجي فيركو في كتابه : « النوع الإنساني » عرفنا منه احتمال نسبة بعض الحفريات إلى المرضى أو المشوهين الموجودين في كل عصر أو زمن .

وهذا الاحتمال ينسف الاستنتاجات حتى ولو كانت صحيحة .

ولخوف أنصار التطور من ذكر نسبة المرض والتشويه ذكرت لصالحهم هذه العبارة في كتاب الجيولوجيا (٧١)

« وقد أقامت مشاهدات دارون ، وسبنسر وغيرهم من أعلام المفكرين في القرن الماضي البرهان على فساد نظرية الكوارث (٧٢) ، فأثبتوا أن الحياة منذ خلقتها الأولى على وجه الأرض هي دائماً مستمرة ، ولكنها في تغير وتحول بطيء ومستمر ، وأن من الأنواع البدائية البسيطة الأولى نشأت تدريجياً أنواع أرقق فأرقى حتى نشأت أرقق أنواع المخلوقات ذات النظام الجسمي المركب » اهـ وتذكر العبارة هنا أموراً سبق أن نفتها .

عبارة تنفي وجود برهان ، وأخرى تثبت وجود برهان

وإذا كان من برهان فأين هو ؟ وما مقدار درجته من الناحية العلمية ؟

الخلق الخاص :

المقصود بالخلق الخاص كما مر أن الأنواع خلقت خلقاً خاصاً مستقلاً غير متطور عن نوع آخر ، فنوع الإنسان خلق خلقاً مستقلاً غير متطور عن

(٧١) ص ١٣ من الكتاب نفسه .

(٧٢) . نظرية الكوارث جاءت هكذا مبهمة ، وإن كانت تدل بوضوح إلى أن ما حدث للأمم السابقة من عقاب بالخسف والصعق كذب في رأيهم ، وينقل المؤلفون هذا في صورة الموافقة ، والدعوة والتأكيد . فتأمل خطورة ذلك .

الحيوان ، وهذا هو الموافق لما سبق من البحث ، وهو الذى قرره الإسلام ، وصار .
موضوع الخلق الخاص بناء على هذا حقيقة وليس نظرية خاضعة للصواب
والخطأ ...

وقد وردت عبارة (٧٣) في كتاب الأحياء تتضمن جانبين :

١ — الجانب الأول عقيدة علماء التطور .

٢ — الجانب الثاني الخلق الخاص .

وإليك العبارة التي وردت في الكتاب في بداية عرضه لنظرية التطور
العضوي :

« ولا بد لنا من الإشارة إلى أن الكثير من العلماء ، وأنصار نظرية التطور
هذه مؤمنون بالله ويقدرته ، ويرى هؤلاء أن قدرة الله تتجلى في هذا النظام الرائع
الذي بنيت الحياة على أساسه ، والذي كان المنظم للتطور بتفاصيله ومبناه ، وهم
يرون أن أنصار فكرة الخلق الخاص إنما يخطئون عندما يتلمسون قدرة الله في خلق
كل نوع على حدة ، لأن كثيراً من هذه الأنواع نماذج فاشلة ، انقرض كثير منها .
وبقي بعضها متعلقاً بأهداب البقاء » اهـ

وأصبح عرض قضية الخلق الخاص على أنها فكرة ، وليست ديناً حتى
يسهل ابتلاعها ، وبالرغم من معارضة العبارة للكثير من علماء التطور أنفسهم ..

وكان لابد على الكتاب بيان فكرة الخلق الخاص كما قال . حتى يوضح
كل جانب باعتدال ، ولم يرد في الكتاب عن بيان الخلق الخاص غير هذه
الأسطر القليلة وهي :

« ويؤمن أنصار هذه الفكرة بأن الله جلّ وعلا خلق الحياة ، وخلق كل
نوع من أنواع الكائنات الحية خلقاً خاصاً مستقلاً بشكله وتركيبه ، بحيث إن
الأنواع هذه كانت ولا تزال ثابتة لا تتغير ولا تتطور ، وكل نوع منها مستقل عن

(٧٣) ص ٥١٥ من الكتاب نفسه .

أي نوع آخر وغير مرتبط به بأية صلة » اهـ
ولأن خلق آدم مشهور ومعروف لا يمكن إذن لأمثال هؤلاء أن يذكره ،
لأنهم بذلك يثيرون عامة المسلمين ، فعليه إذن بالكلام العام ، الذي يمكن تفسيره
فيما بعد بالتفصيل ...

التشابه والاختلاف :

سبق في المذكرة فصل المقارنات التشريرية بين الإنسان والحيوان ، وظهر
الفرق بينهما ...

ومنذ أن كانت الخليقة وكل إنسان يعلم : أن الحيوان يبصر بعينه كما يبصر
الإنسان بعينه ، وأن العينين في رأس كل منهما .. وأن لكل أذنين وأطرافاً
أربعة ... والكل يأكل ويهضم الأكل في الأمعاء ، والكل يتنفس ولكل رثان ...
هذه أجزاء يتشابه فيها الحيوان والإنسان ...

فمسألة التشابه هذه ليست خفية بل ظاهرة منذ فجر الحياة ، ولم يأت فرد
ليقول إن هذه التشابه يعني تطور واحد عن الآخر ...

ولابد لمدعي التطور أن يعقلوا هذا التشابه بين الإنسان والحيوان حتى
يثبتوا ما يزعمون ، فإذا ما ذكروا هذا التشابه الواضح المألوف للناس لم يستطيعوا
أن يوهمو الناس بحقيقة التطور ،

وجنحوا إلى التشابه الخفي ، وتركوا التشابه الظاهر دون سبب معقول ...
ووضعوا أساساً مسبقاً لتفكيرهم في هذا السطر المركز من كتاب الأحياء :

« كل هذا (أي التشابه) لا يمكن تفسيره إلا إذا قبلنا نظرية التطور
العضوي » (٧٤)

وضرب الكتاب أمثلة لهذا التشابه متناسياً التشابه الظاهر ذاكراً التشابه

(٧٤) ص ٥٤٠ من كتاب الأحياء .

الخفي ، وتلك عبارته :

« فالزائدة الدودية عند الإنسان ، وآكلات اللحم هي عضو ضامر أثري ، بينما نجد لها كبيرة فعالة عند الثدييات آكلات العشب » « والفقرات العصبية عند الإنسان ما هي إلا بقايا ذنب ، ويدل على ذلك تعدد الفقرات الذنبية في الجنين ، وولادة بعض الأطفال بذيول قصيرة (يمكن استئصالها بعملية جراحية) » (٧٥) .

فليست دلالة تقارب الزائدة الدودية في الإنسان وآكلات العشب بأكثر دلالة من توافق العين في كل ، ووحدة الخلق ظاهرة في كل شيء ، لأن الخالق سبحانه واحد ، بل هناك التوافق بين أصغر شيء في الوجود ، وأكبر شيء في علم البشر ...

هذه الذرة التي تكمن في وسطها النواة ، وتدور الكهارب أو الألكترونات حولها بانتظام ، مهما اختلف عدد الكهارب تشبه وتوافق الشمس وتدور حولها عدة من الكواكب ... فالتوافق ظاهر ، بل ويدل على هذه الحكمة . وحدة الخلق لأن الخالق واحد ﴿ لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا ﴾ (٧٦) .

وكان الذي يجب حين يؤلف هذا أن ينظر إلى ما يرد إلينا نظرة علمية فاحصة ، تناقش ، ولا تسلم دون دليل بحجة أنها واردة من الغرب فقط ، ويرفض غير الشخص بحجة أنه من بيئتنا فقط أو لسبب أشد من ذلك .

وقد ذكرت الكثير عن هذا الغرب المعارض لما يذكرون من آراء حتى يراجع المؤلفون أنفسهم في اعتقادهم لهذه النظريات ، وعرضهم لها في كتب تعليمية .

ولعلمهم أيضاً قد سمعوا من الإذاعة البريطانية القسم العربي جواباً عن سؤال حول نظرية دارون وأصل الإنسان ...

(٧٥) ص ٥٤٥ من كتاب الأحياء .

(٧٦) سورة الأنبياء ، الآية رقم ٢٢ .

وكان من الجواب :

أن نظرية دارون وأصل الإنسان ليس عليها دليل ثابت ، وأن الصحيح أن الإنسان خلق خلقاً مستقلاً .

وقد سمعت هذا بأذني منذ سنة تقريباً أي في عام ١٩٦٩ .

كتاب الأحياء الجديد

وإليك أيها القارئ الكريم ما سجل في كتاب الأحياء بعد إعادة طبعته وتعديله ، وذلك في آخر موضوع التطور (٧٧) .

نظرة في أدلة التطور :

نورد بعضاً من أقوال معارضي نظرية التطور ، وذلك لترك الباب مفتوحاً أمام أفكار الطلاب كما ذكرها أصحابها .

١ — دليل التوزيع الجغرافي :

يرى معارضو نظرية التطور أن هذا الدليل لا يعتبر دليلاً ، وهم يقولون بأنه إذا كان الأصل الحيوي الأول واحداً وكانت البيئة واحدة في منطقتين متباعدتين ، كان على نتائج التطور أن تكون واحدة وهذا عكس ما ذكرناه ، وما نجده من اختلاف بين أنواع الحيوانات الموجودة في بيئات متشابهة مناخاً ، ومتباعدة جغرافياً . غير أن علينا التثبت من أن البيئة كانت دوماً واحدة في المنطقتين الجغرافيتين المتباعدتين ، إذ يحتمل أن التشابه الحالي حديث العهد نسبياً .

٢ — دليل التصنيف :

إن التشابه هو الأساس الذي قام عليه التصنيف . ولكن التشابه ليس دليلاً على النشوء ؛ ذلك لأن بين الأنواع هوة سحيقة لا يمكن إغفالها ، هي مشكلة

(٧٧) الطبعة الرابعة ١٤٠٠ — ١٤٠١ هـ ١٩٨٠ — ١٩٨١ م ص ١٩٤ ، ١٩٥ .

العمق بين الأنواع ، وهناك من العلماء من يتخذ أسساً أخرى للتصنيف غير التشابه الظاهري ، حيث إنه يرى أن التصنيف يجب أن يقوم على شروط عامة هي التمايز والتوازن ومطابقة الواقع .

٣ — دليل الأجنة :

يقول العالم تيشوب الأخصائي في علم الأجنة (إن الصور الصحيحة للأجنة والشبه الظاهري ، لا يكفي لاعتبار ونشوء نوع من نوع) ثم يشير إلى دور الجينات الكبير . كما أن البعض يذكر أن هيكل زور ٨٪ من صور الأجنة التي عرضها لإكمال الشبه ، واعترف فيما بعد بهذا التزوير.. ثم إن جميع أنواع البيض تبدو متشابهة في مظهرها الخارجى ولكن فيها من الاختلاف الكيميائي الحيوي ما هو أبلغ بكثير من التشابه الخارجى . ويقولون بأن الشبه الخارجى دليل الوحدة في التخطيط أكثر مما هو دليل النشوء .

٤ — دليل علم الأحافير :

يقول العالم كونانت (إن مدى انطباق المفاهيم المستعملة في علم الأحافير على المفاهيم المستعملة في الكيمياء الحيوية وملاءمتها مسألة ما زالت تحت البحث) ثم إن هناك كثيراً من الأحافير ما زالت تعتبر معضلات في تفسيرها تطورياً بل إن هناك شكاً في تكوينها .

ثم إن القول بالحلقات المفقودة وتركيب الأجزاء من مناطق وحيوانات مختلفة هو المتبع في كثير من الأحافير . وعلة الأحافير الأساسية أن كثيراً منها مفقود وما حفظ كأحافير لا يمثل إلا جزءاً يسيراً من أعداد تلك الأنواع التي عاشت ولم تحفظ كأحافير .

٥ — دليل التشرح المقارن :

يقول العالم آرثر. كيث — أحد علماء التطور (لقد أحصيت الصفات المشتركة بين الإنسان والقرود فوجدتها لا تتجاوز ٨,٧٪) . فما نصيب

الـ ٩١,٣٪ من الصفات غير المتشابهة ؟ .

ثم إن القول بأن الأعضاء الأثرية عديمة الفائدة قول فيه رأى .

كتاب التاريخ الطبيعى للصف الثالث الثانوى بمصر .

تحت عنوان الآراء الحديثة فى التطور قال :

« قد رأيت أن الأدلة المتنوعة تشير إلى حدوث التطور العضوى فى الأحياء ، ولكن الآراء تختلف فى كيفية حدوثه ، كما ظهر لك من استعراض بعض الآراء الرئيسية التى اجتهدت فى فهم طريقة حدوث التطور ، وعلى الأخص اللاماركية والداروينية . ولكن آراء المفكرين والعلماء هى أيضاً قد تطورت ، فأدخلوا على الآراء السابقة تعديلات حتى أنها أصبحت توصف باللاماركية الجديدة والداروينية الجديدة .

وكان دارون ملتفتاً إلى التنوع والتباين فى أفراد النوع الواحد ، ولكنه لم يكن عارفاً بالأسس الوراثية التى اكتشفها مندل والتى لم ينتبه العالم إلى صدقها وإلى أهميتها فى أول الأمر . ثم أن تقدم العلم بجهاز الوراثة من كروموسومات وجينات ، وعلى الأخص من خلال أعمال مورجان ، ثم بحدوث الطفرات ومغزاها ، من خلال أعمال دفريس ومورجان وغيرهما ، ثم بالآراء الحديثة عن الأحماض النووية وشفرة الوراثة . هذا كله قد جعل لعلم الوراثة دوراً هاماً فى فهم طريقة حدوث التطور ، ولكن الذى يجب أن ننتبه إليه هنا أن التطور الحقيقى ، المؤدى إلى ظهور الأنواع الجديدة ، إنما يحدث فى الجماعات لا الأفراد ، ولذلك كانت دراسة الوراثة فى الجماعات لها أهمية فى هذا

المجال » (٧٨) .

العالم يكرم عالماً يقول بالخلق الخاص :

من هذا العالم ؟

إنه مفخرة مصر ، والعرب ، والمسلمين .

إنه الدكتور زغلول النجار .

١ — حصل على بكالوريوس العلوم بمرتبة الشرف من جامعة القاهرة ٥٥ وكان أول دفعته فمُنحته الجامعة جائزة مصطفى بركة للجيولوجيا عن السنة نفسها .

٢ — ثم حصل على درجة دكتوراه الفلسفة في الجيولوجيا من جامعة ويلز البريطانية ٦٣ وأوصت لجنة الممتحنين بتبادل الرسالة مع جامعات العالم ونشرها بالكامل .

٣ — منحته جامعة ويلز درجة زمالتها سنة ٦٣ كما فاز بدرجة زمالة روبرستون للأبحاث فيما بعد الدكتوراه ، وواصل أبحاثه عليها من سنة ٦٣ إلى سنة ٦٧ وهي أعلى درجة زمالة في الجامعات البريطانية ، وتمنح مرة كل سنة للمبرزين من العلماء في مختلف مجالات العلوم البحتة والتطبيقية .

٤ — له أكثر من ثلاثين بحثاً منشورة وتحت النشر في بريطانيا والولايات المتحدة والدايمرك وفرنسا وسويسرا وألمانيا وروسيا ، وقد نشر له المتحف البريطاني أحد مؤلفاته في عدد تذكاري خاص من أكثر من ثلاثمائة صفحة وإحدى

(٧٨) التاريخ الطبيعي للصف الثالث الثانوى . تأليف دكتور حسين محمد سعيد ، ودكتور كمال واصف ، ودكتور عدلى كامل فرج ، صالح العقيفى ، جمال الدين لطفى .
دكتورة فرخندة حسن ، سعد السكرى . مراجعة دكتور عبد الخالق حلمى محمد .
طبعة ١٩٨٠ ص ٢٢١ .

وأربعين لوحة ، وقد طبع ذلك المؤلف مرات باللغة الانجليزية كما تُرجم إلى الألمانية والروسية ، وعلق عليه في كثير من المجلات العالمية ، وقد منحته الجمعية الجيولوجية بلندن جائزة أحسن بحث نُشر في بريطانيا سنة ١٩٦٦ ووسام مشيزون عن نفس السنة .

كذلك نال أحد أبحاثه وقد نُشر بمجلة الجمعية الأميركية لجيولوجي البترول جائزة أحسن نشر بالمجلة سنة ١٩٦٦ .

وللدكتور النجار نظرية جديدة في علم طبقات الأرض تتعلق بطرق تقسيم الصخور (٧٩) .

وإن كنت أذكر كل هذا التعريف لأطمئن الكثير من القراء حول ما أنقل عنه من الكلام .

ألقى الدكتور زغلول النجار محاضرة عن طبقات الأرض والتدرج في الخلق .

فما قال :

إن الله سبحانه وتعالى أول ما خلق من الكائنات الحية ، النبات وسبق خلق النبات خلق الحيوان لأن الحيوان يحتاج لاستمرار وجوده إلى النبات فكان خلق النبات أسبق لهذه الحكمة . وكان خلق الإنسان بعد خلق الحيوان والنبات ، لأن حياة الإنسان تحتاج لاستمرارها إلى وجود الحيوان والنبات ليسخر الحيوان ويأكله مع النبات ، وما يخرج من ثمار ...

ولو كان العكس لما صح ...

وكان في المحاضرة أشياء أخرى قيمة مثل :

١ — عظمة الله بين قوة التكبير وقوة التصغير .

(٧٩) مجلة المجتمع الكويتية ت ٤ - ٨ - ٧٠ ، وقد سمعت مقدماً لإحدى محاضرات الدكتور ويذكر الكلام نفسه أمامه .

٢ — كالذكر والأنثى البروتون والألكترون .

٣ — نظرية جديدة في أصل الأرض .

٤ — دورة الصخور والاتزان الأرضي .

٥ — السطح والعمق حركة لا تهدأ .

٦ — المجموعات النجمية ...

٧ — دورة الهواء معجزة . الخ ...

٨ — ما أحوج قلوبنا للتأمل .

وذكر تحت العنوان الأخير :

« وهنا يقف الإنسان الذي لا يتعدى متوسط عمره في أفضل الأحوال ٣٥ عاماً يقف مشلولهاً أمام أرض عمرها ٥٠٠٠ مليون سنة ، وفوق تراب تكونت ذراته منذ أكثر من ٧٠٠٠ مليون سنة ولسانه يردد :

﴿ لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ (٨٠) .

وتجمع الناس حول المحاضر بعد أن ختم محاضراته ، وذهبت إليه أيضاً لأستوضحه عن موضوع شغلت به ، نظرية دارون ، أو تطور الإنسان عن الحيوان ...

فقلت له سائلاً :

لم تعرفنا عن خلق الإنسان الأول ...

أكان خلقاً مستقلاً عن الحيوان ؟

أم، كان متطوراً عن الحيوان كما يقول علماء التطور ؟

(٨٠) سورة غافر ، الآية رقم ٥٧ .

فقال :

- إن العلماء إلى الآن لم يستطيعوا أن يثبتوا تطور الإنسان عن الحيوان ،
ولا زالت هناك فجوة هائلة جداً بينهما ...
- وأن الذى أعتقده ، أن الإنسان الأول كان خلقاً مستقلاً أوله آدم . إه .
- ما رأى المؤلفين إذن بعد هذا الكلام من ذاك الرجل ؟ .
- وما الذى كان سيحدث لو كلف أمثال الدكتور بتأليف الكتاب ؟ .

القرآن والعلم :

فى تاريخ ١٩/١٠/١٩٨١ بتلفزيون الكويت قدم برنامج القرآن والعلم
تقديم الدكتور أحمد شوق إبراهيم الطبيب الباطنى بالمستشفى الأميرى بالكويت
موضوع : بدء الخلق .

وقد استضاف فى هذه الحلقة من البرنامج الدكتور : أحمد الكبارينى أستاذ
الخلايا بجامعة الكويت ، بكلية العلوم .

وبما استطعت أن ألتقطه من الحوار ، والعرض :

- ١ — أن ما يُسمى صراعاً هو فى الحقيقة توازن ، وليس بصراع .
 - ٢ — فكرة الخلق التلقائى خاطئة (أى دون خالق) .
 - ٣ — يجب أن تدرس نظرية التطور على أنها نظرية ، كنبذة تاريخية ،
ولا يبنى عليها حقائق أخرى ؛ لأن ما يبنى على الخطأ خطأ .
 - ٤ — بالبحث عن اليرقات تبين أن الحياة أتت من الحياة .
- وظهر فى البرنامج بوضوح :

أن الإنسان خلق خلقاً مستقلاً ، وأن آدم هو أول المخلوقات وأن الإنسان
والكون كله من خلق الله سبحانه .

مَا الْهَدَفُ مِنْ إِشَاعَةِ نَظَرِيَّةٍ بَاطِلَةٍ ؟

نعم ما الهدف الذي يكمن وراء ذبوع وانتشار هذه النظرية على الرغم من عدم ثبوتها ، أو عدم الاتفاق عليها من المختصين ؟

ولابد أن نعتمد في ذلك على نصوص قالها عدو لنا والذي يرجع إليه الدور الكبير والأول في انتشار « نظرية دارون » وسنتبين من مناقشة هذه النصوص الغايات والأهداف .

وردت في البرتوكول الثاني من الخطر اليهودي أو برتوكولات حكماء صهيون هذه العبارة : (٨١)

« لا تتصوروا أن تصرّجاتنا كلمات جوفاء ، ولاحظوا أن نجاح دارون ، وماركس ، ونيتشه قد رتبناه من قبل ، والأثر غير الأخلاقي لاتجاهات هذه العلوم في الفكر الأممي (غير اليهودي) سيكون واضحاً لنا على التأكيد » .

وتمالكك نفسك أيها القارئ العزيز لتعرف أكثر من هذه السطور المتقدمة .

ينقل كتاب التطور والثبات عن البروتوكولات هذه العبارة (٨٢)

« إن دارون ليس يهودياً ، ولكننا عرفنا كيف ننشر آراءه على نطاق واسع ، ونستغلها في تحطيم الدين » اهـ

أرأيتم الهدف الكامن من انتشار نظرية على الرغم من بطلانها ؟

بذل اليهود جهود الجبارة لتوسيع الهوة التي قامت بين الدين والداروينية ، على أمل تحطيم الدين في النهاية ، تحقيقاً لحقدهم القديم ضد غير اليهود عامة ، وحقدهم على المسيحيين بصفة خاصة ، من أجل ما لاقوه منهم من اضطهاد .

(٨١) ص ١٢٣ ، ١٢٤ الطبعة الرابعة .

(٨٢) ص ٣٣ من كتاب التطور والثبات لمحمد قطب .

واستغلت اليهودية العالمية نظرية دارون أبشع استغلال ، استغلته على يد ثلاثة من أكبر علمائها ، قاموا بصياغة الفكر الأوربي كله في ميدان الاقتصاد ، وعلم النفس والاجتماع ، أخطر ميادين ثلاثة في عالم الفكر ، على أساس مُعادٍ للدين ، بل محطّم لكل مفاهيمه .
أولئك هم :

ماركس ، وفرويد ، ودوركهيم (٨٣)

ومن مقال للأستاذ العقاد ... قال ما نصه : (٨٤)

« إن إصبعاً من الأصابع اليهودية كامنة وراء كل دعوة تستخف بالقيم الأخلاقية ، وترمي إلى هدم القواعد التي يقوم عليها مجتمع الإنسان في جميع الأزمان .

فاليهودي كارل ماركس وراء الشيوعية التي تهدم قواعد الأخلاق والأديان ،

واليهودي دوركهيم وراء علم الاجتماع الذي يلحق نظام الأسرة بالأوضاع المصطنعة ، ويحاول أن يبطل آثارها في تطور الفضائل والآداب .

واليهودي — أو نصف اليهودي — سارتر وراء الوجودية التي نشأت (٨٥)

(٨٣) ص ٣٤ من التطور والثبات .

(٨٤) عن مقدمة الخطر اليهودي للأستاذ محمد خليفة التونسي ص ٧٧ الطبعة الرابعة ، جريدة الأساس ٢١ / ٤ / ١٩٥٠ م .

(٨٥) وسارتر هو الذي سار في مظاهرات صيف ٦٧ في فرنسا تحت هذا الشعار « قاتلوا المسلمين » وخلال أربعة أيام تبرعت الجماهير في فرنسا بمليار فرنك . ونشرت الصحف الشعار في صدر صفحاتها واللافتات في المظاهرات ، وعلى صناديق التبرعات ، وحين عوتب الفيلسوف الوجودي . لم يجد ما يعتذر به إلا أنه أخطأ لمجرد أنه عرف بوجود مسيحيين عرب اه . حديث بالأهرام في ٣ / ٧ / ١٩٦٧ م عن كتاب « الحق المر » مقالاً في الجنس الوجودي ، وحين قدم سارتر وعشيقته المومس سيمون دي بوفوار تلبية لأسرة تحرير الأهرام بعد هذا التاريخ ،

معززة لكرامة الفرد فجئح بها إلى حيوانية تصيب الفرد والجماعة بآفات القنوط والانحلال .

ومن الخير أن تدرس المذاهب الفكرية ، بل الأزياء الفكرية كلما شاع منها في أوربة مذهب جديد ، ولكن من الشر أن تدرس بعناوينها وظواهرها دون ما وراءها من عوامل المصادفة العارضة والتدبير المقصود « انتهى كلام العقاد . ويعقب المترجم بعد نقل النص السابق بقوله :

« وقل مثل ذلك في العلامة سيجموند فرويد اليهودي الذي هو من وراء علم النفس ، يرجع كل الميول والآداب الدينية ، والخلقية والفنية ، والصوفية والأسرية إلى الغريزة الجنسية كي يبطل قداستها » اهـ كلام التونسي .

نصوص خطيرة تين بداية الخيط والمؤامرة ، والوسيلة التي استغلت ... وهذا نص آخر يبين السلوك اليهودي في منتصف المؤامرة .

« في سنة ١٩٠٠ دخل قره صوه أفندي على السلطان بفضل الفريق عارف بك ، وأبلغه أنه موفد من قبل الجمعية الصهيونية ، وأنه قادم يطلب إليه إعطاء تلك الجمعية الأراضي الواقعة في المثلث القائم بين يافا وغزة والبحر الميت مقابل خمسة ملايين ليرة ذهبية عثمانية ، تدفعها الجمعية الصهيونية هدية إلى الخزينة السلطانية الخاصة ، وعشرين مليوناً تعرضها الجمعية إلى الحكومة دون فائدة لمدة تعيينها الحكومة ، فغضب السلطان وطرده من حضرته .

(وقد كان السلطان عبد الحميد قد أصدر فرماناً في ١٨٨٨ بمنع الهجرة الجماعية اليهودية إلى أراضي الدولة العثمانية ، ومنها فلسطين طبعاً ، كذلك قرر عدم السماح للحجاج اليهود بالبقاء أكثر من ثلاثة أشهر في فلسطين) .

وعلى الأثر أُلّف اليهود جمعية سرية أكثر أعضائها من اليهود المعروفين

أعلن عن الندوات . الراديو ، والتلفزيون ، ووفد إليها أساتذة مصر ، وسيدات مصر آتخذ . عن كتاب الإسلام في وجه الزحف الأحمر للشيخ محمد الغزالي ، ص ٣٤ ، ٣٥ طبعة المختار الإسلامي الخامسة ١٣٩٥ هـ ١٩٧٥ م .

بالدوغة ، والدوغة كما هو معروف لقب يطلقه الأتراك على جماعة اليهود الذين هاجروا من أسبانيا واستوطنوا « سلانيك » وهم طائفة يتظاهر أفرادها بالإسلام مع احتفاظهم باطناً بالدين اليهودي (وبمجرد نجاح المؤامرة ، واستيلاء تنظيمهم على السلطة ، أعلنوا يهوديتهم التي أخفوها أربعة قرون ... فتأمل)
ومنهم جاويد بك ، وبعض كبار رجال الاتحاد والترقي .

فاتصلت بأحرار الترك .. ودخل أعضاؤها حزب الاتحاد والترقي ...
وتعاونوا مع كثيرين من شبان الضباط كأنور ونيازي ، وكانت لهم اليد الطولى في الانقلاب الثاني ، وخلع عبد الحميد ، وتبلغ المأساة الذروة .

ومما يؤسف له أن الأحرار لم يختاروا لتبليغ قرار الخلع إلى عبد الحميد غير عمانوئيل قره صو أفندي زعيم يهود « سلانيك » الذي طرده عبد الحميد (٨٦) هـ
وهذه العبارة التاريخية التي تصور لقاء اليهود في منتصف الطريق ، تبين إلى أي مدى استغلت الآراء والأفكار في تحطيم الدين .

ألا ما أبشع هذا الاستغلال !

وما أبشع أن نكون جهلاء بحقيقة الدور الذي تلعبه اليهودية في تزييف الحقائق ، ونشر ما يبعث على الفساد والانحلال .

وما أبشع أن نقف نحن اليوم ضد عبد الحميد ، ومع عمانوئيل قره صو !!
ويمكن من خلال هذه القصة التي ذكرت أن نعلم :

(٨٦) هامش كتاب خطر اليهودية العالمية على الإسلام والمسيحية ص ٣٧٩ ، ٣٨٠
للأستاذ عبد الله التل ، وصرح المؤلف بأن القصة نقلتها أيضاً مجلة فلسطين البيروتية بعددها رقم ٣١ من مذكرات السيد فخري البارودي ..
وذكرت العبارة أيضاً في كتاب : القومية والغزو الفكري لمحمد جلال كشك
ص ٢٢٤ ، ٢٢٥ وقد صرح بأنه نقل العبارة من كتاب « خطر الصهيونية على الإسلام والمسيحية » وذكر موجز العبارة على غلاف مجلة المجتمع ٤ - ٨ - ١٩٧٠ .

لماذا يشيع في مجتمعاتنا الحقد الدائم والكراهة المستمر لكلمة خليفة وبخاصة إذا وصفت بكلمة عثماني ، دون دراية بأن الوضع الذي أزال هذا الخليفة الذي لم يرض بأي حال أن يوطن اليهود في فلسطين ، هو الذي اعترف بوجود إسرائيل على أرض فلسطين .

وبذلك نفس الحقد اليهودي عن نفسه ، غير البعيد عن الأبعاد الحقيقية لقضيته ، واستطاع أن يغير مفاهيم الأشياء بالتزوير والتزييف ... والأمة الناهضة التي تريد لنفسها الخير عليها أن تكشف التزوير الذي يحاك ضدها ، حتى تتبين الخير من الشر .

مغالطات :

قالوا :

إن المبادئ الجديدة المعتمدة على فكرة التطور الدارويني تبني الرجال الأقوياء الذين تعتمد عليهم دولهم .

وقالوا :

إن الدين مخدر للشعوب ، وأفيون الشعوب .

وقالوا في تعريف الإسلام : (٨٧)

إنه « يبرز الظلم الاجتماعي ، ويصد الناس عن الكفاح الثوري ، ويدفعهم إلى انتظار بليد للسعادة في الآخرة » اهـ

إن التطبيق للفكر اليهودي بالحرف ، حتى في تعريف الإسلام ، في معجم رسمي دولي .

(٨٧) المعجم الفلسفي المكتوب من وجهة النظر الشيوعية (موسكو ١٩٦٧) نقلاً عن هامش كتاب ماركسية القرن العشرين لسكوتير الحزب الشيوعي الفرنسي للمترجم نزيه الحكيم ص ٢٥ .

وصارت الدعاية المزيفة البعيدة عن الحقائق ضد الإسلام على أوسع نطاق ،
تلعب اليهودية الدور الأكبر ظاهراً أو باطناً فيه .

وبعد هذا التزييف ما الذي صار ؟

ضياح .

كان الضياح .

ففي عام ١٩٦٢ صدر تصريح من خروشوف قال فيه :

« إن الشباب قد بدأ ينحرف ، ويفسده الترف وإن من بينه
« عصبجية وصيحا » وأنذر بأن معسكرات جديدة قد تفتح في سيبيريا للتخلص
من الشباب المنحرف ؛ لأنه خطر على مستقبل روسيا » (٨٨) .

خير مفعج للكثيرين لأنهم لم يتصوروا مثله

ألقى نيكيتا خروشوف عام ١٩٥٦ بياناً قيل عنه « فضيحة البيان السري »
فأيقظ به الكثير من الماركسيين أمثال روجيه غارودي ، فجعلته — كما قال عن
نفسه ، وعن بعض زملائه في مقدمة كتاب « ماركسية القرن العشرين » لروجه
غارودي سكرتير الحزب الشيوعي الفرنسي في أوائل الستينيات . قال روجيه في
مقدمته للكتاب : لا يجمد ولاءه السابق للماركسية ؛ لأنه يعود عن التور بل
ينطلق إلى البحث عن ملاذٍ ليقينه من جديد ، فعل ذلك ، لا عن تصميم
بألا يؤمن بشيء بعد الآن ، بل عن تصميم بألا يؤمن بعد الآن إلا وعيونه مفتحة ،
ولم يكن أمامه من سبيل إلى هذه العيون المفتحة إلا النقد الذاتي أولاً ، لمسئوليته
الخاصة ، وللقلب القيصري الذي تجمدت فيه الفلسفة الماركسية ، وإلا النظر
الإيجابي الواعي إلى ما لدى الآخرين من جديد جدير بالنقاش كانت نواميس
« البابوية الستالينية » قد أصدرت مراسيم تحريمه بتهمة « البورجوازية » أو
« الرجعية » أو « الانحطاط » لم يكن من سبيل إلى العيون المفتحة إلا الحوار (٨٩) .

(٨٨) مقدمة المترجم نزيه الحكيم ، في ١٩٦٧/١٠/٢٢ ص ١٧ من المقدمة .

(٨٩) المرجع السابق .

وقال أيضاً :

« وإن كنت وأنا أكتب هذه الدراسة واعياً أشد الوعي لواجبي — كفيلسوف — تجاه حزبي وتجاه مكتبته السياسي الذي يشرفني ، ويزيد من مسئوليتي أن أكون أحد أعضائه .

ذلك أن قبول آراء ستالين في الفلسفة دون تمحيص لم يكن مجرد ضلال نظري ، إذ أن تأييد أحكام الإدانة الصادرة باسم معتقدات الدين الرسمي (أى دين الماركسية) كان ييسر مهمة أولئك الذين يمنعون فلاناً من الكتابة أو التصوير ، أو يجرمونه حق الحياة ، وحتى لا يتكرر ذلك أبداً من جديد لا بد لنا من القيام بمجهود جماعي ، وبالتالي علني ، نستكشف به مصادر الضلال ، ونكشف عنها ؛ لنستطيع أن نستعيد في هذه المرحلة الجديدة ، روح الماركسية الأصيلة (٩٠).

وفي النصين السابقين نرى :

١ — اعتراف روجيه الصريح باتخاذ الماركسية مذهباً رسمياً ، وعضويته لحزبه .

٢ — أن بيان خروشوف في ١٩٥٦ أبرز الفضائح التي تمت باسم الماركسية في عهد ستالين .

٣ — أن ستالين أغلق العيون ، وحرّم النقد مستغلاً مصطلحات ماركسية ، كالرجعية ، وأول ما تنصب هذه الكلمة عندهم « الدين » فقد صار مشهوراً لديهم « الدين أفيون الشعوب » فصاروا هم في نظر روجيه أفيون الشعوب بضلالهم ، وحرمان الناس حق الحياة .

٤ — تهاوى الفكر الماركسي بين أبنائه على أى نمط من الأنماط ، وأن هذا التهاوى لحق نفسيات القادة في الدين الماركسي .

(٩٠) مقدمة المؤلف روجيه غارودي ص ٤٠ من الكتاب — طبعة دار الآداب بيروت ١٩٦٧ م .

هـ — وأن هذا التهاوى لا يمكن أن يثبت من الناحية الفكرية أمام دعوة الإسلام الحق — إن شاء الله .

هذا وفى تاريخ ١٩٨٣/١/١١ نشرت صحيفة القبس الكويتية فى العدد رقم ٣٨٣٠ ص ٣ ما نصه :

« روجيه غارودى يصل اليوم ، ويحاضر السبت عن الإسلام والحضارة »

... يصل إلى البلاد اليوم قادماً من دولة قطر المفكر الفرنسى المعروف روجيه غارودى فى زيارة للكويت تستغرق أسبوعاً ، يلتقى خلالها مع عدد من كبار المسئولين ، والفعاليات الدينية والثقافية ، كما يلقي محاضرة بعنوان : الإسلام ، والحضارة الساعة السادسة مساء السبت المقبل ٨٣/١/١٥ بقاعة الاحتفالات الكبرى بمجمع الإعلام ، يحضرها رجال الدين ، والسياسة ، والفكر ، والمهتمون بالثقافة والإعلام .

(٩١) وقد أبدى الترحيب الحار بزيارة الأخ المسلم المفكر الكبير للبلاد ، وقيل : إنه يحل ضيفاً عزيزاً بين إخوته فى الإسلام ، وأعلن عن الثقة بأن العطاء الفكرى للأخ المفكر الكبير سيثرى المكتبة الإسلامية — إن شاء الله — وسيكون له دور بارز بالفكر الإنسانى وقد أعد له برنامج زيارة حافل يطلع من خلاله المفكر الكبير على معالم البلاد الإسلامية والتاريخية ، والتراثية . اهـ

ترى أهذه السنوات الفائتة ازداد فكر روجيه اتزاناً ، وعمقاً ، وفهماً صحيحاً للإسلام ، وعلم تطويع الإسلام للماركسية ؟؟ هذا ما نأمله ، ونرجوه له ، ولكل الناس .

(٩١) ومن الغريب أن « خالد محيى الدين » أحد قادة حركة الجيش المصرية ، حين قرأ كتاب « الاقتصاد محرك التطور الاجتماعى » لغارودى ، تأثر بالفكر الماركسى ، عن كتاب « صفحات من التاريخ » للأستاذ صلاح شادي . الطبعة الثانية ص ١٣٤ ، فى حين أن الكاتب غير فكره من الماركسية إلى الإسلام ، وغير اسمه ، فأصبح ، رجا غارودى — فى رمضان ١٤٠٢ هـ .

وضم عام ١٩٦٢ اعترافين خطيرين في موسكو :

الأول : اعتراف بفشل المزارع التي أسست على نظريات لسنكو بعد ٢٧ عاماً من تطبيق نظرية خاطئة ، تعتمد على إلغاء الوراثة كما تقدم .

الثاني : اعتراف بأن النظام الجديد لم يخلق رجالاً كما زعموا وأعلنوا ... ولكن النظام كان سبباً في خلق شباب مائع منحل .

وانتهى صاحب الاعترافين إلى الأبد ، حتى لا يكون اعتراف ثالث .

وفي نفس العام ١٩٦٢ قال كيندي :

« إن الشباب الأمريكي مائع منحل مترف ، غارق في الشهوات ، وإنه من بين كل سبعة شبان يتقدمون للتجنيد يوجد ستة غير صالحين ، بسبب انهماكهم في الشهوات ، وأنذر بأن هذا الشباب خطر على مستقبل أمريكا ، وأهاب بالعلماء والمصلحين الاجتماعيين أن يبحثوا هذا الخطر ، ويقرروا العلاج » (٩٢) .

واتسم موقف كيندي بالجد .

فماذا كان له ؟

كانت له نهاية أسوأ من زميله خروشوف .

رصاصة وسط جموع غفيرة لأكبر رجل في أكبر دولة فيقتل ، ولا يعلم أحد مصدرها . غريب فعلاً ...

وحينما تشير بعض الأصابع إلى واحد بالاتهام سريعاً ما يقتل بحجة الحماسة ، لتختفى الجريمة إلى الأبد .

وليتعلم الناس أن الحرية لها ثمن كبير قد يكون النفس .

وأن من يريد الإصلاح ومواجهة الواقع ، يكون جزاؤه الاغتيال تماماً كمن يحاول نشر أو طبع البروتوكولات التي تفضح اليهود من عام ١٩٠٥ إلى الآن .

(٩٢) نفس المصدر السابق ص ١٢٣ .

وأصبح دارون قائداً :

نعم أصبح دارون قائداً ، أو صنع الملايين من البشر منه قائداً ، كما اعترفت البروتوكولات .

ويجب أن نعلم علماً أكيداً أن بعض النظريات العلمية الوافدة إلينا ، أو التي فتحت لها نوافذ ييوتنا لتدخل منها ، لم توضع أصلاً للدعوة إلى الإلحاد والتحلل ... ولكن دعاة الكفر والإباحية استغلوا شهرة هذه النظريات استغلالاً كبيراً فجعلوا منها الوسائل المتنوعة والمتعددة ، للتغريب بالقاصرين السطحيين من البشر ، حتى يجروهم إلى هاوية الكفر والضلال ، أو البعد عن مراكز القوة ، ليكون المغرر الماكر فقط هو المتسلط في الأرض ، وغيره من البشر لا يدري ما يحاك له وما يدبر بشأنه .

المهم أن دارون أصبح بنظره قائداً على أي حال ؛ وضع أساس الحط من شأن الإنسان لأنه وجد نفسه فاقد الأم والحنان في بداية حياته .

فكانت نظريته انعكاساً لما يعانیه من ألم ، وكانت رحلته إلى إحدى الجزر ليرى طيوراً مختلفة عن منطقته الأولى ، فيوحي إليه الاختلاف بالتطور ... وتوقف دارون عند هذا الحد .

وجاء بعده زبانية استغلوا هذه النظرية ، كما اعترفت البروتوكولات ، ليجعلوا هذا النهج سلوكاً ، ومذاهب ، ليدفنوا الأخلاق ، والمثل العليا ، ولتقاد البشرية كالسائمة البلهاء إلى الهاوية .

ماركس يأتي ويقول :

لا قيمة لهذا الإنسان ، ولكن القيمة للقيمة الخبز التي تحركه وتدفعه ، وتصنع منه شيئاً ، فعلى المرء أن يصنع هذا الإله ، ويهتم به جيداً ، ويكون المنطلق البشري أي لقمة الخبز والتفسير المادي للتاريخ .

وبذلك انحط الإنسان كما أراد دارون .

وفرويد يأتي ويقول :

إن الجنس أي الغريزة الجنسية هو كل شيء ، وهو الدافع الحقيقي لكل حياة الإنسان ، وأن ما عداه دونه ، أو لافائدة منه ، وألغى حنان الأم والأب ، أو شك في حنانهما ، وكما هو معروف في تفسيره بعقدة أوديب وعقدة ألكترا .

وذلك كله للحط من قيمة الإنسان كما أراد دارون .

ودور كهائم يأتي ويقول :

إن المجتمع هو صانع الأفراد . القيمة له . وأن الأفراد مصيرون له ، فعلى الأفراد أن يلتزموا ما يدعو إليه المجتمع ، وعليهم أن يلبوا رغبات المجتمع راضين أو كارهين .

وذلك كله ليدار مجتمعه بأيدي ملوثة ، وعلى الأفراد الطاعة للسير بهم إلى الهاوية .

وبذلك ينحط الإنسان كما أراد دارون .

وسارتر يأتي ويقول :

« إنه لا يوجد لدى الله أي حل لأي مشكلة من مشكلات الوجود ، لأن الله غير موجود ، ولأن الحلول الدينية للمشكلات تحد من الحرية الوجودية ، لأن الوجودي لم يختر هذا الحل ، وإنما فرض عليه فرضاً .

فالدين عنده خرافة ، لأنه نسيج من الاتجاهات العقلية أو الغيبية ، يجب أن تؤمن بها ولو لم تحسها في نفسك » (٩٣) .

وتتضح من النص الأخير ، هذه الحرب للدين التي أعلنت عنها البروتوكولات ، وامثال سارتر لمبدأ الحرب .

وذلك كله لينحط الإنسان كما أراد دارون .

ويمكنك أن تفسر إذن المقصود من الدعاية الفخمة التي نالها سارتر

(٩٣) الوجودية والإسلام لمحمد ليبس البوهي ص ٢٠ .

وعشيقته حينما كانا بمصر ، قد كان يُقال إن علاقته بعشيقته أُسمى من علاقات أزواجنا ، إلى هذا الحد !! .

طالما أن المبدأ هو محاربة الدين بكل الصور ودون أساس .

ثم كان للوجودية دعاة آخرون ، منهم جبريل مارسيل الذي أعلن فلسفته عام ١٨٨٩ قائلاً :

« إن محور فلسفته الوجودية هو الجسد ، فكل إنسان تنبه إلى أول شيء في وجوده فوجد نفسه ، فالجسد الإنساني هو الأصل الذي وجدت الذات نفسها فيه ، وإذا كانت أهم مبادئ الوجودية هي الانفرادية ، فكل إنسان إذن يختلف عن الآخر في اتجاهه الوجودي ما دام يرى نفسه حراً . » (٩٤) .

وصارت الوجودية التي استغلت نظرية دارون سبباً في انحدار ملايين من البشر تخليقياً وسلوكياً .

ويلتقي دارون ، وماركس ، وفرويد ، ودور كهايم ، وسارتر عند نقطة واحدة : هي حيوانية الإنسان ...

ويحسون مقدار الخطورة عليهم جميعاً حينما يقف أمامهم جندي يعلن :
« ولقد كرّمنا بني آدم » (٩٥) .

(٩٤) الوجودية والإسلام ص ٤٠ .

(٩٥) سورة الإسراء ، الآية رقم ٧٠ .

خاتمة

المتصفح لآيات القرآن الكريم يجد الدعوة صريحة إلى النظر في الكون ،
والتأمل فيه ، وكشف أسرار وقوانينه لخير الإنسان ، وليعلم الناس عظمة الخالق
سبحانه وتعالى وأنهم أمام كتابين :

الكتاب الأول الكتاب المسطور وهو القرآن الكريم .

الكتاب الثاني الكتاب المنثور وهو الكون الفسيح الذي يحيط بنا .

وكلا الكتابين من صنع الخالق سبحانه .

والشيئان الصادران عن حكيم لا يمكن أبداً وبأي حال من الأحوال أن
يتعارضا ...

فلا تعارض أبداً بينهما ...

فالله سبحانه وتعالى إذا أقر أمراً فهو لخير الإنسان حتماً ، وهو الحق
حتماً ، وهو الصواب حتماً .

والدعوة الصريحة في القرآن الكريم إلى العلم والتأمل .

وبعد أن عرض الله سبحانه في سورة فاطر ، البحر والفلك التي تسير فيه ،
وما يستخرج منه من أسماك ولؤلؤ ، والناس والدواب والنبات وقد اختلف كل
نوع منها ، والأرض والجبال بألوانها ذكر بعد هذا العرض قوله تعالى :

﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ (٩٦)

(٩٦) سورة فاطر ، الآية رقم ٢٨ .

أي هذا الصنف من الناس الذين تأملوا البحر ، ورأوا ما فيه من قوانين
الطفو وكذا وكذا ... وكيفية الصيد ، واستخدام أحسن الطرق في الصيد وتوسيع
الاستفادة منه بالتعليب وغيره وقل مثل ذلك في الجبال طبقاتها وما يكتشف فيها من
معادن . هذا الصنف من الناس هم أول من يدرك عظمة الخالق سبحانه .. وهم
الذين يخشونه ويخافونه .

إن الدين يعلن أن الكون مسخر للإنسان بشرط أن يكون لخير هذا الإنسان
ويحارب الخراب والدمار والفساد في الأرض .

إن القرآن الكريم يعلن إعلاناً صريحاً أن السير في الأرض واجب ، والنظر
والاستنتاج واجب ، ودراسة الأحياء واجبة .

قال الله سبحانه وتعالى : ﴿ قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ
الخلق ، ثم الله ينشئ النشأة الآخرة إن الله على كل شيء قدير ﴾ (٩٧)
صدق الله العظيم

إدریس — علیہ السلام

إدريس — عليه السلام .
يقول الله تعالى :

﴿ واذكر في الكتاب إدريس إنه كان صديقاً نبياً ، ورفعناه مكاناً علياً ﴾ (١) .

فذكر إدريس — عليه السلام — بالثناء عليه بأنه كان صديقاً نبياً ، وأن الله سبحانه رفعه مكاناً علياً في إحدى السموات السبع .
فعن أنس بن مالك ، قال : كان أبو ذر — رضى الله عنهما — يحدث أن رسول الله ﷺ — . قال : (أى في حديث الإسراء) .

» .. عرج بنى إلى السماء الثانية ، فقال له خازنها : مثل ما قال الأول (أى خازن السماء الأولى ، كما في تكملة الحديث) ففتح ، قال أنس : فذكر أنه وجد في السموات آدم ، وإدريس ، وموسى ، وعيسى ، وإبراهيم — صلوات الله عليهم وسلامه — ولم يثبت كيف منازلهم ؟ غير أنه وجد آدم في السماء الدنيا ، وإبراهيم في السماء السادسة ، قال أنس : فلما مر جبريل (بالنبي — ﷺ —) بإدريس . قال : مرحباً بالنبي الصالح ، والأخ الصالح ، فقلت : من هذا ؟ قال : هذا إدريس » (٢) .

وفي رواية أخرى حددت مكان وجود إدريس — عليه السلام .
فعن أنس ، عن مالك بن صعصعة — رضى الله عنهما — قال : قال النبي ﷺ :
» .. فأتينا السماء الرابعة . قيل : من هذا ؟ قيل : جبريل . قيل : من

(١) سورة مريم . الآيتان ٥٦ ، ٥٧ .

(٢) أخرجه البخارى . كتاب الصلاة ، باب . كيف فرضت الصلاة ؟ ج ١ ص ٩٧ ، ٩٨ قال صاحب الفتح « وفي حديث أبى ذر الطويل الذى صححه ابن حبان أن إدريس كان نبياً رسولاً ، وأنه أول من خط بالقلم » فتح البارى بشرح صحيح البخارى ج ١٣ ص ١١٤ رقم الحديث ٣٣٤٣ طبعة مكتبة الكليات الأزهرية .

معك ؟ قيل : محمد ﷺ . قيل : وقد أرسل إليه ؟ قيل : نعم . قيل :
مرحباً به ، والنعم المجيء جاء . فأتيت على إدريس فسلمت عليه . فقال :
مرحباً من أخ ، ونبي .. » (٣) .

وفي رواية ثالثة :

« .. فإذا أنا بإدريس . فرحب بي ، ودعا لي بخير ، قال الله عز وجل :
﴿ ورفعه مكاناً علياً ﴾ » (٤) .

ولم يرد نص يحدد تاريخ بعثة إدريس — عليه السلام — أو بعد أى نبى
كان ، وما ذكر من آثار في ذلك فقد كانت عن استنباط وفهم للنصوص فقط .
وبما ورد في ذلك في ضوء تفسير قوله تعالى : ﴿ أولئك الذين أنعم الله
عليهم من النبين من ذرية آدم ، ومن حملنا مع نوح ، ومن ذرية إبراهيم
وإسرائيل ، ومن هدينا واجتينا ، إذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سجداً
وبكياً ﴾ (٥) قال السدى وابن جرير :

فالذى عنى به من ذرية آدم : إدريس .

والذى عنى به من ذرية من حملنا مع نوح : إبراهيم .

والذى عنى به من ذرية إبراهيم : إسحق ، ويعقوب ، وإسماعيل .

والذى عنى به من ذرية إسرائيل : موسى ، وهارون ، وزكريا ، ويحيى ،
وعيسى بن مريم .

ولذلك فرق أنسابهم ، وإن كان يجمع جميعهم آدم ؛ لأن فيهم من ليس من

(٣) المصدر السابق . كتاب الأنبياء ج ٤ ص ١٣٣ .

(٤) أخرجه مسلم . المختصر . كتاب الإيمان ، باب الإسراء بالنبي — ﷺ — إلى
السموات ، وفرض الصلوات ج ١ ص ٢٦ رقم ٧٦ ، كما رواه أيضاً النسائي ،
والترمذي ، وأحمد ، وابن هشام .

(٥) سورة مريم . الآية رقم ٥٨ .

ولد من كان مع نوح في السفينة ، وهو إدريس ، فإنه جد نوح . قال ابن كثير :
هذا هو الأظهر (٦) .

وقيل : إنه من أنبياء بنى إسرائيل أخذاً من حديث الإسراء ، حيث قال في سلامه على النبي — ﷺ : مرحباً بالنبي الصالح ، والأخ الصالح ، ولم يقل : والولد الصالح . كما قال : آدم ، وإبراهيم — عليهما السلام (٧) .

وقال البخاري : يذكر عن ابن مسعود ، وابن عباس — رضي الله عنهم — أن إلياس هو إدريس (٨) .

ويبعد هذا الرأي قول الناس يوم القيامة لنوح : أنت أول المرسلين ، وهذا لا يوافق ظاهر التعبير في القرآن الكريم ﴿ وإن إلياس لمن المرسلين ﴾ (٩) . كما لا يوافق أيضاً اعتبار إدريس — عليه السلام — رسولا فبقى أن نفهم : أن إدريس — عليه السلام — نبي ، وليس برسول ، وأنه قبل نوح — عليه السلام — والله أعلم بالصواب .

وقد وصفه ربه سبحانه بالصبر ، مما يدل على تحمله في سبيل الدعوة إلى الله سبحانه ، والسير على منهاجه ، وفي ذلك يقول الله تعالى : ﴿ وإسماعيل وإدريس ، وذا الكفل ، كل من الصابرين ﴾ (١٠) .

والتأمل فيما ورد من نصوص في سيرة إدريس عليه السلام يرى :

— أن الصديق في القول يرفع مكانة صاحبه عند الله سبحانه .

— أن الحارس لا بد له من الاستيثاق من كل داخل ، ليكون أداؤه للأمانة الملقاة على كاهله على خير وجه .

(٦) وهذا الرأي يوافق ما رواه ابن سعد في طبقاته .

(٧) - تفسير ابن كثير لسورة مريم .

(٨) صحيح البخاري ، باب وإن إلياس لمن المرسلين ج ٤ ص ١٦٤ .

(٩) سورة الصافات . الآية رقم ١٢٣ .

(١٠) سورة الأنبياء . الآية رقم ٨٥ .

— وأنه من السنة الترحيب بالزائر ، أو المار بأطيب الكلام ، وأحبه إلى النفس .

— وأن من السنة حين يسأل صاحب الدار : من الطارق ؟ أن تكون الإجابة بالاسم .

— وأن الذين التزموا منهج الله سبحانه في العبادة ، وغيرها من الطاعات هم الذين أنعم الله سبحانه عليهم .

— وأن الأنبياء والرسل — عليهم الصلاة والسلام — أسرة واحدة ، تسير في موكب الهدى والإسلام ، ويجب على المسلم أن يؤمن بهم جميعاً .

نوح — عليه السلام

- أول الرسل — عليهم الصلاة والسلام .
- نوح — عليه السلام — وقومه .
- نوح — عليه السلام — يلجأ إلى ربه سبحانه .
- تحدى قوم نوح — عليه السلام — له .
- نوح — عليه السلام — وزوجته ، وابنه .
- نوح — عليه السلام — والطوفان .
- إنذار نوح — عليه السلام — قومه من الدجال .
- دروس وعبر .

أول الرسل — عليهم الصلاة والسلام :

وردت في القرآن أكثر من آية تعبر عن إرسال نوح — عليه السلام — إلى قومه . ومن هذه الآيات ، قوله تعالى :

﴿ إنا أرسلنا نوحاً إلى قومه ، أن أنذر قومك من قبل أن يأتهم عذاب أليم ﴾ (١) .

وفي حديث الشفاعة ما يدل على أنه أول الرسل ، يقول آدم — عليه السلام :

« .. نفسي ، نفسي . اذهبوا إلى غيري ، اذهبوا إلى نوح . فيأتون نوحاً ، فيقولون : يا نوح ، أنت أول الرسل إلى أهل الأرض ، وسماك الله عبداً شكوراً (٢) . أما ترى إلى ما نحن فيه ؟ ألا ترى إلى ما بلغنا ؟ ألا تشفع لنا إلى ربك ؟ ، فيقول : ربي غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ، ولا يغضب بعده مثله ، نفسي . نفسي . اتتوا النبي — ﷺ .. » (٣) .

وفي مجموع حديث الشفاعة يستشفع الناس بأول البشر ، وأول الرسل ، وأفضل الرسل — عليهم الصلاة والسلام .

وروى عن ابن عباس — رضى الله عنهما — أن بينه ، وبين آدم — عليه السلام — عشرة قرون ، على اختلاف في فهم القرن بما يتناسب والسياق (٤) .

نوح — عليه السلام — وقومه :

دعا نوح — عليه السلام — قومه إلى عبادة الله وحده ، وتقواه ،

(١) سورة نوح . الآية رقم ١ .

(٢) وفي ذلك يقول الله تعالى : ﴿ إنه كان عبداً شكوراً ﴾ الإسراء ، الآية رقم ٣ .

(٣) أخرجه البخارى . كتاب الأنبياء ، باب قول الله تعالى : ﴿ إنا أرسلنا نوحاً ﴾ ج ٤ ص ١٦٢ ارجع إلى ما يتصل بالتعليق على هذا الحديث ، وآية ﴿ إن الله اصطفى آدم ﴾ في فصل آدم عليه السلام .

(٤) أخرجه البخارى ، نقلاً عن ابن كثير في البداية والنهاية ، قصة نوح — عليه السلام .

وتوحيده بالعبودية له سبحانه . يقول الله تعالى على لسانه :

﴿ قال : يا قوم ، إني لكم نذير مبين ، أن اعبدوا الله ، واتقوه ، وأطيعون ﴾ (٥) .

وبين لهم أن طاعتهم لله سبحانه تمحو ما مضى من السيئات التي ارتكبوها .

﴿ يغفر لكم من ذنوبكم ، ويؤخركم إلى أجل مسمى ، إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر لو كنتم تعلمون ﴾ (٦) .

واستمر نوح — عليه السلام — يدعو قومه إلى توحيد الله سبحانه ألف سنة إلا خمسين عاماً ، قال تعالى :

﴿ ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه ، فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً ، فأخذهم الطوفان ، وهم ظالمون ﴾ (٧) .

وواصل دعوته الليل والنهار في هذه المدة على طولها .

﴿ قال : رب ، إني دعوت قومي ليلاً ونهاراً ﴾ (٨) .

فماذا كان أمر هؤلاء القوم ؟ .

أعلن قومه الكفر بالدعوة ، وزعموا أن الرسول لا يكون بشراً ، وازدادوا تمسكاً بما كان عليه آبائهم من شرك ، قال الله تعالى :

﴿ ألم يأتكم نبي الذين من قبلكم : قوم نوح ، وعاد ، وثمود ، والذين من بعدهم ، لا يعلمهم إلا الله ، جاءتهم رسلهم بالبينات ، فردُّوا أيديهم في

(٥) سورة نوح . الآيتان ٢ ، ٣ .
 (٦) سورة نوح . الآية رقم ٤ .
 (٧) سورة العنكبوت . الآية رقم ١٤ .
 (٨) سورة نوح . الآية رقم ٥ .

أفواههم ، وقالوا : إنا كفرنا بما أرسلتم به ، وإنا لفي شك مما تدعوننا إليه مريب . قالت رسلهم : أفى الله شك ! فاطر السموات والأرض ؛ يدعوكم ؛ ليغفر لكم من ذنوبكم ، ويؤخركم إلى أجل مسمى . قالوا : إن أنتم إلا بشر مثلنا ، تريدون أن تصدونا عما كان يعبد آباؤنا ، فأتونا بسلطان مبين . قالت رسلهم : إن نحن إلا بشر مثلكم ، ولكن الله يمن على من يشاء من عباده ، وما كان لنا أن نأتىكم بسلطان إلا بإذن الله ، وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴿٩﴾ .

ووصل بهم الأمر أنهم اتهموه في عقله بالجنون . قال تعالى : ﴿كذبت قبلهم قوم نوح ، فكذبوا عبدنا ، وقالوا : مجنون وازدجر ، فدعا ربه أنى مغلوب فانتصر﴾ (١٠) .

إنه قد دعا قومه ، ولم يسألهم أجراً مقابل هذا الجهد في الدعوة ، وعلى الرغم من ذلك أنذروه هو وقومه من الفقراء بالطرد ، والرجم بالحجارة . قال تعالى :

﴿وما أسألكم عليه من أجر . إن أجرى إلا على رب العالمين ، فاتقوا الله ، وأطيعون . قالوا : أنؤمن لك واتبعك الأرذلون ؟ قال : وما علمى بما كانوا يعملون ؟ إن حسابهم إلا على ربي لو تشعرون ، وما أنا بطارد المؤمنين ، إن أنا إلا نذير مبين . قالوا : لمن لم تنته يا نوح ، لتكونن من المرجومين﴾ (١١) .

وقد امتد تكذيب هؤلاء القوم ، وإنكارهم إلى يوم القيامة ، على الرغم من طول عهدهم به في الدنيا ؛ فعن أبى سعيد الخدرى — رضى الله عنه — قال : قال رسول الله ﷺ :

(٩) سورة إبراهيم ، الآيات ٩ — ١١ .

(١٠) سورة القمر ، الآيات ٩ ، ١٠ .

(١١) سورة الشعراء ، الآيات ١٠٩ — ١١٦ .

« يحىء نوح وأمه فيقول الله تعالى : هل بلغت ؟ فيقول : إى ، رب . فيقول لأمه : هل بلغكم ؟ فيقولون : لا . ما جاءنا من نبى . فيقول لنوح : من يشهد لك ؟ فيقول : محمد — ﷺ — وأمه ، فتشهد أنه قد بلغ ، وهو قوله جل ذكره : ﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ﴾ (١٢) والوسط العدل .

ولذا اعتبر تكذيبهم لنوح — عليه السلام — تكذيباً لجميع الرسل — عليهم الصلاة والسلام — قال تعالى :
﴿ كذبت قوم نوح المرسلين ﴾ (١٣) .

وقال :

﴿ وقوم نوح لما كذبوا الرسل أغرقناهم ﴾ (١٤) .
وقد دمجهم الله سبحانه مع التكذيب بالفسق ، والظلم والطغيان ، فقال :
﴿ إنهم كانوا قوماً فاسقين ﴾ (١٥) ، ﴿ إنهم كانوا هم أظلم وأطغى ﴾ (١٦) .

نوح — عليه السلام — يلجأ إلى ربه سبحانه :
وحين وصل الأمر إلى درجة فقدان الأمل فى إيمان القوم ، أو إيقاف شرهم عنه ، وعن أتباعه المؤمنين ، تضرع إلى الله سبحانه بالدعاء على هؤلاء القوم الفاسقين الظالمين ، الطاغين المتكبرين . قال الله تعالى :
﴿ ونوحاً إذ نادى من قبل فاستجبنا له ، فنجيناه وأهله من الكرب

(١٢) أخرجه البخارى . كتاب الأنبياء ، ج ٤ ص ١٦٣ ، الباب السابق .

(١٣) سورة الشعراء ، الآية رقم ١٠٥ .

(١٤) سورة الفرقان ، الآية رقم ٣٧ .

(١٥) سورة الذاريات ، الآية رقم ٤٦ .

(١٦) سورة النجم ، الآية رقم ٥٢ .

العظيم ، ونصرناه من القوم الذين كذبوا بآياتنا؛ إنهم كانوا قوم سوء فأغرقناهم أجمعين ﴿١٧﴾ .

وإذا كان نوح — عليه السلام — قد طلب إلى قومه الإجابة ، فلم يجيبوه ، على الرغم من طول دعوتهم ، فقد طمأن الله سبحانه نوحاً — عليه السلام — بأنه قد بلغ ، وأدى الأمانة التي كلف إياها ، وأنه سبحانه عليم به ، وحسبه أن قد أعذر إلى ربه الكريم ، قال تعالى :

﴿ ولقد نادانا نوح فلنعم المجيبون ، ونحيناه وأهله من الكرب العظيم ، وجعلنا ذريته هم الباقين ، وتركنا عليه في الآخرين سلام على نوح في العالمين * إنا كذلك نجزي المحسنين ؛ إنه من عبادنا المؤمنين ﴾ (١٨) .

وقدم نوح — عليه السلام — إلى ربه سبحانه كشف أعماله ، وردّ قومه له ، وهو العليم بما صنع . كيف دعا ؟ وكيف ثابر ، ووصل الليل بالنهار ، أملاً في هدايتهم ؟ وكيف قام بتجربة السرية والعلنية في الدعوة ؟ ولكنهم أمام هذا كله أصروا على الكفر ، ووضعوا أصابعهم في آذانهم ؛ حتى لا يصل إليها أى صوت من رسولهم ، وتواصوا بالإقامة على عبادة أصنامهم ، فكان حريا بنوح — عليه السلام — استئصال عقاب الله سبحانه ، قال تعالى :

﴿ قال : رب ، إني دعوت قومي ليلاً ونهاراً ، فلم يزدتهم دعائى إلا فراراً ، وإني كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم في آذانهم ، واستغشوا ثيابهم ، وأصروا واستكبروا استكباراً ، ثم إني دعوتهم جهاراً ، ثم إني أعلنت لهم وأسررت لهم إسراراً ، فقلت : استغفروا ربكم ؛ إنه كان غفارا ؛ يرسل السماء عليكم مدراراً .. ﴾ (١٩) .

وأعلن نوح — عليه السلام — عصيان قومه ، واستحقاقهم الهلاك . قال تعالى :

(١٧) سورة الأنبياء ، الآيتان ٧٦ ، ٧٧ .

(١٨) سورة الصافات ، الآيات ٧٥ — ٨١ .

(١٩) سورة نوح ، الآيات ٥ — ١١ .

﴿ قال نوح : رب ، إنهم عصوني ، واتبعوا من لم يزده ماله وولده
إلا خساراً ﴾ (٢٠) .

وقال :

﴿ وقال نوح : رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً ؛ إنك إن
تذرهم يضلوا عبادك ، ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً ﴾ (٢١) .

وبقى لنوح — عليه السلام — أن يطلب المغفرة لنفسه ، ولمن آمن معه ؛
تحقيقاً لمعنى العبودية لله سبحانه ، قال تعالى :

﴿ رب ، اغفر لي ولوالدي ، ولمن دخل بيتي مؤمناً ، وللمؤمنين ،
والمؤمنات ، ولا تزد الظالمين إلا تباراً ﴾ (٢٢) .

كما طلب النجاة له ، ولقومه المؤمنين ، قال تعالى :

﴿ فافتح بيني وبينهم فتحاً ، ونجني ومن معي من المؤمنين ﴾ (٢٣) .

تحدى القوم له :

طلب قوم نوح — عليه السلام — إنزال العذاب الذي توعدهم به ؛ زيادة
في السخرية برسولهم . قال تعالى :

﴿ قالوا : يا نوح ، قد جادلنا فأكثر جدالنا ، فأتنا بما تعدنا إن
كنت من الصادقين ﴾ (٢٤) .

ورموه بالكذب في هذه الدعوة ، وأنه قد افترى عليهم ﴿ وما نرى لكم
علينا من فضل ، بل نظنكم كاذبين ﴾ (٢٥) . ﴿ أم يقولون افتراه ، قل : إن

(٢٠) سورة نوح ، الآية رقم ٢١ .

(٢١) سورة نوح ، الآيتان ٢٦ ، ٢٧ .

(٢٢) سورة نوح ، الآية رقم ٢٨ .

(٢٣) سورة الشعراء ، الآية رقم ١١٨ .

(٢٤) سورة هود ، الآية رقم ٣٢ .

(٢٥) سورة هود ، الآية رقم ٢٧ .

افتريته فعلى إجرامى ، وأنا برىء مما تجرمون ﴿٢٦﴾ .

وأعلنوا لقومهم جميعاً فى تبجح : ﴿ لا تذرن آهتكم ، ولا تذرن وداً ، ولا سواعاً ، ولا يغوث ويعوق ، ونسراً ﴾ (٢٧) .

نوح — عليه السلام — وزوجته ، وابنه :

إن هدى الله سبحانه نور يضعه فى قلوب من يشاء من عباده ، وكل نفس بما كسبت رهينة؛ رهينة بما كسبت من إيمان وعمل ، وعلاقة سليمة . قال الله تعالى :

﴿ إنما المؤمنون إخوة ﴾ (٢٨) .

فإذا ما أصر قريب نسباً على الكفر انفصمت عرى القرابة ، وبقيت عرى الإيمان وثيقة مع البعيد فى النسب ، وضرب المثل فى ذلك بنوح — عليه السلام — مع زوجته . قال تعالى :

﴿ ضرب الله مثلاً للذين كفروا امرأة نوح ، وامرأة لوط ؛ كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما ، فلم يغنيا عنهما من الله شيئاً ، وقيل : ادخلا النار مع الداخلين ﴾ (٢٩) .

وتمنى نوح — عليه السلام — أن يكون ابنه ضمن المؤمنين الناجين من عذاب الله تعالى . قال سبحانه :

﴿ ونادى نوح ابنه ، وكان فى معزل : يا بنى ، اركب معنا ، ولا تكن

(٢٦) سورة هود ، الآية رقم ٣٥ .

(٢٧) سورة نوح ، الآية رقم ٢٣ .

(٢٨) سورة الحجرات ، الآية رقم ١٠ .

(٢٩) سورة التحريم . الآية رقم ١٠ ، والخيانة المرادة هنا والله أعلم ، لا يقصد بها الفحشاء والزنا ، فبيوت الأنبياء مبرأة من ذلك ، وإنما يراد بها الخيانة فى إفشاء الأسرار ، وعدم الإيمان بالله سبحانه .

مع الكافرين . قال : سأوى إلى جبل يعصمنى من الماء . قال : لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم ، وحال بينهما الموج فكان من المغرقين ﴿٣٠﴾ .
 وحين فكر نوح — عليه السلام — بشأن ابنه بدافع الأبوة ، أيقظه الله سبحانه على الحق .

﴿ قال : يا نوح ، إنه ليس من أهلك ، إنه عمل غير صالح ، فلا تسألن ما ليس لك به علم ؛ إني أعظك أن تكون من الجاهلين ﴾ (٣١) .

نوح — عليه السلام — والطوفان :

وقضى الأمر بشأن قوم نوح — عليه السلام — واستحقوا إنزال العقاب عليهم (٣٢) .

فماذا كان من أمرهم ؟ .

طلب الله سبحانه إلى نوح — عليه السلام — أن يصنع سفينة . وكان عليه أن ينفذ أمر ربه سبحانه ، مهما كان من سخرية القوم منه ، وبعد اكتمالها كلف أن يحمل فيها من كل زوجين اثنين ، ومن اتبعه من المؤمنين ، وتجمع بالسفينة نماذج للحياة التي تبدأ المسيرة من جديد . وكان الطوفان من المياه من كل جانب ، ولم يرتفع على سطح المياه إلا سفينة نوح — عليه السلام — بمن فيها وما فيها . وغطى الطوفان وجه الأرض ، واعتلى قمم الجبال ، ونزل وعيد الله سبحانه لمن عصى من قوم نوح — عليه السلام — حتى الابن ، والزوجة . قال الله تعالى :

﴿ مما خطيئاتهم أغرقوا فأدخلوا ناراً ، فلم يجدوا لهم من دون الله أنصاراً ﴾ (٣٣) .

(٣٠) سورة هود . الآيتان ٤٢ ، ٤٣ .

(٣١) سورة هود . الآية رقم ٤٦ .

(٣٢) تنوعت صور العقاب للأمم السابقة ؛ إما أن يكون كل عقاب مناسباً لكل أمة نزل بها ، وإما يكون للدلالة على قدرة الله سبحانه . والله أعلم .

(٣٣) سورة نوح . الآية رقم ٢٥ .

ونفذ أمر الله سبحانه .

﴿ وقيل : يا أرض ، ابلعي ماءك ، ويا سماء أقلعي ، وغيض الماء ، وقضى الأمر ، واستوت على الجودي ، وقيل : بعداً للقوم الظالمين ﴾ (٣٤) .

إنذار نوح — عليه السلام — قومه من الدجال :

على الرغم من العناد الذي لاقاه نوح — عليه السلام — من قومه ، وإصرارهم على الشرك ، وعبادة الأصنام ، كما عبدها آبائهم ، وأجدادهم . على الرغم من ذلك ، فقد أكمل ما كلفه الله سبحانه إياه ، وأنذرهم من المسيح الدجال .

قال ابن عمر (٣٥) — رضى الله عنهما — قام رسول الله — ﷺ — في الناس ، فأثنى على الله بما هو أهله ، ثم ذكر الدجال . فقال :

« إني لأنذركموه ، وما من نبي إلا أنذر قومه . لقد أنذر نوح قومه ؛ ولكنى أقول لكم فيه قولاً لم يقله نبي لقومه : تعلمون أنه أعور ، وأن الله ليس بأعور » (٣٦) .

ورواية أنى هريرة — رضى الله عنه — فيها :

(٣٤) سورة هود . الآية رقم ٤٤ .

(٣٥) هو عبد الله بن عمر بن الخطاب — رضى الله عنهما — أسلم صغيراً بمكة ، وأول مشاهدته الخندق ، وعمر طويلاً ، وروى عنه خلائق ، كان من أوعية العلم ، وكانت وفاته بمكة سنة ٧٣ من الهجرة ، ودفن بذي طوى في مقبرة المهاجرين . قال في شأنه النبي — ﷺ : « نعم الرجل عبد الله » قال سالم (أحد الرواة) : فكان عبد الله بعد ذلك لا ينام من الليل إلا قليلاً . أخرجه الشيخان . اللؤلؤ والمرجان رقم ١٦١١ مختصر مسلم رقم ١٦٩١ .

(٣٦) أخرجه الشيخان . اللؤلؤ والمرجان رقم ١٨٥٤ ، واللفظ للبخارى . كتاب الأنبياء . باب قول الله تعالى : ﴿ إنا أرسلنا نوحاً إلى قومه ﴾ ج ٤ ص ١٦٢ ، ١٦٣ .

« وإنه يحىء معه بمثال الجنة والنار .. فالتى يقول : إنها الجنة ، هي النار ، وإنى أنذركم كما أنذر به نوح قومه » (٣٧) .
دروس وعبر :

— اتباع الرسل — عليهم الصلاة والسلام — يجنب البشر من الشر والعذاب فى الدنيا والآخرة ، وأن الدعوات السماوية جاءت لخير البشرية وإسعادها .

— الداعية المسلم واضح الدعوة للناس ؛ يقدمها لهم دون تعقيد ، ويعتمد أول ما يعتمد على العقيدة الموحدة لله سبحانه وتعالى ، وإن المنكرين يرفضون الاستماع ولا يفكرون ، ويرضون بالتقليد لما ورثوه عن آبائهم وأجدادهم وتقاليدهم ، وعاداتهم .

— الداعية المسلم يتعامل مع الله تعالى فى دعوته للناس ؛ فلا يأس ولا ملل . بل مثابرة واطمئناناً ، يواصل بالليل والنهار فى السر والجهر ، ويبذل كل ما يستطيع أن يبذله من جهد ، دون مقابل مادى من قومه .

— على الداعية أن يتوقع من قومه الإيذاء ، والالتهام من كل جانب له ، ولمن اتبعه من المؤمنين ، على الرغم من تقديم البينات على صدق الدعوة .

— من أنواع الإيذاء :

ما يكون نفسياً : بالالتهام بالجنون ، والخلل فى التفكير ، والطرده من الوطن .

وما يكون اجتماعياً : برمى من اتبع الهدى بالتحقير ، والتهوين من شأنه بين الناس .

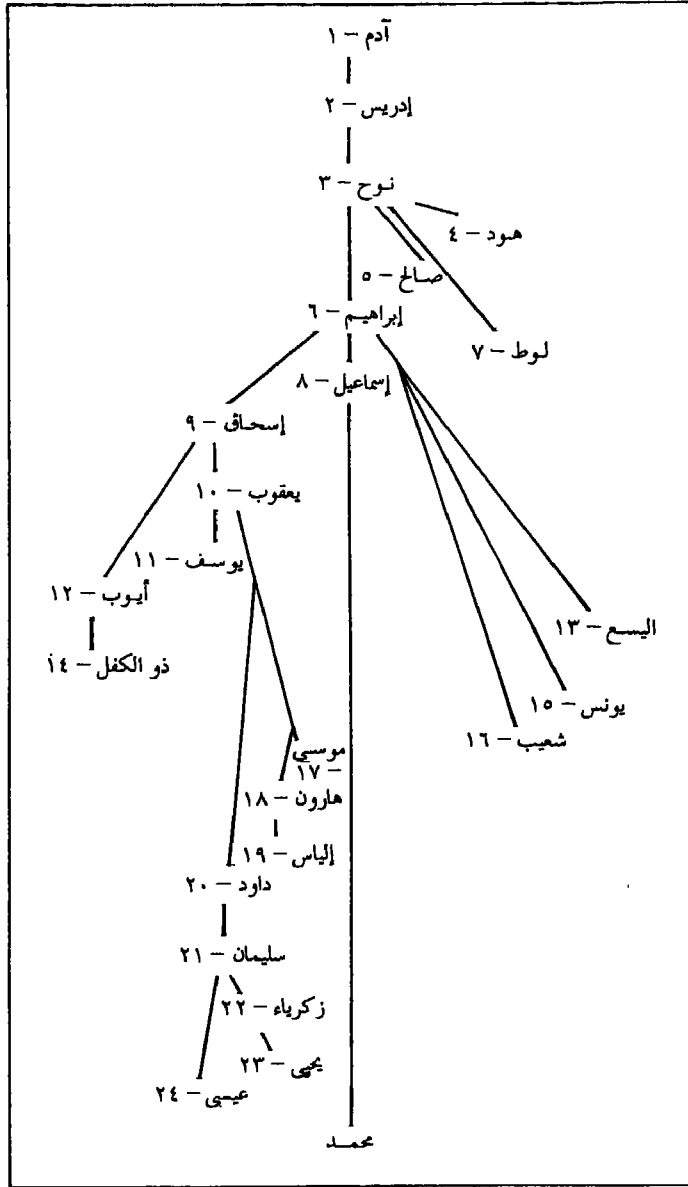
وما يكون مادياً : بالعقوبة والضرب بالحجارة .

(٣٧) المصدر السابق رقم ١٨٥٧ وفى البخارى ج ٤ ص ١٦٣ .

- إن المسلم يجب أن يؤمن بكل الرسل — عليهم الصلاة والسلام —
وإن الكفر بواحد منهم كفر بالجميع .
- إن الداعية يتقوى بالتوكل على الله سبحانه ، وإن البقاء للأصلح ؛
ومن يحسن في عمله .
- إن الإيمان بالمنهج السماوى يحقق الخير فى الأرض من أموال وبنين ،
بالإضافة إلى دخول الجنة فى الآخرة .
- إذا ما بذل فى الدعوة كل ما من شأنه أن يبذل ، فإن من الجائز
شرعاً استنزال العقاب ؛ لتكون العظة للأجيال اللاحقة .
- لا يفتر فى عضد الداعية أن يخالفه أقرب الناس إليه من زوجة
وولد ، فالدعوة الإسلامية ليست وراثية ، ولا يعيبه أيضاً أن يخالفه الأقربون ؛
فكل نفس بما كسبت رهينة .
- لا تطلب النجاة لكافر مهما كانت قرابته ؛ ولا يتوسط له لوظيفة
دنيوية لها تأثير ديني ؛ لما فى ذلك من اتساع دائرة الضرر على المسلمين ، والأمة
المسلمة .
- على الداعية المسلم أن يحافظ على كل ما تمتد به الحياة وتنمو من نبات
ودواب ، وإنسان .
- إن الرجال يقاسون بالدعوة ، ولا تقاس الدعوة بالناس . وإن
العرف يحكم عليه ولا يحتكم إليه . فلا يغتر بشخص كالدجال وإن ظهرت على
يديه ما يخيل للمرء أنها من الخوارق ، والعبرة بالموافقة لمنهج الله سبحانه .
- قال الشافعى ، والليث — رحمهما الله :
- لو رأيتم الرجل يمشى على الماء ، ويطير فى الهواء ، فلا تغتروا به ؛ حتى
تعرضوا أمره على الكتاب والسنة .
- أيا كان الشخص فى مركز أدنى ، أو مادى ، أو اجتماعى ، فلا قيمة
لمثل هذه المراكز إذا ما فقد الأساس الإيمانى الصحيح .

— كما أن المسلم في تحيته لإخوانه يجب عليه ألا يدخل هذه المراكز بالتمييز بينهم ؛ لما في ذلك من المفسدة ما فيه .

خريطة تبين بعض الأماكن التاريخية القديمة
 روجعت على خريطة قديمة موجودة بقسم الجغرافيا - جامعة الكويت



شجرة الأنبياء والرسل - عليهم الصلاة والسلام

هود — عليه السلام

- قبيلة عاد .
- أين كانت تسكن قبيلة عاد الأولى ؟
- هود — عليه السلام — يدعو قومه .
- موقف عاد من دعوة نبيهم .
- إهلاك عاد .
- نجاة هود — عليه السلام — ومن آمن معه .
- دروس وعبر .

قبيلة عاد :

يقول الله تبارك وتعالى :

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادِ إِرَمِ ذَاتِ الْعِمَادِ ، الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ﴾ (١) .

فماذا من شأن هذه القبيلة حتى يوصفوا بهذا الوصف ؟

قبيلة 'عاد' المتحدث عنها هنا هي عاد الأولى ، من أحفاد نوح — عليه السلام — ، وهي عاد إرم . كانت لها البيوت من الشعر المرتفعة بالأعمدة الطويلة ، كان لأبنائها البسطة والاعتدال في الجسم ، ولكنهم استغلوا هذه القوة في الإفساد بالأرض ، قال الله تعالى :

﴿ واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح ، وزادكم في الخلق بسطة ، فاذكروا آلاء الله لعلكم تفلحون ﴾ (٢) .

وحسبوا أن هذه القوة من صنعهم ، وما دروا أن الله سبحانه هو الذى أنعم عليهم بها اختباراً وابتلاءً ، فاستكبروا على غيرهم ، وأعلنوا ذلك ، قال تعالى :
﴿ فأما عاد فاستكبروا في الأرض بغير الحق ، وقالوا : من أشد منا قوة ، أو لم يروا أن الله الذى خلقهم هو أشد منهم قوة ﴾ (٣) .

وقال أيضاً في معرض استجابتهم لدعوة رسولهم :-

﴿ ويزدكم قوة إلى قوتكم ﴾ (٤) .

وكانت لهم القدرة على إقامة البنيان ، واختيار الأماكن المرتفعة الظاهرة لمن يمر ، ولم يكن البنيان على هذا الشكل ضرورة لحياتهم ، بل عبثاً ، وبطراً ، واعتداءً على الآخرين ، كما استطاعوا إقامة مصانع للادخار والحفظ ، وكانت لهم

(١) سورة الفجر ، الآيات ٦ - ٨ . (٢) سورة الأعراف ، الآية رقم ٦٩ .

(٣) سورة فصلت ، الآية رقم ١٥ . (٤) سورة هود ، الآية رقم ٥٢ .

ثروة حيوانية ، وثروة زراعية ، وطاقة بشرية تدير المصانع ، وتشرف على تنمية الثروات بأنواعها . ولكنهم لم يضعوا النعمة موضعها ، قال الله تعالى :

﴿ أَتَنْبُونَ بِكُلِّ رِيحٍ آتِيَةٍ تَعْبَثُونَ ، وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ، وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ، فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ، وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ ، أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ، وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴾ (٥) .

أين كانت تسكن عاد الأولى ؟ .

كانت تقيم عاد الأولى بالأحقاف ، وذلك على وجه اليقين ، لقول الله تعالى :

﴿ وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ ... ﴾ (٦) .

أى الذين يسكنون بالأحقاف ، أى الجبال ، وما فيها من مغارات ، وتدل الآيات القرآنية على قرب الأحقاف من قريش المطلوب إليها أن تعتبر ، وتتعظ ، فقد قال الله تعالى :

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴾ (٧) .

وقال :

﴿ وَعَادًا وَثَمُودَ ، وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسَاكِنِهِمْ ﴾ (٨) .

وقال :

﴿ فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ ﴾ (٩) .

(٥) سورة الشعراء ، الآيات ١٢٨ - ١٣٤ .

(٦) سورة الأحقاف الآية ٢١ ، والأحقاف جمع حَقِيف وهو الجبل من الرمل ، أو الجبل والغار .

(٧) سورة الفجر ، الآية ٦ . (٨) سورة العنكبوت ، الآية رقم ٣٨ .

(٩) سورة الأحقاف ، الآية رقم ٢٥ .

وفى ضوء هذه الآيات ، وغيرها ذُكرت آراء تدل على أن الأحقاف فى جنوب الجزيرة العربية شمالى حضرموت .

هود — عليه السلام — يدعو قومه :

تبدأ دعوة كل رسول قومه بإقرار الوجدانية للخالق سبحانه ، والواهب للنعم الكثيرة ، فلا يليق بالإنسان أن يكون عبداً لمخلوق مثله ، بل يكون الجميع عبيداً لله سبحانه ، وفى الآيات التى تتحدث عن هود — عليه السلام — وقبيلة عاد الأولى تتضمن الدعوة إلى توحيد الله سبحانه قال الله تعالى :

﴿ وإلى عاد أخاهم هوداً ، قال : يا قوم ، اعبدوا الله ، ما لكم من إله غيره ، أفلا تتقون ١٩ ﴾ (١٠) .

وقال :

﴿ إذ قال لهم هود : ألا تتقون ١٩ ﴾ (١١) .

وهود — عليه السلام — إذ يدعوهم ، ويلح عليهم أن تكون عبادتهم صحيحة ، يكمل الوجه الآخر للدعوة بالتحذير من مغبة الشرك ، قال تعالى :

﴿ واذكر أخا عاد ، إذ أنذر قومه بالأحقاف ﴾ (١٢) .

وبذل لقومه من وسائل الترغيب من كل جانب ؛ فيؤكد لهم أنه ناصح أمين فى دعوته ، ولا يطلب عليها أجراً ؛ وهذا دليل مادى على أمانته ، كما يوضح خوفه عليهم من عذاب يوم عظيم . وهو إذ يبين هذه الجوانب ينيهم أيضاً إلى أن ما أوتوا من نعم هى من الخالق سبحانه ، المستحق للعبادة دون غيره ، قال تعالى على لسانه :

(١٠) سورة الأعراف ، الآية رقم ٦٥ ، وسورة هود ، الآية رقم ٥٠ .

(١١) سورة الشعراء ، الآية رقم ١٢٤ . (١٢) سورة الأحقاف ، الآية رقم ٢١ .

﴿إني لكم رسول أمين ، فاتقوا الله ، وأطيعون ، وما أسألكم عليه من أجر ، إن أجرى إلا على رب العالمين ﴾ (١٣) .

وقال :

﴿إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم ﴾ (١٤) .

موقف عاد من دعوة نبيهم :

على الرغم من وضوح الدعوة وبساطتها ، وموافقتها للمنطق والعقل ، والفطرة السوية . وقفت عاد في وجه هذه الدعوة ، وألغت عقولها ، وتفكيرها ، ورضيت أن تكون امتداداً للباطل الذي كان عليه الآباء والأجداد ، وهذا داء كل الأمم ، داء التقليد لما ورثوه من باطل دون أن يُناقش وينقّى ، قال الله تعالى على لسانهم :

﴿قالوا : أجبنا لنعبد الله وحده ، ونذر ما كان يعبد آباؤنا . فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين ﴾ (١٥)
وازدادوا إصراراً وجحوداً .

﴿وتلك عاد جحدوا بآيات ربهم ﴾ (١٦) .

وبدعوا اتهام رسولهم في عقله ، وكأنه أصيب بمس من آلهتهم :

﴿إن نقول : إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء ﴾ (١٧) .

واعتبر التحدى في هذا الشرك تكذيباً لهود ، وكل الرسل — عليهم السلام — بناء على قاعدة وحدة الدعوة ، قال تعالى :

(١٣) سورة الشعراء ، الآيات من ١٢٥ إلى ١٢٧ .

(١٤) سورة الشعراء ، الآية رقم ١٣٥ . (١٥) سورة الأعراف ، الآية رقم ٧٠ .

(١٦) سورة هود ، الآية رقم ٥٩ . (١٧) سورة هود ، الآية رقم ٥٤ .

- ﴿ كذبت عاد المرسلين ﴾ (١٨) .
 كما اعتبر أيضاً تكديباً لما أنذرهم وأوعدهم من عذاب :
 ﴿ كذبت ثمود وعاد بالقارعة ﴾ (١٩) .

إهلاك عاد :

إن أشد شيء على النفس البشرية أن يأتى هلاك مما ظن وتوهم أنه خير وحياة . هذا ما حدث لعاد ؛ رأوا سحاباً على البعد ، انتظروا منه ماء يُنبِت الأرض ، ويسقى الحرث والنسل ، ويبعث على الحياة فى أرضهم ، وفى أنفسهم كالعهد بالغيث ، ولكنه لم يكن غيثاً بل مطراً ، فالغيث إغاثة وخير ، عكسه المطر ؛ إنهم قد خابوا فאלأ ورجاء ؛ لأنهم لم يشكروا الخالق الوهاب ، ولم يوحلوه بالعبادة ؛ قال تعالى :

﴿ فلما رأوه عارضاً مستقبل أوديتهم ، قالوا : هذا عارض ممطرنا ، بل هو ما استعجلتم به ، ريج فيها عذاب أليم ، تدمر كل شيء بأمر ربها ، فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم ؛ كذلك نجزي المجرمين ﴾ (٢٠) .
 وجمعت هذه الريج كل صفات التدمير ، فهى ريج عقيم ليس من ورائها خير ، قال تعالى واصفاً إياها :

- ﴿ صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود ﴾ (٢١) .
 ﴿ وفى عاد إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم ﴾ (٢٢) .
 ﴿ كذبت ثمود وعاد بالقارعة ﴾ (١٩) .

(١٨) سورة الشعراء ، الآية رقم ١٢٣ . (١٩) سورة الحاقة ، الآية رقم ٤ .
 (٢٠) سورة الأحقاف ، الآيتان ٢٤ ، ٢٥ . (٢١) سورة فصلت ، الآية رقم ١٣ .
 (٢٢) سورة الذاريات ، الآية رقم ٤١ .

﴿ وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية ، سخرها عليهم سبع ليال ،
وثمانية أيام حسوماً ، فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية ، فهل
ترى لهم من باقية ؟ ﴾ (٢٣) .

وأذاقهم الله عذاب الخزي في الحياة الدنيا ، ولعذاب الآخرة أشد وأخزى
وهم لا يُنصرون .

عن ابن عباس (٢٤) — رضى الله عنهما — عن النبي — ﷺ :
« نُصِرْتُ بالصبا ، وأهلكت عاد بالدبور » (٢٥) .

نجاة هود — عليه السلام — ومن آمن معه :

ويكتمل الدرس ؛ فتلك الريح تميز بين نوعين من البشر ، يعيشان في بقعة

(٢٣) سورة الحاقة ، الآيات من ٦ إلى ٨ .

(٢٤) هو حيث أطلق بحر الأمة ، وحبرها عبد الله بن العباس ، ولد قبل الهجرة بثلاث
سنين ، وشهرة إمامته في العلم ببركات الدعوة النبوية بالحكمة ، والفقه في الدين ، والتأويل
ثَغْنَى عن التعريف به ، كانت وفاته بالطائف سنة ثمان وستين في آخر أيام ابن الزبير بعد أن
كُف بصره .

أخرج الشيخان عنه ، أن النبي — ﷺ — دخل الخلاء ، فوضعتُ (بناء المتكلم
وهو ابن عباس) له وَضُوءاً (بفتح الواو وهو الماء الذي يُتَوَضَّأُ به ، وأما الذي بضم الواو
فهو عمل الوضوء لا ماء الوضوء) ، قال : (أى النبي — ﷺ —) : « من وضع
هذا ؟ » فأخبر (أى بمن وضع هذا الماء وهو ابن عباس) ، فقال : « اللهم فقهه في
الدين » اللؤلؤ والمرجان رقم ١٦١٠ وفي إحدى روايات صحيح مسلم أن الذى أخبر بمن
وضع الماء هو أبو بكر — رضى الله عنه — المختصر رقم ١٦٩٠ .

(٢٥) صحيح البخارى ، كتاب الأنبياء ج ٤ ص ١٦٦ ، صحيح مسلم ، المختصر
رقم ٤٥٠ ، واللؤلؤ والمرجان رقم ٥١٩ ، بهامشه : « نُصِرْتُ بالصبا » وهى الريح التى
يكون مهبها من مشرق الشمس ، ونصرتة عليه الصلاة والسلام بالصبا كانت يوم الأحزاب ،
والدبور هى الريح العقيم التى أهلكت عاداً وقطعت دابرهم .

واحدة ، نوع يدمر ، ويهلك ، ونوع آخر لا يصيبه أى سوء .

قال الله تعالى :

﴿ فَأَنذَرْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بَرْحَةً مِنَّا ، وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بآيَاتِنَا ،
وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ (٢٦) .

وبقيت القصة على مدار التاريخ ذكرى وعظة . من أعمل عقله ، وفكره
كانت له نوراً يهديه إلى الإيمان بالله تعالى ، وتوحيده بالعبادة ؛ ولذا أمر
النبي ﷺ - بأن يذكر قريشاً بتلك العظات السابقة .

قال تعالى :

﴿ واذكر أخا عاد إذ أنذر قومه بالأحقاف ، وقد خلت النذر من بين
يديه ، ومن خلفه ، ألا تعبدوا إلا الله ؛ إني أخاف عليكم عذاب يوم
عظيم ﴾ (٢٧) .

فهل استفادت قريش ، ومن على شاكلتها من قصص الأنبياء — عليهم
السلام — وأحداث أقوامهم ؟!

(٢٦) سورة الأعراف ، الآية رقم ٧٢ .

(٢٧) سورة الأحقاف ، الآية رقم ٢١ .

دروس وعبر :

— التقدم المادى ؛ العمرانى ، والصناعى ، له جنوره فى الأحقاب الماضية ؛ فقبيلة عاد الأولى ، التى كانت تسكن بجنوب الجزيرة العربية ، امتلكت قوة فى الجسم ، والبناء المرتفع على قمم مرتفعة ، والمصانع للادخار والحفظ ، والثروة الحيوانية والزراعية ، والطاقة البشرية .

— ولم يكن ارتباط بين التقدم المادى هذا ، والفكر السائد لدى قوم عاد ، فقد كان التخلف الفكرى ، والرضا بتقليد الآباء والأجداد ، ولم تسعفهم الحضارة المادية فى تشغيل عقولهم إلا فى المزيد من الماديات ، وازدادوا طغياناً وكفراً وجحوداً .

— الحضارة المادية مهما اتسعت دائرتها ، وتنوعت مجالاتها ، وأخذت الأرض بها زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها ، مهما كانت نتائجها من ضخامة وفن ، وفكر ، وإذا لم يُدعم هذه الحضارة إيمان بواهب هذه الحضارة ، والهادى إليها ستكون إلى بوار وهلاك ، وفى تاريخ قوم عاد عبرة وعظة ، وما يذكر إلا أولو الألباب .

— الداعية المسلم يتوجه فى دعوته إلى الرصيد الضخم من قصص الأنبياء — عليهم الصلاة والسلام — فينهل منها ، ويذكر بها ، فالتجربة التى تمت أحداثها على مسرح الحياة أبلغ أثراً فى النفس من غيرها .

— المسلم فى سيره فى الأرض يتأمل ، وينظر إلى ما طُبع على الأرض من أحداث السابقين ، ويضيف ما استفاده بالمشاهدة إلى ما استفاده من الاستماع .

— إن الأمة المسلمة مأمورة شرعاً بإعداد الأكفاء فى التنقيب عن الآثار للأمم السابقة ، والتأمل فيها بالدراسة والمقارنة والبحث ، ولذا كان الأمر فى القرآن الكريم للجماعة وليس للفرد قال تعالى :

﴿ قد خلت من قبلكم سنن فسيروا فى الأرض ، فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين ﴾ (آل عمران ، ١٣٧) وقال أيضاً :

﴿ قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ﴾ (العنكبوت ٢٠)

— أساس الدعوة إلى الله سبحانه وتحيده ، وعلى الداعية أن يكون بعيداً عن مواطن الريبة والشك ، ولا بد أن يُعرف بين قومه بأنه ناصح أمين ، لا يحقق ربحاً مادياً على دعوته ، ولا يجعلها سلعة تجارية في سوق الدعوات الأخرى .

— من طبع الجاهليين المعادين اتهام من يريد إنقاذهم بالجنون ، وعلى الداعية أن يوطن نفسه لتلقى مثل هذه التهمة ، مع حرصه في الوقت نفسه على البعد عن مواطن الشبهة . ولا ييأس حين يُفاجأ بالاتهام زوراً وبهتاناً .

— المسلم يؤمن بجميع الرسل والأنبياء — عليهم الصلاة والسلام ؛ لأنهم جميعاً رسل الله سبحانه ، ويدعون إلى حقيقة إيمانية واحدة هي توحيد الله ونبذ الشرك .

— على الداعية المسلم أن يوقن بأن العاقبة للمتقين ؛ عزة في الدنيا فليس عبداً لمخلوق ، ثم فوزاً عظيماً في الآخرة ، ويختار الله سبحانه على درب المسيرة شهداء .

— يُختار الداعية من بين القوم ، ليكون معلوم السيرة الحميدة قبل الدعوة ، ويكون التأثير المرجو أقرب إلى التحقيق ﴿ أخا عاد إذ أنذر قومه ﴾ ﴿ وإلى عاد أخاهم هوداً ﴾ .

— إن الآفة الفكرية التي تصيب البشرية على مدى الأحقاب هي الشرك والتقليد للآباء والأجداد ، وإن الشيطان يأتي للمرء بتبريرات وتعليقات ، ويزين الآفة على أنها صواب .

صالح — عليه السلام

- قبيلة ثمود .
- موطن ثمود .
- صالح — عليه السلام — يدعو قومه .
- موقف ثمود من دعوة نبيهم .
- سوء العاقبة .
- دروس ، وعبر .

قبيلة ثمود :

يقول الله تعالى على لسان صالح — عليه السلام — مخاطباً قومه :
﴿ واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد ، وبوأكم في الأرض تتخذون
من سهولها قصوراً ، وتحتون الجبال بيوتاً ، فاذكروا آلاء الله ، ولا تعثوا
في الأرض مفسدين ﴾ (١) .

وقال أيضاً :

﴿ هو أنشأكم من الأرض ، واستعمركم فيها ﴾ (٢) .

وقال :

﴿ في جنات وعيون ، وزروع ونخل طلعها هضيم ، وتحتون من
الجبال بيوتاً فارهين ﴾ (٣) .

تحدد الآيات الكريمة السابقة الملامح المميزة لقبيلة ثمود .

فأهلها جاءوا بعد تجربة سابقة في قبيلة عاد الأولى ، وكان عليهم أن
يستفيدوا من هذه التجربة فيسرعوا إلى الإيمان ، والنجاة ، وأنهم قد تمكنوا من
موطنهم ، واستقروا فيه .

وأنه قد تحققت لهم في هذا الموطن حضارة مادية ؛

عمرانية ببناء القصور في السهول .

أمنية بنحت الجبال ، واتخاذ مغاراتها بيوتاً أكثر أمناً .

زراعية حيث تفجرت العيون ، وانساب ماؤها بين الحدائق ذات البهجة

والشمر .

(١) سورة الأعراف ، الآية رقم ٧٤ . (٢) سورة هود ، الآية رقم ٦١ .

(٣) سورة الشعراء ، الآيات ١٤٧ - ١٤٩ .

وتدل المظاهر على ما كان لقبيلة ثمود من حضارة مادية على الرغم من إيغالها في التاريخ البشرى .

موطن ثمود :

عن ابن عمر — رضى الله عنهما — أن رسول الله — ﷺ — لما نزل الحجر في غزوة تبوك ، أمرهم ألا يشربوا من بئرها ، ولا يستقوا منها ، فقالوا : قد عجننا منها واستقيناً ، فأمرهم أن يطرحوا ذلك العجين ، ويهريقوا ذلك الماء .

وفي رواية أخرى :

أن الناس لما نزلوا مع رسول الله — ﷺ — أرض ثمود الحجر .. وأمرهم أن يستقوا من البئر التي كان تردها الناقة . (٤) :

يفهم من الروايتين أن الحجر موطن ثمود ، وهذا ما أكدته البخارى في صحيحه (٥) ، وأن هذا المكان كان بالطريق إلى تبوك ، وأن الآثار كانت واضحة

(٤) أخرج الروايتين البخارى ، ومسلم ، وأحمد ، وابن هشام ، والدارقطنى ، واللفظ للبخارى ، كتاب الأنبياء ، باب قول الله تعالى : ﴿ وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً ﴾ ج ٤ ص ١٨١ .

(٥) البخارى هو الإمام القلوة فى فن رواية الحديث النبوى الشريف . محمد بن إسماعيل البخارى ، ولد فى شوال سنة ١٩٤ هـ ببلدة بخارى ، وهى إحدى بلاد ما وراء النهر شمالى سمرقند ، وتقع حالياً فى جمهورية أوزبكستان السوفيتية ، وهى والجمهوريات الثلاث الأخرى : تركمانستان ، وطاجيكسان ، وقرخيزية — على حدود الصين وأفغانستان ، وإيران — رفرع عليه علم الإسلام حقبة طويلة ناصعة من الدهر ، وأنتجت عباقرة أمثال البخارى ، وبها كثافة سكانية ، نفى الشيوعيون منهم الملايين إلى ثلوج سيبيريا فى الشمال ليموتوا تحت التعذيب والجليد ، ليفصلوا عن أبنائهم الذين مستخدم يد الإلحاد الشيوعى ، وقد بدلوا أسماءهم .

طلب البخارى هذا الفن صغيراً ، ورد على بعض مشايخه غلطاً وهو فى إحدى عشرة سنة ، سمع الحديث ببلدة بخارى ، ثم رحل إلى عدة أماكن ، وسمع الكثير ، وألف الصحيح =

لهم ؛ حيث أمكن التمييز بين ماء وماء ، وأن الحكم الشرعى الذى أعلن على لسان صالح — عليه السلام — ظل سارياً دون نسخ حتى زمن النبى — ﷺ .

صالح — عليه السلام — يدعو قومه :

رجل معروف لدى قومه ، ومن أبناء قبيلتهم ، فهو أخ لهم ، ومعلوم السيرة فيهم ، وغير منكر منهم ؛ إنهم يسمعون صوتاً طالما استمعوا إليه من قبل وأنسوا إليه وأحبوه ، ولكنهم يستمعون الآن إلى قضية جديدة .

دعاهم إلى عبادة الله وحده ، ونيز عبادة الآلهة الباطلة ، وذكرهم بنعم الله سبحانه عليهم ، وأنهم صاروا خلفاء لن نجا من عاد الأولى قبيلة هود — عليه السلام — التى كانت بالجنوب . (أما ثمود فكانت بالشمال الغربى من الجزيرة العربية قبل تبوك من جهة المدينة المنورة كما سبق فى روايتى البخارى السابقتين) .

ولأول مرة فى تاريخ الدعوات تسبق المعجزة العاقبة — كما يظهر من السير السابقة — آية على صدق دعوة النبى صالح — عليه السلام .

قال الله تعالى :

﴿ وإلى ثمود أخاهم صالحاً ، قال : يا قوم ، اعبدوا الله ، ما لكم من إله غيره ، قد جاءكم بينة من ربكم ، هذه ناقة الله لكم آية ، فذروها تأكل فى أرض الله ، ولا تمسوها بسوء فىأخذكم عذاب إليم ، واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد ، وبوأكم فى الأرض تتخذون من سهولها قصوراً ، وتحتون الجبال

= منه من زهاء ٦٠٠,٠٠٠ حديث (ستائة ألف حديث) ألفه بمكة ، وقال : ما أدخلت فيه إلا صحيحاً ، وله علة كتب . أشهرها الجامع الصحيح ، وكانت وفاته بقرية سمرقند ليلة السبت ليلة عيد الفطر سنة ٢٥٦ هـ عن اثنتين وستين سنة ، ولم يُخلف ولداً ، رحمه الله رحمة واسعة . وتأكيده أن الحجر موطن ثمود فى الكتاب والباب السابقين فى رقم ٤ وقد فسر الحجر بقوله : الحجر موضع ثمود ، وكل ممنوع فهو حجر محجور ، والحجر : كل بناء بنيته ، وما حجرت عليه من الأرض فهو حجر .

يوتاً ، فاذكروا آلاء الله ، ولا تعثوا في الأرض مفسدين ﴿٦﴾ .
 وطلب إليهم أن يستغفروا الله سبحانه ، ويتوبوا إليه ، قال الله تعالى
 على لسانه :

﴿ واستغفروا ربكم ثم توبوا إليه ؛ إن ربي رحيم ودود ﴾ ﴿٧﴾ .
 إنه يتودد إليهم في دعوته ، ويرفق بهم ، ويدعوهم إلى ما يصلح حياتهم :
 ﴿ إذ قال لهم أخوهم صالح : ألا تتقون ؟ إني لكم رسول أمين ،
 فاتقوا الله ، وأطيعون ، وما أسألكم عليه من أجر ، إن أجرى إلا على
 رب العالمين ﴾ ﴿٨﴾ .

وحذرهم من مغبة الإسراف ، والإفساد في الأرض :
 ﴿ ولا تطيعوا أمر المسرفين ، الذين يُفسدون في الأرض
 ولا يصلحون ﴾ ﴿٩﴾ .

موقف ثمود من دعوة نبيهم صالح — عليه السلام .

لم يكتف القوم بالإنكار على النبي صالح — عليه السلام — بل زعموا
 أنه ؛ هو ومن آمن معه مصدر شؤم لهم — والعياذ بالله ، قال تعالى على لسانهم :
 ﴿ قالوا : اطبرنا بك ، وبمن معك . قال : طائرکم عند الله ، بل أنتم
 قوم تُفتنون ﴾ ﴿١٠﴾ .

كما اتهموه في عقله ، وأنه مسحور ، وزعموا أن النبي لا ينبغي أن يكون

(٦) سورة الأعراف ، الآيتان : ٧٣ ، ٧٤ . (٧) سورة هود ، الآية رقم ٩٠ .
 (٨) سورة الشعراء ، الآيات : ١٤٢ - ١٤٥ .
 (٩) سورة الشعراء ، الآيتان : ١٥١ ، ١٥٢ .
 (١٠) سورة النمل ، الآية رقم ٤٧ .

بشراً ، وأعطوا لأنفسهم — بالباطل — حق الاختيار للرسول :
﴿ قالوا : إنما أنت من المسحرين ، ما أنت إلا بشر مثلنا ، فأت بآية
إن كنت من الصادقين . قال : هذه ناقة لها شرب ، ولكم شرب يوم
معلوم ﴾ (١١) .

وأصابتهم الآفة الكبرى التي تُصيب البشرية في كل مراحلها ، آفة التقليد ،
منكرين على نبيهم خروجه على هذا التقليد .

﴿ قالوا : يا صالح ، قد كنت فينا مرجواً قبل هذا . أتئانا أن نعبد
ما يعبد آباؤنا ؟ وإننا لفي شك مما تدعونا إليه مريب ﴾ (١٢) .

وقد تسلم زمام المواجهة المستكبرون منهم فتندروا بمن آمن ، وتحلوا الآية
المعجزة ؛ فعقروا الناقة . قال الله تعالى :

﴿ قال الملأ الذين استكبروا من قومه للذين استضعفوا لمن آمن منهم :
أتعلمون أن صالحاً مرسل من ربه ؟ قالوا : إنا بما أرسل به مؤمنون . قال
الذين استكبروا : إنا بالذي آمنتم به كافرون ، فعقروا الناقة ، وعتوا عن أمر
ربهم ، وقالوا : يا صالح ، اثنا بما تعدنا إن كنت من المرسلين ﴾ (١٣) .

وانتدبوا لعقر الناقة رجلاً ذا عزة ومنعة ، وقوة في قومه ، فتحمل جريرة
ارتكاب هذا الجرم ، وصار بذلك أشقى القوم ، قال تعالى :
﴿ إذ انبعث أشقاها ﴾ (١٤) .

عن عبد الله بن زمعة (١٥) — رضى الله عنه — قال : سمعت
النبي ﷺ — وذكر الذي عقر الناقة ، قال :

« انتدب لها رجل ذو عز ومنعة في قومه كأبي زمعة » (١٦) .

(١١) سورة الشعراء ، الآيات ١٥٣ - ١٥٥ . (١٢) سورة هود ، الآية رقم ٦٢ .

(١٣) سورة الأعراف ، الآيات ٧٥ - ٧٧ . (١٤) سورة الشمس ، الآية رقم ١٢ .

(١٥) يشير الحديث الذي رواه إلى أنه كان قوياً في جسمه ، عزيزاً بين أهله .

(١٦) أخرجه البخارى ج ٤ ص ١٨١ .

سوء العاقبة :

وكانت النتيجة أن دمدم الله سبحانه عليهم ؛ بسبب ارتكاب هذا الذنب ، ذنب عقر الناقة المعجزة ، قمة التحدى منهم والكفر والعناد لما طلب إليهم نبيهم صالح — عليه السلام — من عبادة الله وحده ، ونبذ عبادة الأوثان ، والاعتدال في الإنفاق ، والإصلاح في الأرض . قال الله تعالى :

﴿ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأَهْلَكُوا بالطاغية ﴾ (١٧) .

واعتبر تكذيبهم لنبيهم صالح — عليه السلام — تكذيباً لجميع المرسلين ، وهذا الأمر تكرر سابقاً ، وسيكرر لاحقاً ، وذلك لأن الدعوة إلى الله سبحانه تقوم أساساً على التوحيد وبقية أركان الإيمان .

قال الله تعالى :

﴿ كَذَبَتْ ثَمُودُ المرسلين ﴾ (١٨) .

وظلت ثمود درساً قاسياً على مدى التاريخ .

فعن ابن عمر — رضى الله عنهما — قال : قال رسول الله — ﷺ :

« لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم ، إلا أن تكونوا باكين أن يصيبكم مثل ما أصابهم » .

وفي رواية أخرى ، زيادة « ولما مر بالحجر قال » وفي ختامها « ثم تقنع — أى النبى — ﷺ — بردائه ، وهو على الرجل » (١٩) .

(١٧) سورة الحاقة ، الآية رقم ٥ . (١٨) سورة الشعراء ، الآية رقم ١٤١ .

(١٩) أخرج الروايتين البخارى . والرواية الثانية عن سالم بن عبد الله عن أبيه — رضى الله عنهم — كتاب الأنبياء . باب ﴿ وإلى ثمود أخاهم صالحاً ﴾ ج ٤ ص ١٨١ .

فقد طلب النبي ﷺ — إلى أصحابه ، برغم أنهم متجهون إلى لقاء
الروم في تبوك صيفاً ، أن يأخذوا العبرة والعظة من أحداث الأمم السابقة ،
واختيرت أحداث ثمود هنا لما للمشاهدة من أثر تربيوى في نفوس المسلمين ،
كما اتضح الهدف ، وهو النجاة والسلامة في الدنيا من الهلاك والفساد .

دروس وعبر :

— إن الله سبحانه وتعالى ، يعطى الدنيا من يستحق ، ومن لا يستحق ؛ ابتلاءً ، واختباراً ، وأولى بالإنسان وقد توالى عليه نعم الله سبحانه أن يشكره عليها بتوجيه هذه النعم وجهتها الصحيحة .

— مفهوم الوطن والحرص عليه وجد مع الإنسان في غابر الأزمان ، ولكن قبيلة ثمود لم تُحافظ عليه المحافظة المرجوة ؛ بسبب عصيانها لله سبحانه ، فكان الهلاك والدمار لمن عاش فيه ، وما أُقيم عليه من حضارة مادية .

— إن الرسل جميعاً أسرة واحدة ، يدعون إلى الإيمان بالله سبحانه ، وتوحيده بالربوبية ، وحرص النبي — ﷺ — والقرآن الكريم على إيقاظ هذا في نفوس المسلمين كما حدث في تبوك .

— الحكم الشرعى الذى فهم من طلب صالح — عليه السلام — إلى قومه ، ظل سارى المفعول حتى زمن النبي الخاتم ، حيث لم يرد نسخ لهذا الحكم .
— يُختار الداعية المسلم المعروف بالسيرة الحميدة بين قومه ، وعليه أن يقدم دعوته إليهم مع تودد ، ورفق ، وموعظة حسنة .

— على الداعية المسلم أن يوطن نفسه على تحمل الأذى في سبيل الدعوة ؛ فقد يُتهم في عقله ، وفي اختياره هو دون غيره ، وعليه أن يفهم أن آفة البشرية في البقاء على الشرك هى التقليد ، وأن الشيطان يستغل هذه الآفة لمحاربة أى دعوة إصلاحية تزيل ما ران على المجتمع من فساد ، وما لحق بالدعوات السابقة من تحريف .

— الحذر من المستكبرين المعاندين ؛ فهم الذين يملكون المواجهة ، والتأثير فيمن دونهم .

— الاستفادة من سير السابقين ، وقصصهم ، وعدم الوقوف على الأحداث بالسرد دون الاعتبار بها .

لوط — عليه السلام

- قوم لوط — عليه السلام — وموطنهم .
- لوط — عليه السلام — يدعو قومه .
- عصيان القوم ، وإهلاكهم .
- عقوبة اللواط .
- دروس ، وعبر .

قوم لوط — عليه السلام — وموطنهم :

خاطب الله سبحانه وتعالى قريشاً مذكراً بإيهم ، ومخبراً من سوء العاقبة إن تمادوا في الكفر ، فقال :

﴿ ولقد أتوا على القرية التي أمطرت مطر السوء . أفلم يكونوا يرونها ؟ بل كانوا لا يرجون نشوراً ﴾ (١) .

فالآية الكريمة السابقة تُذكر أن قريشاً وهم موضع الحديث أتت على القرية ، وما يُذكر من آيات لاحقة أن القرية التي أمطرت مطر السوء هي القرية التي أرسل إلى أهلها لوط — عليه السلام .

ويُفهم من الآية أيضاً أن بقايا ، وأثراً تدل على مكان القرية موجودة حتى زمن نزول القرآن الكريم ؛ حيث يكون مجال الرؤية المتحدث عنها أيضاً ، قال الله تعالى في موضع آخر :

﴿ وإنكم لترون عليهم مصبحين ، وبالليل . أفلا تعقلون ﴾ (٢) .
وهذا يؤكد معاودة الرؤية لهذه القرية .

وقد دلت الاكتشافات الحديثة على صدق هذا ، وأن القرية كانت بجوار البحر الميت ، واسمها سدوم أو أدوم

لوط — عليه السلام — يدعو قومه :

شاعت في قوم لوط — عليه السلام — جريمة ارتكبت لأول مرة في تاريخ البشرية ، تلك هي إتيان الرجل الرجل شهوة من دون النساء ، وكانت هذه الجريمة وحدها كافية لأن يُرسل إلى مرتكبيها رسول هو لوط — عليه السلام — يقوم بالنصح ، ويحذر من سوء العاقبة ، ولكن القوم تمادوا في غيهم ،

(١) سورة الفرقان ، الآية رقم ٤٠ . (٢) سورة الصافات ، الآيتان ١٣٧ ، ١٣٨ .

وفعل جريمتهم ؛ فاستحقوا غضب الله تعالى :

﴿ ولوطاً إذ قال لقومه : أتأتون الفاحشة ؟ ماسبقكم بها من أحد من العالمين ؛ إنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء بل أنتم قوم مسرفون ﴾ (٣) .

وقد بلغ بهم الأمر أن رأوا أضياف لوط — عليه السلام — وما دروا أنهم ملائكة الله سبحانه ، فهرع القوم إليه ، فحاول لوط — عليه السلام — أن يوقظ عقولهم ورشدهم ، ويحذرهم أن فعلتهم مخالفة لسنة الله تعالى في الكون ، وقد تمنى أن تكون له القوة البشرية على ردهم ومنعهم .

قال الله تعالى :

﴿ ولما جاءت رسلنا لوطاً أسىء بهم وضاق بهم ذرعاً ، وقال : هذا يوم عصيب ، وجاءه قومه يهرعون إليه ، ومن قبل كانوا يعملون السيئات . قال : يا قوم ، هؤلاء بناتي هن أطهر لكم ، فاتقوا الله ، ولا تخزون في ضيفي . أليس منكم رجل رشيد ؟ قالوا : لقد علمت ما لنا في بناتك من حق ، وإنك لتعلم ما نريد ، قال : لو أن لي بكم قوة ، أو آوى إلى ركن شديد ﴾ (٤) .

وفي ذلك ما روى عن أبي هريرة — رضى الله عنه — أن رسول الله ﷺ قال :

« .. ويرحم الله لوطاً ، لقد كان يأوى إلى ركن شديد » (٥) .

(٣) سورة الأعراف ، الآيتان : ٨٠ ، ٨١ .

(٤) سورة هود ، الآيات : ٧٧ - ٨٠ .

(٥) أخرجه الشيخان . صحيح البخارى ، كتاب الأنبياء ، باب ﴿ ولوطاً إذ قال لقومه ... ﴾ ج ٤ ص ١٨٠ ، مختصر مسلم . كتاب ذكر الأنبياء وفضلهم ج ١ ص ١٨٥ رقم ١٦٠٨ واللفظ لمسلم .

أى يأوى إلى الله سبحانه ، وهو الأكبر والأقوى ، ولوط — عليه السلام — يعتقد اعتقاداً جازماً بذلك ، ولكن اللفظ يدل على تمنى القوة البشرية والركن المادى ، دون خدش للحقيقة الإيمانية ، وكان عليه أن يبرز الحقيقة الإيمانية فى قوله ، وهو يجابه القوم .

وقد ناشد لوط — عليه السلام — فيهم المروءة ، وأخوته لهم ، وأمانته بينهم ، وأنه لا يبنى من وراء جهده معهم إلا صالحهم ، وأن أجره على الله سبحانه الذى أرسله إليهم ، الذى خلقهم ، وخلق للرجال النساء ، وللنساء الرجال ؛ ليتم من التقاء الجنسين بقاء النوع الإنسانى ، وأن مجاوزة ذلك إلى ما هم عليه من فحشاء عدوان وظلم ، ثم هو بالاستمرار عليه سبيل إلى انقراض الجنس البشرى الذى تُخلق لإعمار الأرض لا الإفساد فيها . قال الله تعالى :

﴿ إذ قال لهم أخوهم لوط : ألا تتقون ؟ إني لكم رسول أمين ، فاتقوا الله ، وأطيعون ، وما أسألكم عليه من أجر ، إن أجرى إلا على رب العالمين . أتأتون الذكران من العالمين ؟ وتذرون ما خلق لكم ربكم من أزواجكم ؟ بل أنتم قوم عادون ﴾ (٦) .

عصيان القوم ، وإهلاكهم :

وأمام إصرار لوط — عليه السلام — على دعوته لقومه ، اتخذوا موقفاً منكراً ، قال تعالى :

﴿ قالوا : لئن لم تنته يا لوط ، لتكونن من المخرجين ﴾ (٧) .

أى بشاعة من القوم أشد من عزمهم على طرد نبيهم من القرية ١؟ لا لشيء إلا أنه يريد لهم الطهر ، والعفة ، وهم يريدون الإيغال فى نجس الفحشاء ، وزاد

(٦) سورة الشعراء ، الآيات : ١٦١ - ١٦٦ .

(٧) سورة الشعراء ، الآية رقم ١٦٧ .

أمرهم بشاعة عزمهم أيضاً على إخراج كل من آمن بلوط — عليه السلام — ولماذا هذا كله ؟ قال الله تعالى على لسانهم :

﴿ إِنْهُمْ أَنْاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾ (٨) .

فأى غباء أحط من هذا وأسوأ ؟

الطرد من القرية التى يسكنون فيها ، للوط — عليه السلام — ومن آمن به من القوم ؛ لأنهم يريدون الطهر ، إنهم لم يخلجوا من أنفسهم وهم ينسبون الطهر للوط — عليه السلام — ومن آمن به ، وهم أيضاً فى نفس الوقت يدمغون أنفسهم بالنجس ، وحبهم له ، ورغبتهم فيه .

وزادت المشكلة فى وجه النبی لوط — عليه السلام — حيث انضمت إليهم زوجته العجوز تخبرهم عن مكانه وهو يدعو الناس إلى الله سبحانه وإلى نبذ الفحشاء ؛ ليلحقوه حيث هو ، ويبتلوا عليه دعوته ، وجهوده .

انقسمت القرية إلى معسكرين :

معسكر المؤمنين : بقيادة لوط — عليه السلام — ويسير حسب منهج الله سبحانه والفقرة التى فطر الناس عليها ، والسعى فى قضاء الشهوة بطريقها الصحيح ، ونبذ جريمة اللواط التى انتشرت بين أهل قرية سدوم .

ومعسكر الكفر ؛ ويضم غالبية أهل القرية ، كما يضم زوجة لوط — عليه السلام — وقد أقر هذا المعسكر الفحشاء ، وتركها تنخر فى عظامهم ، بل شجعها ، وحارب من يحاربها ، وكان دور زوجة لوط — عليه السلام — دور المخبر السرى الذى يدل القوم على مكان وجود النبی — عليه السلام — ولم يتعد دورها إلى ارتكاب الفحشاء فبيوت الأنبياء مبرأة من ذلك .

وبعد أن استنفد لوط — عليه السلام — جهده ، وبذل كل ما فى وسعه

(٨) سورة النمل ، الآية رقم ٥٦ .

أعلن من جهته أنه تارك هذه القرية ، فهاجر إلى الله سبحانه ، راجياً من الله سبحانه النجاة من إهلاك سيقع بالقوم الكافرين .

قال الله تعالى :

﴿ قال : إني لعملكم من القالين ، رب نجني وأهلي مما يعملون ، فنجيناه وأهله أجمعين إلا عجوزاً في الغابرين ﴾ (٩) .

وأرسل الله سبحانه ملائكة ظنهم لوط — عليه السلام — أضيافاً ، ولكنهم أخبروه بأنهم رسل ربه سبحانه ، وأنهم أتوا لإهلاك قوم أصروا على الكفر ، وطلبوا إليه وإلى من آمن الخروج من القرية ليلاً .

قال تعالى على لسان الملائكة :

﴿ قالوا : يا لوط ، إنا رسل ربك ، لن يصلوا إليك ، فأسر بأهلك بقطع من الليل ، ولا يلتفت منكم أحد ، إلا امرأتك ؛ إنه مصيبها ما أصابهم ، إن موعدهم الصبح ، أليس الصبح بقريب ؟ فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها ، وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود ، مسومة عند ربك ، وما هي من الظالمين ببيعد ﴾ (١٠) .

وكان إهلاك القرية وكفارها بعملين :

قلب هذه القرية ليصبح عاليها سافلها ، وفي ذلك من التدمير ما فيه .

ثم قذف هذه القرية بعد قلبها بالحجارة المُحمّاة ، لأنها من سجيل جهنم .

وثوصلنا الآيات الأخيرة إلى أن هذا العقاب الذي عُوقب به السابقون ليس ببيعد عن أى ظالم في الأرض أيا كان ؟ ومتى كان ؟ في الجاهلية الأولى أو في جاهلية القرن العشرين .

(٩) سورة الشعراء ، الآيات ١٦٨ - ١٧١ :

(١٠) سورة هود ، الآيات ٨١ - ٨٣ .

عقوبة اللواط :

عن عكرمة عن ابن عباس ، قال : قال رسول الله ﷺ :
 « من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به » (١١)
 وقد اختلف أهل العلم في عقوبة الفاعل للواط ، والمفعول به بعد اتفاقهم
 على تحريره ، وأنه من الكبائر للأحاديث المتواترة في تحريره ولعن فاعله .
 فذهب جمع من الصحابة منهم ابن عباس وعلى وأبو هريرة — رضى الله
 عنهم — إلى أن حده القتل ، ولو كان بكرأ سواء أكان فاعلاً أو مفعولاً به .
 وإليه ذهب الشافعى ، واستدلوا بحديث الباب ، وبما ذكر من آثار وقد
 اختلفوا في كيفية قتل اللوطى :
 فروى عن على — رضى الله عنه — أنه يُقتل بالسيف ، ثم يُحرق لعظم
 المعصية .

وذهب عمر وعثمان — رضى الله عنهما — إلى أنه يُلقى عليه حائط .
 وذهب ابن عباس — رضى الله عنهما — إلى أنه يُلقى من أعلى بناء في البلد
 وقد حكى صاحب الشفاء إجماع الصحابة على القتل .
 وقد حكى البغوى عن الشعبي والزهرى ومالك وأحمد وإسحاق أنه
 يُرجم .

وحكى ذلك الترمذى عن مالك ، والشافعى ، وأحمد وإسحاق .
 ورؤى عن النخعى أنه قال :

(١١) أخرجه الإمام أحمد ، والترمذى ، وأبو داود ، وابن ماجة والحاكم والبيهقى .
 نيل الأوطار للشوكانى ج ٧ ص ١٢٢ وما بعدها ، كتاب الخلود ، باب « من عمل عمل
 قوم لوط » . وقال الحافظ : رجال الحديث موثقون إلا أن فيه اختلافاً .

لو كان يستقيم أن يُرجم الزاني مرتين لرجم اللوطى .

وقال المنذرى :

حرق اللوطية بالنار أبو بكر وعلى وعبد الله بن الزبير ، وهشام
ابن عبد الملك .

وذهب سعيد بن المسيب وعطاء بن أوى رباح والحسن وقتادة والنخعى ،
والثورى ، والأوزاعى ، وأبو طالب ، والإمام يحيى ، والشافعى فى قول له إلى أن
حد اللوطى حد الزانى ، فيُجلد البكر ويُغرب ، ويُرجم المحصن ، وحكاه فى
البحر عن القاسم بن إبراهيم . ورؤى عن المؤيد بالله القتل مطلقاً .

وقد عقب الشوكانى بعد ذكره الآراء السابقة بقوله :

وما أحق مرتكب هذه الجريمة ، ومقارف هذه الرذيلة الذميمة بأن يُعاقب
عقوبة يصير بها عبرة للمعتبرين ، ويُعذب تعذيباً يكسر شهوة الفسقة المتمردين .
فحقيق بمن أتى بفاحشة قوم ما سبقهم بها من أحد من العالمين أن يصلى من العقوبة
بما يكون فى الشدة والشناعة مشابهاً لعقوبتهم ، وقد خسف الله تعالى بهم ،
واستأصل بذلك بكرهم وثيبهم .

دورس وعبر :

والمثال في قصة لوط — عليه السلام — مع قومه يرى :

— أن الله سبحانه يريد للبشرية حياة الطهر والسعادة ، وأن منهج الله تعالى في كتابه الكريم ، وسنة نبيه — ﷺ — منهج نظيف بعيد عن الرجس والنجس ودنس الجاهلية بكل صورها .

وأن البشرية بعصيانها لله تعالى تتردى في حمأة الرذيلة فتهلك ، وتجنس الفساد والدمار .

— وأن كل نفس رهينة بما كسبت ، ولا تزر وازرة وزر أخرى ، فقد غُويت العجوز زوجة لوط — عليه السلام — لأنها كفرت ، ولم ينفعها إيمان زوجها .

كما أن الأهل الحقيقيين للمسلم هم من آمنوا بمنهج الله سبحانه ﴿ فأسر بأهلك ﴾ ولم تدخل في الأهل تلك العجوز ، ودخل في عداد الأهل كل مؤمن ، ولو كان بعيداً في النسب ﴿ إنما المؤمنون إخوة ﴾ .

— أن الإنسان يلقظ يفيد نفسه حين يتأمل المشاهد في الأرض من آثار تدل على السابقين ، وأنه إذا لم يستعمل عقله سيقع فيما وقع السابقون فيه .

— أن جريمة اللواط من أعظم الجرائم يجب حربها بما يتناسب وعظم الجرم ، ويدل على عظمها ما يظهر من إرسال رسول لمقاومتها ، ومقاومة أهلها ، والعقوبة التي نزلت بمرتكبيها تشير إلى ما وضع من حد فيها .

المجتمع المصاب بهذه الجريمة مجتمع قذر غير طاهر يحاربه الإسلام ويأباه ، كما يحاربه كل عاقل سوى التفكير .

— قد يعترف المجرم بجريمته ، ومع ذلك يصبر على فعلها ، ويحارب من يخالفه فيها ، شأن قوم لوط — عليه السلام .

— الله سبحانه يبرئ الأنبياء من أزواج يرتكبن الفاحشة ، وإن كان يحدث منهن المخالفة في الدعوة ، كما حدث من زوج لوط — عليه السلام — وابن نوح — عليه السلام — اختباراً وابتلاءً وتأكيذاً لقاعدة المسؤولية الفردية في الإسلام .

إبراهيم « عليه السلام »

- من صفات إبراهيم — عليه السلام .
- إبراهيم — عليه السلام — يتأمل في الكون .
- حوار مع أبيه .
- اعتزال إبراهيم — عليه السلام — لأبيه وقومه .
- إبراهيم ولوط — عليهما السلام .
- البشرى بإسماعيل — عليه السلام .
- هاجر وإسماعيل — عليه السلام — بواد غير ذي زرع .
- إبراهيم وإسماعيل — عليهما السلام — يرفعان القواعد من البيت .
- قصة الذبح والفداء .
- البشرى بإسحاق — عليه السلام .
- الكذبات الثلاث .
- (أ) الموقف الأول ، وقوله : « إني سقيم » .
- (ب) الموقف الثاني ، وقوله : « بل فعله كبيرهم هذا » .
- (ج) الموقف الثالث ، وقوله عن سارة : « أختي » .
- (د) الموقف الرابع ، وقوله حين طلب الشفاعة : « نفسي نفسي » .
- دروس وعبر .

من صفات إبراهيم — عليه السلام :

اختص الله سبحانه وتعالى إبراهيم — عليه السلام — بأن اتخذ خليلاً له ،
وتلك مكرمة جليلة لم ينلها نبي أو رسول ؛ فقد قال الله تعالى في شأنه :
﴿ واتخذ الله إبراهيم خليلاً ﴾ (١) .

وذلك لأنه إمام يقتدى به ؛ حيث وصل إلى غاية ما يتقرب به العباد له ،
فإنه انتهى إلى درجة الخلقة التي هي أرفع درجات المحبة ، وما ذاك إلا لكثرة طاعته
لربه ، فقد وصفه ربه سبحانه بقوله :

﴿ وإبراهيم الذي وفى ﴾ (٢) .

أى وفى أمور طاعته لربه سبحانه ، وقال تعالى في هذا الشأن أيضاً :
﴿ وإذا ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن ، قال إني جاعلك
للناس إماماً ﴾ (٣) .

وقد نال النبي الخاتم محمد — ﷺ — هذه المنزلة أيضاً ؛ فعن أنس بن سعيد
الخدري — رضى الله عنه — أن رسول الله — ﷺ — قال :

« إن من أمن الناس علىّ في صحبتي أباً بكر ، ولو كنت متخذاً خليلاً
من أمتي لاتخذت أباً بكر ، إلا خلة الإسلام .. » (٤) .

(١) سورة النساء ، الآية رقم ١٢٥ .

(٢) سورة النجم ، الآية رقم ٣٧ .

(٣) سورة البقرة ، الآية رقم ١٢٤ .

(٤) أخرجه الشيخان ، اللؤلؤ والمرجان ، كتاب فضائل الصحابة ، باب من فضائل
أنس بن مالك — رضى الله عنه ، رقم ١٥٤١ ص ٦٣١ . مختصر مسلم نفس الكتاب ،
والباب السابقين رقم ١٦٢٢ ج ٢ ص ١٩٠ .

وكانت توفية الخليل إبراهيم لأمر الطاعة ، والعبادة ، وإتمامه لها مؤهلاً
لأن يكون جديراً بالإمامة للناس ، كما ورد في الآية الكريمة .
وقد قال الله سبحانه وتعالى فيه أيضاً :

﴿ إن إبراهيم كان أمة ، قانتاً لله حنيفاً ، ولم يك من المشركين ﴾ (٥)

فأما الأمة : فهو الإمام الذي يُقتدى به ، والقانت : هو الخاشع المطيع ،
والحنيف : هو الذي ابتعد عن الشرك إلى التوحيد ، وليس هذا بعجيب ؛ فقد
آتاه الله سبحانه الرشد ، حيث قال في محكم كتابه :

﴿ ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل ، وكنا به عالمين ﴾ (٦) .

ومن الصفات التي نالها الخليل إبراهيم — عليه السلام — ولم ينلها غيره
« خير البرية » ؛ فعن أنس بن مالك — رضى الله عنه — قال :

جاء رجل إلى رسول الله — ﷺ — فقال : يا خير البرية ، فقال
رسول الله — ﷺ :

= واختار ابن كثير رواية أخرى عزها إلى الصحيحين عند تفسيره لآية النشاء ﴿ واتخذ
الله إبراهيم خليلاً ﴾ رقم الآية ١٢٥ ج ٢ ص ٤٠٣ ، وتتضمن روايته زيادة : « ولكن
صاحبكم خليل الله » كما ذكر في نفس المقام رواية ثالثة عن ابن مسعود — رضى الله عنه —
عن النبي — ﷺ — قال : « إن الله اتخذني خليلاً كما اتخذ إبراهيم خليلاً » .

ومن معاني الخلة : الافتقار الانقطاع ، فخليل الله : المنقطع إليه .

• وقيل : الخلة : الاختصاص .

• وقيل : الاصطفاء .

وسمى إبراهيم خليلاً ؛ لأنه والى في الله وعادى فيه ، وخلة الله تعالى له نصره ، وجعله
إماماً لمن بعده ، والمعنى : أن حب الله تعالى لم يبق في قلب الخليل موضعاً لغيره سبحانه .

(٥) سورة النحل ، الآية رقم ١٢٠ ، وتفسير الألفاظ لابن كثير .

(٦) سورة الأنبياء ، الآية رقم ٥١ .

« ذاك إبراهيم عليه السلام » (٧) .

وفي صفاته الجسمية ما حدث سمرة — رضى الله عنه — (٨) قال :

قال رسول الله — ﷺ :

أتانى الليلة آتيان . فأتينا على رجل طويل لا أكاد أرى رأسه طولاً ، وإنه إبراهيم — ﷺ » (٩) .

هذا من جانب طول قامته ، أما من ناحية الشكل العام فهو على هيئة النبي الخاتم — عليهما الصلاة والسلام ؛ فقد سمع ابن عباس — رضى الله عنهما — يقول : قال رسول الله — ﷺ :

« ... أما إبراهيم فانظروا إلى صاحبكم » (١٠) .

وأول من قام بسنة الاختتان هو الخليل إبراهيم — عليه السلام — واستمرت خصلة من خصال الفطرة إلى يوم القيامة ؛ فعن أنس بن مالك — رضى الله عنه — قال : قال رسول الله — ﷺ :

« اختتن إبراهيم — عليه السلام — وهو ابن ثمانين سنة بالقُدوم » (١١)

(٧) أخرجه مسلم ، كتاب ذكر الأنبياء وفضلهم ، المختصر ج ٢ رقم ١٦٠٦ ص ١٨٥ .

(٨) هو أبو سعيد في أكثر الأقوال ، سمرة بن جندب الفزارى ، حليف الأنصار . نزل الكوفة ، وولى البصرة ، وعداده في البصريين ، كان من الحفاظ المكثرين بالبصرة ، مات سنة تسع وخمسين . (سبل السلام ، ج ١ ص ٨٦) .

(٩) أخرجه البخارى كتاب الأنبياء ، باب قوله تعالى : ﴿ واتخذ الله إبراهيم خليلاً ﴾ ج ٤ ص ١٧٠ .

(١٠) أخرجه البخارى . الصحيح ج ٤ ص ١٧٠ .

(١١) أخرجه الشيخان ، صحيح البخارى ج ٤ ص ١٧٠ ، مختصر مسلم ج ٢ ص ١٨٥ رقم ١٦٠٧ .

وهو أول من يُكسى يوم القيامة ؛ فعن ابن عباس — رضى الله عنهما —
عن النبي — ﷺ — قال :

« إنكم محشورون حفاة عراة غُرلاً » ثم قرأ : ﴿ كما بدأنا أول خلق
نعيده ، وعداً علينا ، إنا كنا فاعلين ﴾ (١٢) وأول من يُكسى يوم القيامة
إبراهيم — ﷺ — (١٣) .

إبراهيم — عليه السلام — يتأمل في الكون

إن الله سبحانه وتعالى الذى أرسل رسله مبشرين ، ومنذرين ، هو الذى
خلق هذا الكون الفسيح ، وما فيه من كواكب وأقمار ، وشموس ، وأفلاك ،
وما على الأرض من دواب ونبات ، وجبال وأنهار . وقد طلب إلى الإنسان أن
يتأمل هذا الكون لهدفين :

الهدف الأول : إثبات قدرة الله سبحانه وعظمته في خلقه .

والهدف الثانى : التعرف على الكون ، واستكشاف أسرارهِ المقدورة
لدى البشر ، واستغلال طاقاته الكامنة ، وتصنيع خاماته المتنوعة ، والمسخرة
من الله سبحانه للإنسان .

وقد وجه الله سبحانه نبيه الخليل إبراهيم — عليه السلام — إلى هذا
الطريق ، طريق التأمل والنظر ؛ فقد تأمل النجم ليلاً فوجد فيه ما ليس في غيره
من علو وارتفاع ، ولكنه غاب بعد مدة ، والإله لا يغيب ، ثم تأمل القمر وهو
أكبر في الظاهر من النجم ، حيث اعتبار الظاهر أصلاً دون إرجاعه إلى الحقيقة ،
ووجد القمر قد غاب عن الأنظار أيضاً كالنجم ، وصعد اختياره في الكون فوجد
الشمس حيث فاقتهما ضياءً وحجماً ، وليس بعدها في الظاهر شيء ، ولكنها أيضاً

(١٢) سورة الأنبياء ، الآية رقم ١٠٤ . والغرلة : ما يُقطع في عملية الختان .

(١٣) أخرجه البخارى . الصحيح ج ٤ ص ١٦٩ .

جرى عليها التغير كسابقها فثبت يقينه بمن خلق الكون كله وما فيه من شمس ، وقمر ، ونجم ، وبرئ من الشرك والمشركون ، وتوجه إلى الله سبحانه خالصاً من أى شائبة ، وحيث أن كانت الحاجة لقومه :

﴿ وحاجه قومه ، قال : أتحتاجونى فى الله وقد هذان ؟ ولا أخاف ما تشركون به ، إلا أن يشاء رى شيئاً ، وسع رى كل شىء علماً ، أفلا تتذكرون ﴾ (١٤) .

وقد طلب الخليل إبراهيم — عليه السلام — إلى ربه سبحانه صراحة أن يريه كيف يحيى الموتى ؛ ليطمئن قلبه أكثر إلى الإيمان ، بعد أن استقر الإيمان فى قلبه أصلاً ، قال تعالى :

﴿ وإذ قال إبراهيم رب أرنى كيف تحيى الموتى ؟ قال : أو لم تؤمن ؟ قال : بلى ، ولكن ليطمئن قلبى . قال : فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك ، ثم اجعل على كل جبل منهن جزءاً ، ثم ادعهن يأتينك سعيّاً ، واعلم أن الله عزيز حكيم ﴾ (١٥) .

وحيث أن قال لمن حاجه فى ربه ، وزعم أنه يحيى ويميت : إن الله يأتى بالشمس من المشرق ؛ حيث يشاهد المرء ذلك فى الظاهر بعينه المجردة ، فإن كنت صادقاً فى زعمك بإحياء الموتى ، فأت بالشمس من المغرب — طلب واضح ومعجز — فبهت الذى كفر ، والله لا يهدى القوم الظالمين . قال الله تعالى :

﴿ ألم تر إلى الذى حاج إبراهيم فى ربه ، أن آتاه الله الملك ، إذ قال إبراهيم : رى الذى يحيى ويميت ، قال : أنا أحى وأميت ، قال إبراهيم : فإن الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب ، فبهت الذى كفر ، والله لا يهدى القوم الظالمين ﴾ (١٦) .

(١٤) سورة الأنعام ، الآية رقم ٨٠ .

(١٥) سورة البقرة ، الآية رقم ٢٦٠ .

(١٦) سورة البقرة ، الآية رقم ٢٥٨ .

حواره مع أبيه :

تعجب إبراهيم — عليه السلام — من أبيه وهو يتخذ أصناماً آلهة من دون الله تعالى ، ووصف هذا بالضلال عن الصراط المستقيم ، ولم يكن هناك من حجة لأبيه على ما يصنع ويعبد إلا تلك الحجة الموروثة عن الضالين السابقين ، حجة التقليد للأباء والأجداد ، قال تعالى :

﴿ إذ قال لأبيه وقومه : ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون ؟ قالوا : وجدنا آبائنا لها عابدين . قال : لقد كنتم أنتم وآباؤكم في ضلال مبين ﴾ . (١٧)

وقال أيضاً :

﴿ يا أبت ، لم تعبد ما لا يسمع ، ولا يبصر ، ولا يغنى عنك شيئاً ؟ يا أبت ، إني قد جاءني من العلم ما لم يأتك ، فاتبعني أهدك صراطاً سوياً ﴾ . (١٨) .

إنه يبين لأبيه ، وقومه مدى تفاهة هذه الأصنام ، وتفاهة العقول التي اتخذتها آلهة من دون الله سبحانه ، ويُعرف أباه أيضاً أن الدعوة التي تقوم على علم وبصيرة هي دعوة الحق وهي دعوة إبراهيم — عليه السلام — ولذا فقد وصف ربه سبحانه بما ورد على لسانه :

﴿ الذى خلقنى فهو يهدين . والذى هو يطعمنى ويسقن . وإذا مرضت فهو يشفين . والذى يميئتى ثم يحيين . والذى أطعم أن يغفر لى خطيئتى يوم الدين ﴾ . (١٩) .

كما قال تعالى فى شأنه :

(١٧) سورة الأنبياء ، الآيات من ٥٢ إلى ٥٤ .

(١٨) سورة مريم ، الآيتان ، رقم ٤٢ ، ٤٣ .

(١٩) سورة الشعراء ، الآيات من ٧٨ إلى ٨٢ .

﴿ وتلك حجتنا آتيناهنا إبراهيم على قومه ﴾ (٢٠) .

فماذا يقول آزر وقد أبطلت الحجة تقليد الآباء ؟ إنه صرف النظر عنها ، وأغمض عينيه ، وبدأ لا يعلن إلا العجز عن الحجة .

قال الله تعالى على لسان آزر :

﴿ أراغب أنت عن آلهتى يا إبراهيم ؟ لئن لم تنته لأرجمنك واهجرنى ملياً ﴾ (٢١) .

ولم يقف إبراهيم — عليه السلام — موقفاً سلبياً من هذا التحدى ، بل بادر بالتخطيط للمواجهة ، قال تعالى :

﴿ وتالله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين ، فجعلهم جذاذاً إلا كبيراً لهم لعلهم إليه يرجعون ﴾ (٢٢) .

ولم يهرب من الميدان حين عَلمَ القومُ بالحقيقة ، بل واجههم موبخاً ، ومتهمكاً من عقولهم :

﴿ قال : أفتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئاً ، ولا يضركم ؟ أف لكم ، ولما تعبدون من دون الله . أفلا تعقلون ؟ ﴾ (٢٣) .

وإذا كان القوم قد استطاعوا أن يستعملوا قوتهم المادية ، فقد عجزوا تماماً عن أى قوة عقلية تمنحهم الرد المعتمد على الدليل والحجة ، وإذا كانوا قد أمكنهم إلقاءه فى النار ، فقد جعل الله سبحانه هذه النار برداً ، وسلاماً ، وهذا دليل جديد على صدق دعوته ، وأن الله الخالق هو الذى يضر ، وهو الذى ينفع .

(٢٠) سورة الأنعام ، الآية رقم ٨٣ .

(٢١) سورة مريم ، الآية رقم ٤٦ .

(٢٢) سورة الأنبياء ، الآيتان رقم ٥٧ ، ٥٨ ، والجناد : الفتات ، الجذ : الكسر ، والقطع .

(٢٣) سورة الأنبياء ، الآيتان رقم ٦٦ ، ٦٧ .

﴿ وأرادوا به كيداً فجعلناهم الأخسرين ﴾ (٢٤) .

إنهم رأوا بأعينهم أنهم فعلاً الأخسرون . فها هو ذا إبراهيم — عليه السلام — ينجو من نارهم التي أجبجوها ، وظنوا أنهم بذلك سيخمدون صوت الحق المرسل إليهم من السماء ، ولكن الصوت ظل عالياً مرتفعاً .

﴿ وقال : إني ذاهب إلى ربي سيهدين ﴾ (٢٥) .

وبدأت مرحلة جديدة في مسيرة الدعوة إلى توحيد الله سبحانه .

اعتزال إبراهيم — عليه السلام — لأبيه وقومه .

ومرت الدعوة بتجربة خاضها الخليل — عليه السلام — في أقرب الناس إليه ، وهو أبوه آزر ، حين رفض الدعوة إلى التوحيد برغم نصاعة الحجة ووضوحها ، وأصر على عبادة التماثيل من دون الله سبحانه ، وعزم على رجم ابنه بالحجارة ، والطرده ، أو يسكت عن مواصلة الدعوة ، وعلى الرغم من التهديد المعلن فقد اختار الخليل — عليه السلام — الاعتزال .

﴿ قال : سلام عليك ، سأستغفر لك ربي ، إنه كان نبي حفيماً ، وأعتزلكم ، وما تدعون من دون الله ، وأدعو ربي ، عسى ألا أكون بدعاء ربي شقياً ﴾ (٢٦) .

ويتضح من النص الكريم عزم إبراهيم — عليه السلام — على طلب المغفرة لأبيه ، ثم الاعتزال عن القوم وقد أصرّوا على الشرك ، والاعتزال في ذاته مرحلة من مراحل الإنكار للمنكر ، حين لا يملك الفرد القدرة على التغيير بشكل من

(٢٤) سورة الأنبياء ، الآية رقم ٧٠ .

(٢٥) سورة الصافات ، الآية رقم ٩٩ .

(٢٦) سورة مريم الآيتان ٤٧ ، ٤٨ . الحفص : المبالغ في البر واللطف .

الأشكال ، وقد طلب الخليل — عليه السلام — المغفرة لأبيه ، بناء عن موعدة وعدها إياه .

أما طلب المغفرة للأب مع إصراره على الشرك فهو مخالف لما قرره القرآن الكريم . قال تعالى :

﴿ ما كان للنبي ، والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ، ولو كانوا أولى قرى من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم ، وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه ، فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه ؛ إن إبراهيم لأواه حليم ﴾ (٢٧) .

فآزر عدو لله سبحانه لا يجوز الاستغفار له ، وإن كان المستغفر هو الخليل إبراهيم — عليه السلام — ابن آزر ، كما أن ابن نوح — عليه السلام — لا يجوز الاستغفار له ؛ لأنه عدو لله سبحانه ، كما أن المنافقين أعداء الله سبحانه ، وأعداء دينه لا تجوز موالاتهم والاستغفار لهم بل يجب الحذر منهم وتعريتهم وكشف طويتهم ؛ حتى لا ينخدع بهم الساذجون من المسلمين .

وقد خاطب الله سبحانه نبيه محمداً — ﷺ — بعد الحديث عن الكفار والمنافقين بقوله :

﴿ استغفر لهم ، أو لا تستغفر لهم ، إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم ؛ ذلك بأنهم كفروا بالله ورسوله ، والله لا يهدي القوم الفاسقين ﴾ (٢٨) .

وعن أبي هريرة — رضى الله عنه — عن النبي — ﷺ — قال :

« يلقي إبراهيم آباه آزر يوم القيامة ، وعلى وجه آزر قفرة ، وغبرة . فيقول له إبراهيم : ألم أقل لك : لا تعصني ؟ فيقول أبوه : فاليوم لا أعصيك ، فيقول إبراهيم : يا رب ، إنك وعدتني ألا تخزني يوم يبعثون .

(٢٧) سورة التوبة ، الآيتان ١١٣ ، ١١٤ .

(٢٨) سورة التوبة ، الآية ٨٠ .

فأى خزى أخزى من أبى الأبعد ؟ فيقول الله تعالى : إني أحرمت الجنة على الكافرين . ، (٢٩) .

وتنفصم كل علاقة لا تقوم أساساً على الإيمان بالله تعالى ، مهما كانت درجتها . ويتميز معسكر الخير عن معسكر الشر تميزاً واضحاً في الدنيا طبقاً لهذه القاعدة .

إبراهيم ولوط — عليهما السلام :

كان لوط ممن آمن بالخليل إبراهيم — عليهما السلام — وقد عرفنا ذلك سلفاً ، قال الله تعالى :

﴿ قَامَنَ لَهُ لُوطُ ، وَقَالَ : إِنِّي مَهَاجِرٌ إِلَى رَبِّى ؛ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (٣٠) .

وحين حقت العقوبة على قوم لوط — عليه السلام — مرت الملائكة — الذين كُلِّفُوا إنزال هذه العقوبة فى طريقها إلى سلوم — بالخليل إبراهيم — عليه السلام — وكانوا أضيافاً عنده .

﴿ قَالَ : فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ؟ قَالُوا : إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ؛ لَنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ ، مَسْوَمَةٌ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴾ (٣١) ونحى الله سبحانه لوطاً ، كما نحى إبراهيم — عليهما السلام — وكان موطن

(٢٩) أخرجه البخارى ، كتاب الأنبياء ، باب قوله تعالى : ﴿ وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا ﴾ ج ٤ ص ١٦٩ .

(٣٠) سورة العنكبوت ، الآية رقم ٢٦ ، وفاعل قال : هو الخليل — عليه السلام . قال المفسرون : هاجر من سواد العراق إلى فلسطين والشام .

(٣١) سورة الناريات ، الآيات أرقام ٣١ ، ٣٢ ، ٣٣ ، ٣٤ .

النجاة الأرض المباركة بفلسطين . قال الله تعالى :

﴿ ونحيناه ولوطاً إلى الأرض التي باركنا فيها للعالمين ﴾ (٣٢) .

وهي مسرى النبي الخاتم محمد بن عبد الله — ﷺ — قال تعالى :

﴿ سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله ﴾ (٣٣) .

البشرى بإسماعيل — عليه السلام :

كانت الحقبة الأولى من حياة الخليل — عليه السلام — مواجهة مباشرة للشرك والمشركين ؛ يفند مزاعمهم ، ويتحداهم ، فانتصر عليهم بالحجة والبرهان ، وقد صحبته في تلك الحقبة زوجته الأولى سارة ولم تنجب ولداً حينئذ ، وأراد الله سبحانه أن تكون لهما رحلة مليئة بالمفاجآت والأخطار ينجوان منها ، ويرجعان بهدية هي هاجر .

عن أنى هريرة — رضى الله عنه — قال : بينا هو ذات يوم ، وسارة ، إذ أتى على جبار من الجبابرة ، فقيل له : إن ها هنا رجلاً معه امرأة من أحسن الناس . فأرسل إليه فسأله عنها ، فقال : من هذه ؟ قال : أختى ، فأتى سارة قال : يا سارة ، ليس على وجه الأرض مؤمن غيبي ، وغيبك ، وإن هذا سألتى ، فأخبرته أنك أختى . فلا تكذبينى . فأرسل إليها . فلما دخلت عليه ذهب يتناولها بيده ، فأخذ ، فقال : ادعى الله لى ولا أضرك ، فدعت الله فأطلق ، ثم تناولها الثانية ، فأخذ مثلها أو أشد ، فقال : ادعى الله لى ولا أضرك ، فدعت فأطلق ، فدعا بعض حجبه فقال : إنكم لم تأتوني بإنسان ، إنما أتيتموني بشيطان . فأخدمها هاجر ، فأتته (أنى الخليل — عليه السلام) وهو قائم يصلى ، فأوماً

(٣٢) سورة الأنبياء ، الآية رقم ٧١ .

(٣٣) سورة الإسراء ، الآية رقم ١ .

بيده : مهم ، قالت : رد الله كيد الكافر — أو الفاجر — في نحره ، وأخدم هاجر » قال أبو هريرة — رضى الله عنه — تلك أمكم يا بنى ماء السماء (٣٤) .

وكان الخليل — عليه السلام — بعد هذه الحادثة أن دعا ربه سبحانه راجياً أن يرزقه بولد صالح ، فاستجاب الله تعالى له بأن رزقه من هاجر بإسماعيل — عليه السلام — غلاماً حليماً ، صادق الوعد ، يأمر بالخير ، مرضياً عند ربه تعالى قال الله تعالى في شأنه :

﴿ رب هب لي من الصالحين ، فبشرناه بغلام حليم ﴾ (٣٥) .

وقال أيضاً :

﴿ واذكر في الكتاب إسماعيل ؛ إنه كان صادق الوعد ، وكان رسولاً نبياً ، وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة ، وكان عند ربه مرضياً ﴾ (٣٦) .

وحمّد الخليل إبراهيم — عليه السلام — ربه سبحانه وشكره على تلك البشرى الطيبة ، قال تعالى على لسانه :

﴿ الحمد لله الذى وهب لى على الكبر إسماعيل ، وإسحاق ؛ إن رى لسميع الدعاء ﴾ (٣٧) .

هاجر ، وإسماعيل — عليه السلام — بواد غير ذى زرع :

(٣٤) أخرجه الشيخان . اللؤلؤ والمرجان ، كتاب الفضائل ، رقم ٤٣ ، باب رقم ٤١ ، ص ٦٢٤ ، رقم الحديث ١٥٣١ ، صحيح البخارى ج ٤ ص ١٧١ . وأخذ : أى أصابه ضرر .

(٣٥) سورة الصافات ، الآيتان رقما ١٠٠ ، ١٠١ .

(٣٦) سورة مريم ، الآيتان رقما ٥٤ ، ٥٥ .

(٣٧) سورة إبراهيم ، الآية رقم ٣٩ .

أمر الله سبحانه وتعالى خليله إبراهيم — عليه السلام — بأن يسكن هاجر ، وطفلها إسماعيل — عليه السلام — مكاناً نائياً ، وله حكمة في ذلك . هذا المكان عند البيت المحرم ، وليس بمكة يومئذ أحد . قال ابن عباس — رضي الله عنهما :

جاء بها إبراهيم ، وبابنها إسماعيل — وهي ترضعه — حتى وضعهما عند البيت عند دوحة فوق زمزم ، في أعلى المسجد ، وليس بمكة يومئذ أحد ، وليس بها ماء فوضعهما هنالك ، ووضع عندهما جراباً فيه تمر ، وسقاء فيه ماء ، ثم قفى (أى عاد) إبراهيم منطلقاً ، فتبعته أم إسماعيل ، فقالت : يا إبراهيم ، أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي ، الذي ليس فيه إنس ، ولا شيء ؟ فقالت له ذلك مراراً ، وجعل لا يلتفت إليها ، فقالت : الله أمرك بهذا ؟ قال : نعم . قالت : إذن لا يضيعنا ، ثم رجعت ، فانطلق إبراهيم ، حتى إذا كان عند الثنية حيث لا يرونه ، استقبل بوجهه البيت ، ثم دعا بهؤلاء الكلمات ، ورفع يديه فقال : ﴿ ربنا ، إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم ، ربنا ليقيموا الصلاة ، فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم ، وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون ﴾ (٣٨) .

وجعلت أم إسماعيل ترضع إسماعيل وتشرب من ذلك الماء حتى إذا نفذ ما في السقاء عطشت ، وعطش ابنها ، وجعلت تنظر إليه يتلوى ، أو قال : (أى ابن عباس) يتلمظ فانطلقت كراهية أن تنظر إليه ، فوجدت الصفا أقرب جبل في الأرض يليها ، فقامت عليه ، ثم استقبلت الوادي تنظر ، هل ترى أحداً ، فلم تر أحداً ، فهبطت من الصفا حتى إذا بلغت الوادي رفعت طرف درعها ثم سعت سعى الإنسان المجهود ، حتى جاوزت الوادي ، ثم أتت المروة ، فقامت عليها ، ونظرت هل ترى أحداً ، فلم تر أحداً ، ففعلت ذلك سبع مرات . قال ابن عباس : قال النبي — ﷺ :

« فذلك سعى الناس بينهما » .

(٣٨) سورة إبراهيم ، الآية رقم ٣٧ .

فلما أشرفت على المروة سمعت صوتاً ، فقالت : صه . تريد نفسها ، ثم تسمعت ، فسمعت أيضاً ، فقالت : قد أسمعت إن كان عندك غواث ، فإذا هى بالملك عند موضع زمزم ، فبحث بعقبه — أو قال : بجناحه — حتى ظهر الماء ، فجعلت تحوضه ، وتقول بيدها هكذا ، وجعلت تغرف من الماء فى سقائها ، وهو يفور بعد ما تفرق . قال ابن عباس — رضى الله عنهما — قال النبى — ﷺ : « يرحم الله أم إسماعيل ، لو تركت زمزم — أو قال : لو لم تغرف من الماء — لكنت زمزماً معيناً » .

قال : فشربت وأرضعت ولدها ، فقال لها الملك : لا تخافوا الضيعة ؛ فإن ها هنا بيت الله يبنى هذا الغلام وأبوه ، وإن الله لا يضيع أهله ، وكان البيت مرتفعاً من الأرض كالرابية تأتية السيول فتأخذ عن يمينه وشماله ، فكانت كذلك حتى مرت بهم رفقة من جرهم — أو أهل بيت جرهم — مقبلين من طريق كداء ، فنزلوا فى أسفل مكة ، فرأوا طائراً عاثفاً ، فقالوا : إن هذا الطائر ليدور على ماء . لعهدنا بهذا الوادى وما فيه ماء ، فأرسلوا جرياً — أو جريين — فإذا هم بالماء ، فرجعوا فأخبروهم بالماء فأقبلوا . قال : وأم إسماعيل عند الماء . فقالوا : أتأذنين لنا أن ننزل عندك ؟ فقالت : نعم . ولكن لا حق لَكُمْ فى الماء . قالوا : نعم . قال ابن عباس — رضى الله عنهما — قال النبى — ﷺ :

« فألقى ذلك أم إسماعيل » (أى صار بينهم وبين أم إسماعيل إلف) ، وهى تحب الأنس (بضم الهمزة) ، فنزلوا ، وأرسلوا إلى أهلهم ، فنزلوا معهم ، حتى إذا كان بها أهل أبيات منهم ، وشب الغلام ، وتعلم العربية منهم ، وأنفسهم (أى فافهم) وأعجبهم حين شب ، فلما أدرك زوجه امرأة منهم . وماتت أم إسماعيل ، فجاء إبراهيم بعدما تزوج إسماعيل يطالع تركته ، فلم يجد إسماعيل ، فسأل امرأته عنه ، فقالت : خرج يبتغى لنا ، ثم سألها عن عيشتهم ، وهيئتهم ، فقالت : نحن بشر ، نحن فى ضيق وشدة ، فشكت إليه ، قال : فإذا جاء زوجك فاقرئى عليه السلام ، وقولى له : يغير عتبة بابه ، فلما جاء إسماعيل كأنه آنس شيئاً ، فقال : هل جاءكم من أحد ؟ قالت : نعم . جاءنا شيخ كذا وكذا ، فسألنا عنك ، فأخبرته ، وسألنى : كيف عيشتنا ؟ فأخبرته أنا فى جهد وشدة .

قال : فهل أوصاك بشيء ؟ قالت : نعم . أمرني أن أقرأ عليك السلام ، ويقول : غير عتبة بابك . قال : ذاك أرى ، وقد أمرني أن أفارقك ، الحقى بأهلك . فطلقها ، وتزوج منهم أخرى ، فلبث عنهم إبراهيم ما شاء الله ، ثم أتاهم بعد ، فلم يجده ، فدخل على امرأته ، فسألها عنه ، فقالت : خرج يبتغي لنا ، قال : كيف أنتم ؟ وسألها عن عيشهم ، وهيئتهم ، فقالت : نحن بخير ، وسعة ، وأثنت على الله ، فقال : ما طعامكم ؟ قالت : اللحم . قال : فما شرابكم ؟ قالت : الماء . قال : اللهم بارك لهم في اللحم والماء .

قال النبي — ﷺ :

« ولم يكن لهم يومئذ حَبٌّ (بفتح الحاء أى حبوب من قمح أو ذرة أو شعير) ، ولو كان لهم دعا لهم فيه . فهما لا يخلو عليهما أحد بغير مكة إلا لم يوافقاه » .

قال : فإذا جاء زوجك ، فاقرئ عليه السلام ، ومريه يثبت عتبة بابه ، فلما جاء إسماعيل ، قال : هل أتاكم من أحد ؟ قالت : نعم . أتانا شيخ حسن الهيئة ، وأثنت عليه ، فسألني عنك ، فأخبرته ، فسألني : كيف عشنا ؟ فأخبرته : أنا بخير . قال : فهل أوصاك بشيء ؟ قالت : نعم . هو يقرأ عليك السلام ، ويأمرك أن تثبت عتبة بابك . قال : ذاك أرى ، وأنت العتبة ، أمرني أن أمسكك ، ثم لبث عنهم ما شاء الله ، ثم جاء بعد ذلك ، وإسماعيل يرى نبلاً له تحت دوحة قريباً من زمزم ، فلما رآه قام إليه ، فصنعا كما يصنع الوالد بالولد ، والولد بالوالد . انتهى كلام ابن عباس — رضى الله عنهما (٣٩) .

(٣٩) الرواية بتمامها أخرجه البخارى ج ٤ ص ١٧٣ ، ١٧٤ ، ١٧٥ كتاب الأنبياء ، باب : يزفون النسلان في المشى (يزفون : يسرعون ، وفي التنزيل ﴿ فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزْفُونَ ﴾ ، والنَّسْلَان : بفتح النون المشددة ، وفتح السين : مشية الذئب إذا أسرع . المعجم الوسيط) .

والرواية كما نرى أثر من آثار ابن عباس — رضى الله عنهما — وتتضمن بعض العبارات الحديثية الشريفة النبوية .

إبراهيم وإسماعيل — عليهما السلام — يرفعان قواعد البيت .

عن أبي ذر — رضى الله عنه — قال : قلت : يا رسول الله ، أى مسجد وضع فى الأرض أول ؟ قال :

« المسجد الحرام »

قال : قلت : ثم أى ؟ قال :

« المسجد الأقصى »

قلت : كم كان بينهما ؟ قال :

« أربعون سنة ، ثم أينما أدركتك الصلاة بعد فصل ؛ فإن الفضل فيه » (٤٠) .

فى ضوء هذا الحديث ، وفى ضوء أثر ابن عباس السابق نفهم أن البيت بنى قبل ذلك العهد ، وأن بقاياها هى التى كانت موجودة ، وأن إقامة إسماعيل مع أمه هاجر كانت بجوار هذه الآثار ، وما كان عمل إبراهيم وإسماعيل — عليهما السلام — إلا رفع القواعد والآثار .

يقول الله تعالى :

﴿ وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ، ربنا تقبل منا ؛ إنك أنت السميع العليم ﴾ (٤٠) .

وذلك أن إبراهيم — عليه السلام — قال : يا إسماعيل ، إن ربك أمرنى أن .

= والآثر إذا ما كان كهذا يدل على أن ابن عباس فهم هذا النص ، أو سمع مضمونه من النبى — ﷺ . وقد مر بك أن عرفت دعاء النبى — ﷺ — له فى ترجمة سابقة ، فارجع إليها إن أردت (فصل هود — عليه السلام) .

(٤٠) أخرجهما البخارى . ج ٤ ص ١٧٧ . والآية رقم ١٢٧ من سورة البقرة .

أبنى له بيتاً . قال : أطع ربك . قال : إنه قد أمرني أن تعينني عليه . قال : إذن أفعل . أو كما قال : ربنا تقبل منا ؛ إنك أنت السميع العليم . قال : أرى ابن عباس — رضى الله عنهما — حتى ارتفع البناء ، وضعف الشيخ على نقل الحجارة ، فقام على حجر المقام ، فجعل يناوله الحجارة ، ويقولان :

﴿ ربنا تقبل منا ؛ إنك أنت السميع العليم ﴾ (٤٠) .

وارتفعت قواعد البيت الحرام (٤١) ، وحددت من السماء أحكام تخصه إلى قيام الساعة ؛ فهو لكل من آمن بالله سبحانه وحده ، أيا كان مكان هذا المؤمن ، أما الذى يريد الإلحاد فيه ، وفى حرمة فله العذاب الأليم فى الآخرة ، وله عذاب فى الدنيا أيضاً على يد أوليائه من المؤمنين ، وعلى المسلمين مسئولية تطهيره ، وتنظيفه ، وحمايته من مظاهر الشرك ، كما عليهم دعوة الناس لأداء فريضة الحج إليه ، والطواف به فيتحقق لهم من الخير فى دنياهم ، وآخرهم .

قال الله تعالى :

(٤١) مما ورد بشأن تاريخ البيت ، وبنائه .

(أ) قوله تعالى : ﴿ ربنا إني أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ﴾ سورة إبراهيم ، الآية رقم ٣٧ ، وكان هذا الدعاء على لسان الخليل — عليه السلام حين أحضر هاجر ، وإسماعيل الطفل إلى مكان إقامتهما الجديد ، حيث مكة الآن ، وكان ذلك قبل تكليفه مع ابنه رفع القواعد .

(ب) قوله تعالى : ﴿ وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت ، وإسماعيل ... ﴾ سورة البقرة ، الآية رقم ١٢٧ ، ورفع القواعد كان بعد أن شب إسماعيل ويكون قادراً على الإسهام فى البناء .

(ج) قوله تعالى : ﴿ إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركاً ... ﴾ سورة آل عمران ، الآية رقم ٩٦ ، ويدل على أنه أول بيت وضع وأقيم ، ولا يدل بشكل صريح على أن من بدأ ببناءه لأول مرة الخليل — عليه السلام .

(د) رواية أبى ذر — رضى الله عنه — التى بالأصل ، وهى توافق القرآن الكريم ، آية آل عمران من حيث الدلالة التاريخية .

(هـ) روى عن علي — رضى الله عنه — قوله : كانت البيوت قبله ، ولكنه أول بيت وضع لعبادة الله ، وكانت البركة ، وهذا القول بدوره يوافق آية آل عمران ورواية أبى ذر .
(و) عن أم المؤمنين عائشة — رضى الله عنها — أن رسول الله — ﷺ — قال لها :
« ألم ترى أن قومك لما بنوا الكعبة اقتصروا عن قواعد إبراهيم »
فقلت : يا رسول الله ، ألا تردّها على قواعد إبراهيم ؟ قال :
« لولا حدثان قومك بالكفر لفعلت » .

فقال عبد الله — رضى الله عنه — (أى ابن عمر) : لعن كانت عائشة — رضى الله عنها — سمعت هذا من رسول الله — ﷺ — ما أرى رسول الله — ﷺ — ترك استلام الركبتين اللذين يليان الحجر إلا أن البيت لم يتم على قواعد إبراهيم .
أخرجه الشيخان . اللؤلؤ والمرجان ، كتاب الحج ، باب نقص الكعبة وبنائها رقم ٨٤٢ ص ٣٠٧ .

وفى رواية أخرى عن نفس المصدر « فإن قريشاً استقصرت بناءه ... » ، « إن قومك قصرت بهم النفقة » .

وتدل الروايات على أن قريشاً قامت ببنائه ، ولعل سبباً أصابه ، وتداعى البناء بسببه فقامت قريش بنقضه ، وإعادة بنائه ، وقد أسهم النبي — ﷺ — فى بنائه هذا قبل البعثة .
(ز) « لما بنيت الكعبة ، ذهب النبي — ﷺ — وعباس ينقلان الحجارة ، فقال عباس له : اجعل إزارك على رقبتيك يقيك من الحجارة ، فخر إلى الأرض ، وطمحت عيناه إلى السماء ، ثم أفاق . فقال : « إزارى ، إزارى ، فشد عليه إزاره » صحيح البخارى ج ٥ ص ٥١ ، وتوجد روايات أخرى بنفس الباب .

وتدل هذه الرواية على إسهام النبي — ﷺ — فى البناء بالإضافة إلى ما فهم سلفاً من بناء قريش .

كما روى الإمام أحمد بسند حسن أن قريشاً حين اختلفت فى وضع الحجر الأسود ارتضت أن يكون أول داخل من باب الصفا حكماً ، فلما رأوا محمداً — ﷺ — هتفوا : هذا الأمين ، ارتضيناه حكماً ... » .

(ح) قال البخارى : كان البناء للكعبة نفسها . أما الحائط الذى يدور حولها فالذى بناه عمر ، وأكمّله ابن الزبير جـ ٥ ص ٥١ .

(ط) قال ابن كثير فى البداية والنهاية ، جـ ١ ص ١٦٦ :

وقد بناها ابن الزبير — رحمه الله — (أى الكعبة) فى أيامه على ما أشار إليه رسول الله — ﷺ — حسبما أخبرته عائشة أم المؤمنين عنه ، فلما قتله الحجاج فى سنة ثلاث وسبعين كتب إلى عبد الملك بن مروان الخليفة إذ ذاك ، فاعتقدوا أن ابن الزبير إنما صنع ذلك من تلقاء نفسه ، فأمر بردها إلى ما كانت عليه ، فنقضوا الحائط الشامى ، وأخرجوا منها الحجر ، ثم سدوا الحائط ، وردموا الأحجار فى جوف الكعبة فارتفع بابها الشرقى ، وسدوا الغربى بالكلية كما هو مشاهد إلى اليوم ، ثم لما بلغهم أن ابن الزبير إنما فعل ذلك لما أخبرته عائشة أم المؤمنين ندموا على ما فعلوا ، وتأسفوا أن لو كانوا تركوه ، وما تولى من ذلك ، ثم لما كان فى زمن المهدي بن المنصور استشار الإمام مالك بن أنس فى ردها على الصفة التى بناها ابن الزبير . فقال له : أخشى أن يتخذها الملوك لعبة . يعنى كلما جاء ملك بناها على الصفة التى يريد فاستقر الأمر على ما هى عليه اليوم .

﴿ والمسجد الحرام الذى جعلناه للناس ، سواء العاكف فيه والباد ، ومن يرد فيه بإلحاد بظلم نذقه من عذاب أليم ، وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت ألا تشرك بى شيئاً ، وطهر بيتى للطائفين ، والقائمين ، والركع السجود ، وأذن فى الناس بالحج يأتوك رجالاً ، وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق ؛ ليشهدوا منافع لهم ، ويذكروا اسم الله فى أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام ، فكلوا منها ، وأطعموا البائس الفقير ، ثم ليقتضوا تفثهم ، وليوفوا نذورهم ، وليطوفوا بالبيت العتيق ﴾ (٤٢) .

وقد دعا إبراهيم الخليل — عليه السلام — ربه سبحانه أن يقبل عمله ، وأن يجعل من ذريته أمة مسلمة ، وأن يبعث فيها رسولاً منهم ، يتلو عليهم آيات الله سبحانه ، ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم ، وقد استجاب الله سبحانه دعاء الخليل — عليه السلام — فى النبى الخاتم محمد — ﷺ — (٤٣) ورد على مزاعم اليهود والنصارى فيه — عليه السلام — قال الله تعالى :

﴿ ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ، ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين . إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبى ﴾ (٤٤) .

وقال أيضاً :

(٤٢) سورة الحج ، الآيات من رقم ٢٥ إلى رقم ٢٩ .

(٤٣) أخرج الإمام أحمد عن العرياض بن سارية ، وأبى أمانة — رضى الله عنهما — والرواية المختارة لأبى أمانة . قال : قلت يا رسول الله ، ما كان أول بدء أمرك ؟ قال : « دعوة أبى إبراهيم ، وبشرى عيسى بنى ... » ابن كثير فى تفسير الآية الكريمة والدعوة ، والبشرى وردتا بالقرآن الكريم ، أما الدعوة : فالآية الكريمة التى بالأصل ، وأما البشرى : فهى قوله تعالى على لسان عيسى ابن مريم — عليه السلام — حين قام خطيباً فى بنى إسرائيل : ﴿ إني رسول الله إليكم مصداقاً لما بين يدي من التوراة ومبشراً برسول يأتي من بعدى اسمه أحمد ﴾ سورة الصف ، الآية رقم ٦ .

(٤٤) سورة آل عمران ، الآية رقم ٦٧ .

﴿ ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه ، ولقد اصطفيناه في الدنيا ، وإنه في الآخرة لمن الصالحين ، إذ قال له ربه : أسلم . قال : أسلمت لرب العالمين ﴾ (٤٥) .

قصة الذبح والفداء :

عرفنا فيما سبق أن الله سبحانه قد نحى الخليل إبراهيم — عليه السلام — من كيد قومه ، وأنه قد هاجر إلى الأرض التي بارك الله فيها حول المسجد الأقصى ، وأنه قد دعا ربه سبحانه أن يرزقه بولد صالح ، واستجاب الله له في إسماعيل — عليهما السلام — وأنه ذهب بابنه الرضيع وبأمه هاجر إلى واد غير ذى زرع عند البيت المحرم ، وأنهما قد رفعا قواعد البيت الحرام . ودعوا الله سبحانه لهما ولذرتهما والرسول الذى يأتى من نسلهما .

ثم كانت رؤيا — ورؤيا الأنبياء حق — فقد رأى الخليل إبراهيم — عليه السلام — فى المنام أنه يذبح ابنه إسماعيل — عليه السلام — الذى بلغ معه السعى ، وقد كان الولد الأول قبل إسحاق — عليه السلام — وكانت المشورة بين الأب وابنه فى تنفيذ الرؤيا . على أى وجه تكون ، والابن ممثّل أمر والده ، وقد علم أن الله سبحانه قد أمر والده بذلك ، وقد سبق أن عرفنا من صفات هذا الابن أنه : صادق الوعد ، رسول ، نبي ، يصلى ، ويأمر أهله بالصلاة ، مرضى عند ربه ، فمن يجمع هذه الصفات يكون من أول الممثلين لأمر الله سبحانه ، وقد كان .

يقول الله تعالى فى هذا الشأن :

﴿ فلما بلغ معه السعى ، قال : يا بني ، إني أرى فى المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترى ؟ قال : يا أبت ، افعل ما تؤمر ستجدنى إن شاء الله من الصابرين . فلما أسلما وتله للجبين ، ونادياه : أن يا إبراهيم ، قد صدقت

(٤٥) سورة البقرة ، الآيتان رقما ١٣٠ ، ١٣١ .

الرؤيا ؛ إنا كذلك نجزي المحسنين . إن هذا هو البلاء المبين . وفديناه بذبح عظيم . وتركنا عليه في الآخرين . سلام على إبراهيم * كذلك نجزي المحسنين . إنه من عبادنا المؤمنين ﴿ ٤٦ ﴾ .

وتخبرنا الآيات الكريمة السابقة عن هذا الموقف بعدة أمور :

— أن وقت الذبح حين اكتمل جسم إسماعيل — عليه السلام — وبلغ سنّ الرشد .

— وأن إسماعيل قد صارت لديه القدرة على السعى ، والحركة كدليل على الحيوية والنشاط .

— وأن الله سبحانه قد أوحى إلى نبيه الخليل عن طريق الرؤيا المنامية بالذبح كعملية تنفيذ للذبح ، وليس بصيغة الأمر ، وأن إبراهيم فهم من ذلك الأمر بالذبح ، على الرغم من عدم ورود صراحة .

— وأنه قد استشار ابنه في أمر قد عزم هو أولاً على تنفيذه ، تأكيداً لمشروعية المشورة في الأمور المتعلقة بالآخرين ، وثقة منه بأن ابنه سيلبي أمر ربه سبحانه .

— وأن إسماعيل — عليه السلام — كان عند حسن ظن أبيه به ، وأنه معتقد منذ الوهلة الأولى بأن هذا أمر الله سبحانه للوالد ، والولد . ولذا قال تعالى على لسانه :

﴿ يا أبت ، افعل ما تؤمر ﴾ فتؤمر مضارع مبنى للمجهول ، أى افعل ما يأمرك الله سبحانه به .

— وأن مثل هذا الأمر ابتلاء شديد يحتاج إلى صبر كبير ، ولم يذكر إسماعيل — عليه السلام — بأنه سيكون صابراً ، متحدثاً عن نفسه فقط ، بل ما هو إلا واحد من جملة الصابرين على دعوة الله سبحانه ، وتحمل تبعاتها ،

(٤٦) سورة الصافات ، الآيات من رقم ١٠٢ إلى رقم ١١١ .

وأعبائها ، وتضحياتها ، ثم هو في نفس الوقت يعلق أمر الصبر على مشيئة الله سبحانه ، وذلك دين الصالحين : ﴿ ولا تقولن لشيء إني فاعل ذلك غداً إلا أن يشاء الله ﴾ سورة الكهف ، الآية رقم ٢٣ ، ٢٤ .

— أسلم كل من إبراهيم وإسماعيل — عليهما السلام — لأمر الله سبحانه ، واستسلما له ، وانقادا وأذعنا ، فالخليل امتثل لأمر الله ، وإسماعيل كانت طاعته لله ولأبيه .

— مباشرة الخطورة الأولى في التنفيذ بأن تله للجبين ، وأكبه على وجهه ، وخابت كل مساعي الشيطان في صده عن الامتثال .

روى الإمام أحمد (٤٧) من طريقين عن ابن عباس — رضى الله عنهما — أنه قال : لما أمر إبراهيم — عليه الصلاة والسلام — بالناسك عرض له الشيطان عند السعى ، فسابقه فسابقه إبراهيم — عليه السلام — ثم ذهب به جبريل إلى جمرة العقبة ، فعرض له الشيطان فرماه بسبع حصيات ؛ حتى ذهب ، ثم عرض له عند الجمرة الوسطى ، فرماه بسبع حصيات ، وثم تله للجبين ، وعلى إسماعيل قميص أبيض . فقال له : يا أبت ، إنه ليس لي ثوب تكفنتي فيه غيره ، فاخلمه ، حتى تكفنتي فيه ، فعالجه ليخلمه فنودى من خلفه : ﴿ أن يا إبراهيم ، قد صدقت الرؤيا ﴾ فالتفت إبراهيم فإذا بكبش أبيض أقرن أعين . قال ابن عباس : لقد رأينا أن نتبع ذلك الضرب من الكباش » تفسير ابن كثير للآيات .

وهذا الأثر موافق في المضمون لما ذكرته الآيات بشكل مجمل كما ترى ، مما يشجع على ذكره في الأصل .

(٤٧) الإمام أحمد :

١ — ولد سنة ١٦٤ هـ .

٢ — لقي في صدر شبابه الإمام الشافعي بمكة في موسم الحج ، وكان الشافعي يروى الحديث عنه .

٣ — وكتابه المسند الأعظم من أعظم كتب الحديث ، سجل فيه أربعين ألفاً ، =

— أن الله سبحانه فدى إسماعيل بذبح عظيم ، وترك له في ذريته الذكر الطيب ، والتسليم عليه متى ذكر اسمه — عليه السلام ، حتى صارت الصلاة والسلام عليه ضمن تشهد كل مسلم في الصلاة .

— أن الله سبحانه يجزى المحسنين على إحسان أعمالهم ، ملتزمين في ذلك شرع الله سبحانه ، فالحسن ما حسنه الله سبحانه ، والقبیح ما قبحه ، ﴿ يريد الله بكم اليسر ، ولا يريد بكم العسر ﴾ سورة البقرة ، الآية رقم ١٨٥ .

— أن قمة الأعمال هي الإيمان بالله وحده ، وبما أمر به ، ثم إحسان العمل . وقد تحقق كل من الإيمان والإحسان في كل من إبراهيم وإسماعيل — عليهما السلام — خاصة في مسألة الذبح والفداء .

اختارها من بين ثلاثة أرباع المليون من الأحاديث . وابنه عبد الله كان راوية هذا السند .

٤ — من تلاميذ حلقة البخارى ، ومسلم ، وأبو داود ، والشافعى .
٥ — وثارت فتنة خلق القرآن ، فكان على منهج أهل السنة والجماعة مخالفاً بذلك الخليفة والمعتزلة .

٦ — في سنة ٢٢٠ أجريت محاكمته في مجلس المعتصم ؛ ليقر برأى المعتزلة ، فجادل بنصوص الكتاب ، والسنة فأقحم الخليفة والمعتزلة ، وأخيراً علق الإمام بالعقابين ، وتعاقب عليه الجلادون ، حتى غاب عن عقله ، وطرحوه على الأرض ، وداسوا عليه ، فلما أفاق صلى والدم يسيل من ثيابه .

٧ — ظلت محنته مع أمراء ثلاثة ، المأمون ، وأخيه المعتصم ، والواثق بن المعتصم ، إلى أن خلفه المتوكل سنة ٢٣٣ فعاد إلى الجماعة .

٨ — على الرغم من تقريب المتوكل له ردحاً من الزمن إلا أنه لم يطعم طعام الخليفة ورفض عطاءه تورعاً ، وتنزيهاً ، فضرب المثل حال الرخاء كما ضرب المثل حال الشدة والإيذاء .

٩ — وقد توفى في يوم الجمعة ١٢ من ربيع الأول سنة ٢٤١ هـ .

— القصة تدل من سياقها على أن مراد الله من إبراهيم لم يكن ذبح إسماعيل بدليل أن الذبح لم يحدث ، وإنما كان المراد أن يذبح إبراهيم شغفه الزائد بابنه ، ومحبه الزائدة لابنه وتعلقه الزائد بابنه ، إذ لا يجوز أن يكون في قلب النبي ﷺ — تعلق بغير الله لا دنيا ، ولا ولد ، ولا جاه ، ولا سلطان ، كل هذه الأمور لا يصح أن يتعلق بها قلب النبي ، وكما هو معلوم كان إسماعيل قد جاء لأبيه إبراهيم على كبر ، وعلى شيخوخة ، فشغف به قلب الشيخ ، وتعلق به ، فجاء امتحان الله لنبيه ضرورياً ، وما حدث في القصة يدل على سلامة هذا التفسير ، فما أن صدع النبي لأمر ربه ، وأشرع سكينه ليذبح ولده جاء أمر السماء بالفداء .

البشرى بإسحاق — عليه السلام

عرفنا فيما سبق أن إبراهيم — عليه السلام — اتخذ من سارة زوجاً له ، وأن هاجر قد وهبت لها من الملك الجبار بعد أن انتصرت عليه ، وصارت هاجر بعد ذلك أمّاً لإسماعيل من إبراهيم — عليهما السلام — ولم تكن سارة قد أنجبت بعد ، فقد صارت عجوزاً عقيماً لزوج كبير طاعن في السن ، وليس لثلهما عادة أن ينجبا .

ولكن الله سبحانه أراد ، وإرادته حق ، ولا راد لقضائه ، ولا معقب لحكمه . فعين مرت الملائكة — عليهم السلام — بإبراهيم — عليه السلام — وهو بالأرض المباركة ، في طريقهم إلى قرية سدوم ؛ حيث قوم لوط — عليه السلام — لتدمير القرية ، وإهلاك القوم ، كانت لهم وظيفة أخرى مختلفة عن الوظيفة السابقة هي البشرى بإسحاق ، وسمعت سارة الزوج العقيم لزوج شيخ بالغ في الكبر ، فلم تملك إلا التعجب من تلك البشرى ، بعد ضحكها وسرورها من خبر إهلاك قوم لوط وصاحت قائلة : أألد وأنا عجوز ؟ فما كان من الملائكة إلا أن ردوا الأمر إلى الله سبحانه .

قال الله تعالى :

﴿ هل أتاك حديث إبراهيم المكرمين ؟ إذ دخلوا عليه فقالوا :

سلاماً ، قال : سلام ، قوم منكرون . فراغ إلى أهله فجاء بعجل سمين ، فقربه إليهم ، قال : ألا تأكلون ؟ فأوجس منهم خيفة . قالوا : لا تخف . وبشروه بغلام عليم ، فأقبلت امرأته في صرة ، فصكت وجهها ، وقالت عجوز عقيم . قالوا : كذلك قال ربك . إنه هو الحكيم العليم . قال : فما خطبكم أيها المرسلون ؟ قالوا : إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين .. ﴿ ٤٨ ﴾ .

وقال الله تعالى أيضاً :

﴿ ولقد جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى قالوا : سلاماً . قال : سلام . فما لبث أن جاء بعجل حنيذ ، فلما رأى أيديهم لا تصل إليه نكرهم ، وأوجس منهم خيفة ، قالوا : لا تخف . إنا أرسلنا إلى قوم لوط ، وامرأته قائمة فضحكت فبشرناها بإسحاق ، ومن وراء إسحاق يعقوب ، قالت : يا ويلتى أألد وأنا عجوز وهذا بعلى شيخاً ؟ إن هذا لشيء عجيب . قالوا : أتعجبن من أمر الله ؟ رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت ؛ إنه حميد مجيد . فلما ذهب عن إبراهيم الروع ، وجاءته البشرى يجادلنا في قوم لوط . إن إبراهيم لحليم أواه منيب . يا إبراهيم أعرض عن هذا ؛ إنه قد جاء أمر ربك ، وإنهم آتيهم عذاب غير مردود .. ﴾ ﴿ ٤٩ ﴾ .

وقال :

﴿ وبشرناه بإسحاق نبياً من الصالحين . وباركنا عليه ، وعلى إسحاق ومن ذريتهما محسن ، وظالم لنفسه مبين ﴾ ﴿ ٥٠ ﴾ .

والآيات الكريمة السابقة تحدد وقت البشرى ، ومكانها ، وأثرها في نفسية الزوجين ، كما تحدد نوعية هذه البشرى في الذرية ، وبشيء من التفصيل نذكر :

(٤٨) سورة الذاريات الآيات من رقم ٢٤ إلى رقم ٣٢ .

(٤٩) سورة هود ، الآيات من رقم ٦٩ إلى رقم ٧٦ .

(٥٠) سورة الصافات ، الآيتان رقما ١١٢ ، ١١٣ .

- أن الله سبحانه قد بشر إبراهيم — عليه السلام — وزوجه سارة
بوساطة الملائكة — عليهم السلام . وقد نزلوا عليهما ضيوفاً .
- أن من الواجب على القادم أن يلقي التحية بالسلام ، وأن على المسلم
عليه أن يرد على التحية بمثله ، أو بأحسن منها ، وقد رد الخليل بالأحسن ، فقد
قالوا : « سلاماً » بالنصب ؛ مفعول لفعل محذوف ، أى نسلم سلاماً أو نلقى
سلاماً ، وقال إبراهيم : « سلامٌ » بالرفع على أنه مبتدأ خبره محذوف أى عليكم
سلام ، والجملة الاسمية أقوى وأثبت من الفعلية ، فكان الردّ بالأحسن .
- أن الله سبحانه كما أكرم ملائكته بتحمل طاعته ، وتلبية أمره ، قد
أكرمهم أيضاً خليل الله بتقديم القرى لهم (بكسر القاف وهو طعام الضيف)
دون أن يعلم من هم ؟ فكان كرمه للضيف لأنه ضيف . وليس لمنزلتهم
وجاههم ، وفى ذلك من الخير ما فيه .
- أن إكرام الضيف لازم ، ويكون بأطيب ما عند المضيف ، فقد جاء
إليهم بعجل سمين ، ولا يظنن ظان الإسراف فى ذلك ، فالإسراف إذا ما كان إلقاء
ورمى لما تبقى ، ولم تتحدث الآية عن ذلك ، فبقى الأمر على حفظ المال من
التضييع .
- أن إبراهيم — عليه السلام — حين رآهم لم يتقدموا إلى الطعام بعد
تقريبه منهم ، أو جس فى نفسه خيفة منهم . فشأن الضيف الكريم أن يأكل من
طعام مضيفه أيا كان نوع الطعام ، فما بالهم والطعام شهى وكثير ؟!
- أن الإفصاح عن حقيقتهم بدأ بنصحه بترك الخوف ، فهم لا يخاف
منهم ، ثم أنهم ملائكة مرسلون إلى قوم لوط ، وإبراهيم يعلم من لوط ؟ فقد آمن
به سلفاً .
- أن وقع خبر الإهلاك للظالمين كان طيباً وخاصة فى نفس سارة ،
مما يدل على أن المسلم يفرح إذا ما أذل الله سبحانه الشرك والمشركين ، ونصر
الإسلام والمسلمين ﴿ يفرح المؤمنون بنصر الله ، ينصر من يشاء ﴾ .
- مع فرح سارة سواء أكان من أمر الملائكة ، أو من أمر إهلاك

الظالمين كانت الفرصة سانحة للبشرى بإسحاق ، ومن خلف إسحاق يعقوب ومن ذرية إبراهيم ، وإسحاق ويعقوب من باركه الله لأنه أحسن العمل ، وبالمقابل من ذريتهم المسمى الظالم لنفسه .

— أثارت البشرى نفسية سارة ، في حين سكنت الآيات عن أثر البشرى في نفسية الخليل ، مما يدل على موقف سارة ، وتعجبها . شأن المسلم العادى ، ومهما سما إيمانها فلن يرقى إلى درجة إيمان الخليل الرسول — عليه السلام — الذى سمع البشرى ، ورد الأمور كلها إلى الله سبحانه ، وله في تجربة الذبح أكبر دليل على ذلك .

— أن روعاً أصاب الخليل إما حين رأى أيديهم لا تصل إلى الطعام ، وإما من البشرى . على أى حال فهو لم ينطق بما يثير نوعاً من الاعتراض . وحين أفاق لم يناقش البشرى ، ولكنه ناقش في قوم لوط ، فطلب إليه الإعراض عن المناقشة في قوم حقت عليهم كلمة العذاب لارتكابهم جريمة لم يسبقهم بها من أحد من العالمين .

— إذا قال الله سبحانه فلا معقب لحكمه ، ولا راد لقضائه ﴿ كذلك قال ربك إنه هو الحكيم العليم ﴾ .

— كما نرى في الآيات بعض صفات إسحاق — عليهم الصلاة والسلام . فهو ابن نبي ومن الصالحين ، وغلام عليم ، بارك الله عليه وعلى أبيه من بيت تنزل عليه رحمة الله ، وبركاته ، وستكون له ذرية تبدأ بابنه يعقوب ، الكريم بن الكريم بن الكريم — عليهم الصلاة والسلام .

عن أبى هريرة — رضى الله عنه — أنه قال : قيل : يا رسول الله ، من أكرم الناس ؟ قال :

« أتقاهم »

فقالوا : ليس هذا نسألك . قال :

« فيوسف نبي الله ، ابن نبي الله ، ابن خليل الله .. » (٥١) .

هذا وقد كان من نسل إسحاق بنو إسرائيل منهم الظالم ، ومنهم المحسن ،
ومن المحسنين أنبياء بنى إسرائيل — عليهم السلام جميعاً .

ومن نسل إسماعيل — عليه السلام — كان العرب ، ومنهم الظالم ومنهم
المحسن ، وفي قمة المحسنين النبي الخاتم محمد بن عبد الله — ﷺ .

الكذبات الثلاث .

عن أبي هريرة — رضى الله عنه — قال : أتى النبي — ﷺ — بلحم ،
فقال :

« إن الله يجمع يوم القيامة الأولين والآخرين في صعيد واحد ،
فيسمعهم الداعي ، وينفذهم البصر ، وتدنو الشمس منهم » فذكر حديث
الشفاعة ، « فيأتون إبراهيم ، فيقولون : أنت نبي الله ، وخليله من الأرض .
اشفع لنا إلى ربك ، ويقول : فذكر كذباته . نفسى نفسى ، اذهبوا إلى
موسى . » (٥٢) .

قال أبو هريرة — رضى الله عنه : لم يكذب إبراهيم — عليه السلام —
إلا ثلاث كذبات : ثنتين منهن في ذات الله عز وجل ، قوله : إني سقيم ،
وقوله : بل فعله كبيرهم هذا . وقال بينا هو ذات يوم وسارة ، إذ أتى على جبار
من الجبارة ، فقيل له : إن ها هنا رجلاً معه امرأة من أحسن الناس فأرسل إليه
فسأله عنها ، فقال : من هذه ؟ قال : أختى . فأتى سارة ، فقال : يا سارة ،
ليس على وجه الأرض مؤمن غيرى وغيرك ، وإن هذا سألتى فأخبرته أنك أختى ،

(٥١) أخرجه الشيخان . اللؤلؤ والمرجان . كتاب الفضائل رقم ١٥٣٨ .

(٥٢) صحيح البخارى ج ٤ ص ١٧٢ كتاب الأنبياء ، وقال البخارى : وتابعه أنس عن
النبي — ﷺ .

فلا تكذبنى .. » (٥٣) .

وفي ضوء النصين الصحيحين السابقين نرى أن للخليل إبراهيم — عليه السلام — مواقف ثلاثة في الدنيا ، كانت ذات أثر في موقف رابع في الآخرة .

وهذه المواقف على ترتيبها في النصين كالآتي :

الموقف الأول ، وقوله : « إني سقيم »

قال الله تعالى :

﴿ وإن من شيعته لإبراهيم ، إذ جاء ربه بقلب سليم . إذ قال لأبيه وقومه : ماذا تعبدون ؟ أثفكاً آلهة دون الله تريدون ، فما ظنكم برب العالمين ؟ فنظر نظرة في النجوم ، فقال : إني سقيم . فتولوا عنه مدبرين ، فراغ إلى آلهتهم فقال : ألا تأكلون ؟ ما لكم لا تنطقون ؟ فراغ عليهم ضرباً باليمين ، فأقبلوا إليه يزفون . قال : أتعبدون ما تحتون ؟ والله خلقكم وما تعملون . قالوا : ابنوا له بنياناً فألقوه في الجحيم . فأرادوا به كيداً فجعلناهم الأسفلين ﴾ (٥٤) .

وضحت هذه الآيات الموقف الذي ورد فيه قوله تعالى على لسانه : ﴿ إني سقيم ﴾ .

فإبراهيم — عليه السلام — من شيعة نوح — عليه السلام — وامتداد للنبوة والدعوة إلى الله سبحانه .

(٥٣) أخرجه الشيخان . اللؤلؤ والمرجان . كتاب الفضائل ، باب من فضائل إبراهيم الخليل — عليه السلام — رقم ١٥٣١ ص ٦٢٣ . وصحيح البخارى ج ٤ ص ١٧١ كتاب الأنبياء ، باب قوله تعالى : ﴿ واتخذ الله إبراهيم خليلاً ﴾ وعزاه ابن كثير أيضاً إلى أصحاب السنن في تفسيره لسورة الصافات ج ٦ ص ٢١ عند قوله تعالى : ﴿ إني سقيم ﴾ .

(٥٤) سورة الصافات ، الآيات من ٨٣ إلى ٩٨ .

والله سبحانه يخبر بأنه قد سلم قلبه من أى شائبة من الانحراف ، وقد دلل الله على سلامة القلب ونقاؤه ببيان موقفه من القوم وفيهم أبوه ، وكذلك موقفه من أصنامهم .

فقد سخر إبراهيم — عليه السلام — من أصنامهم وعبادتهم إياها ؛ وذلك عن طريق هذا الاستفهام الإنكارى ﴿ ماذا تعبدون ؟ ﴾ فهو يعلم ماذا يعبدون ، ولكنه يسخر منهم ، وينكر عليهم تلك العبادة الباطلة .

واتهمهم بالكذب فى حق الله سبحانه ؛ حيث عبدوا أصناماً وصفوها كذباً بالآلهة .

وبين لهم فى نفس الوقت الطريق الصحيح إلى عبادة رب العالمين ، رب الكون كله ، بما فيه من شمس وقمر وكواكب ، وأرض ودواب وإنس وجن ، وشجر وحجر . رب العوالم كلها .

وأضافت آيات أخرى ما ورد على ألسنة القوم من دعاوى .

إنهم ﴿ قالوا : وجدنا آباءنا لها عابدين ﴾ وليس عندنا من وقت لنفكر فى تغيير ما ورثناه من تقاليد .

وعلى الرغم من أنه قال لهم : ﴿ لقد كنتم أنتم وآباؤكم فى ضلال مبين ﴾ (٥٥) وفتح عقولهم لتناول الميراث البشرى بالنقد أعادوا الكرة عليه ساخرين : ﴿ قالوا : أجبنا بالحق ، أم أنت من اللاعين ﴾ (٥٥) فوضح لهم بلوره هذا الحق المستفهم عنه ﴿ قال : بل ربكم رب السموات والأرض الذى فطرهن ، وأنا على ذلك من الشاهدين ﴾ (٥٥) .

وهنا كان العزم والتصميم على عمل مؤثر ، وموجع فى نفس الوقت فأقسم بالله سبحانه ﴿ وتالله لأكيذن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين ﴾ (٥٥) .

وسواء سمع القوم بذلك أم لا فإن إبراهيم — عليه السلام — قد عزم على

(٥٥) سورة الأنبياء الآيات ٥٣ — ٥٧ .

الكيد للأصنام والقوم ، وعليه أن يضع الخطة المحكمة لتنفيذ ما عزم عليه . وهل ينفع كيد على نحو بالغ وموجع والقوم حاضرون ؟

إنه يلزم أن ينتهز فرصة غيابهم وتوليهم ، وإدبارهم ، ليقوم بتنفيذ الخطة طلبوا إليه الذهاب معهم ، والرجوع بصحبهم ﴿ فقال : إني سقيم ﴾ ومن معاني السقم المرض ، والضعف على أى نحو من الأنحاء ، كلمة يمكن أن تنسحب على أى حالة من حالات الإنسان في إطار الضعف أو الهزال ، أو المرض أو ... وإن في المعارض لمنلوحة عن الكذب ، وقد كان النبي — ﷺ — إذا أراد غزوة ورى بغيرها إلا في تبوك .

فلم اعتبرها الخليل إبراهيم نفسه كذبة من الكذبات ، والموقف على هذا النحو ؟ سلامة قلب ، وإنكار لمنكر باليد ، واللسان ، وتحطيم للطاغوت ؟

إن درجات الرسل الكرام ، العالية مكانتهم عند الله ، هي التي تجعلهم في هذا المستوى من الحساسية ، فيتصورون ما فيه أدنى شبهة من الكذب في حق الله سبحانه ، كبيراً وضخماً . وليس الأمر على الكذب الصريح والإفك والبهتان فهو قد جاء منكراً على قومه الإفك لا داعياً إليه حاشاه عن ذلك .

الموقف الثاني ، وقوله : « بل فعله كبيرهم هذا » .

هذا الموقف امتداد للموقف السابق ، وقد عرفنا فيه عزم إبراهيم — عليه السلام — فقد توجه إلى الطواغيت المثلة في الأصنام ؛ إبراراً لقسمه السابق ، وتنفيذاً لتأكيده وتصميمه .

قال الله تعالى موضحاً هذا الموقف :

﴿ فجعلهم جذاذاً إلا كبيراً لهم ؛ لعلهم إليه يرجعون ، قالوا : من فعل هذا بالهتأ ؟ إنه لمن الظالمين ، قالوا : سمعنا فتى يذكرهم يقال له : إبراهيم . قالوا : فأتوا به على أعين الناس لعلهم يشهدون . قالوا : أنت فعلت هذا بالهتأ يا إبراهيم ؟ قال : بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم ، إن كانوا ينطقون ، فرجعوا إلى أنفسهم فقالوا : إنكم أنتم الظالمون ، ثم كسوا على

رءوسهم ، لقد علمت ما هؤلاء ينطقون ، قال : أفتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئاً ولا يضركم ، أف لكم ولما تعبدون من دون الله ، أفلا تعقلون ؟ قالوا : حرقوه ، وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين . قلنا يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم ، وأرادوا به كيداً فجعلناهم الأخرسين ﴿ ٥٦ ﴾ .

وقال أيضاً في سورة أخرى :

﴿ فراغ إلى آلهتهم ، فقال : ألا تأكلون ؟ مالكم لا تنطقون ؟ فراغ عليهم ضرباً باليمين ، فأقبلوا إليه يزفون . قال : أتعبدون ما تحتون ؟ والله خلقكم وما تعملون ، قالوا : ابنوا له بياناً فألقوه في الجحيم ، فأرادوا به كيداً فجعلناهم الأسفلين ﴿ ٥٧ ﴾ .

وتوضح الآيات المرحلة الحاسمة في مواجهة الباطل ، وإعمال القوة حين لم تُجد الكلمة ، مع التوقع البصير للنتائج المترتبة على إعمال هذه القوة .

إنه قد توجه إلى تلك الأصنام ، وقد قدم الجاهليون إليه قرابين ساقوها إليها .

وقال الخليل هازئاً متهمكاً : ألا تأكلون ؟ وإذا ما فقدت أيتها الأصنام الاستمتاع بما قدم إليك من شهى الطعام فكيف يعبدك الجاهليون المشركون ؟ وقام فحطمها وكسرها جميعاً ، إلا الصنم الأكبر موضوع الموقف الثاني . وتعلل الآيات السبب في تركه هذا الصنم ؛ لعلهم إليه يرجعون ، فيكون الحوار الساخن ، حيث يأخذ إنكار المنكر مرحلته الأخيرة .

رأى القوم ما حدث بأصنامهم ، فأصابهم ذعر ودهشة ، وبدأ البحث عمن تجرأ وفعل تلك الفعلة ، وتذكروا ما حدث بالأمس من موقف إبراهيم منها ، فأيقنوا أنه هو ، وكانت محاكمة على الرغم من عنفها ولكنها لم تكن كتلك المحاكمات المغلقة ، والجلسات السرية التي تعقد في القرن العشرين ، لتخفي مخازيها

(٥٦) سورة الأنبياء ، الآيات من رقم ٥٨ إلى رقم ٧٠ .

(٥٧) سورة الصافات ، الآيات من رقم ٩١ إلى رقم ٩٨ .

المنتنة ، مدعية أن في السرية حرصاً على مصالح وطنية ، إن محاكمة الخليل إبراهيم — عليه السلام — كانت على ملأ من الناس ، لعلهم يشهدون ، وكما سيحدث من طلب كليم الله موسى — عليه السلام — حين قال : موعدكم يوم الزينة ، وأن يُحشر الناس ضحى . قال قوم إبراهيم له : أنت فعلت هذا بالهتنا يا إبراهيم ؟ وتأقّى الإجابة الشجاعة الثابتة من شقين ، وكل من الشقين يعتمد على الهزء والسخرية بالقوم برغم أنهم ملأ مجتمعون ، وقد أتوا بعامة الناس تشهد المحاكمة .

قال الخليل — عليه السلام : أتعبلون ما تحتون ؟ أنتم الذين صنعتم تلك الأصنام بأيديكم ، فكيف بكم وقد وضعتم أنفسكم دونها والأمر على العكس مقبول ؟ تماماً كما يحدث من طواغيت البشر في القرن العشرين ، يستخفون بالبشر ، ويحتقرونهم ، ويحرمونهم الرأي والتفكير ، فإذا بالبشر المسحوق يعبلونهم ويقدمونهم ويطيعونهم ﴿ استخف قومه فأطاعوه ﴾ .

وقال الخليل أيضاً إجابة عن سؤالهم : بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم إن كانوا ينطقون ؟

لأنهم يدرون تماماً أنهم لا ينطقون ، وإبراهيم يعلم ذلك قبلهم ، وهم يعلمون أنهم لا يستطيعون دفع تكسير أو تحطيم لهم ، وكذلك إبراهيم عليه السلام .

ولكن الموقف موقف تحد وإنكار ، تحد من واحد لا يملك من البشر أحداً ولا نصيراً ضد المجتمع الجاهل بكل قواه . تحركت يد إبراهيم في إنكار المنكر ، وتحرك لسانه في إبطاله ، وتحرك عقله وقلبه في صوغ الحجج والبراهين الدالة على إبطال المنكر ، وإحقاق الحق .

واستغل كل الوسائل ، من صرخ القول ، ومن ألفاظ السخرية والتهكم ومن تلك الألفاظ : بل فعله كبيرهم هذا ، فكيف اعتبرت كذبة ؟

لأنها حساسية المؤمن حين يتصور ما فيه أدنى شبهة كبيراً في حق الله سبحانه وتعالى ، إنها منزلة لا يرقى إليها إلا الأنبياء والمرسلون ، ومن سار على دربهم .

وحاشاه عن الكذب الصراح ، أو ما يقرب من الصراح ، وجزى الله الداعين إليه على جهادهم ، ومواقفهم الشجاعة ، وصبرهم على عذاب الدنيا ونارها ...

الموقف الثالث : وقوله عن سارة « أختي »

حُرم الخليل — عليه السلام — الأمن ، والأمان بين أهله ، وقومه ، حين أعلنت جاهلية القمروء بأرض العراق قديماً أن يعاقب الداعية إلى الله سبحانه عقوبة الزاني المحصن رجماً بالحجارة حتى الموت ، ويكون الموكل بنطق الحكم الجاهلي آزر نفسه والد إبراهيم . هكذا تمسخ الجاهلية العلاقات الإنسانية وتشوهها .

وحين دبر لهم ، وحطم آلهتهم ، وصنعوا له بنياناً وألقوه في الجحيم ، ولكن الله القوى الذي لا يُغلب ولا يُقهر ، نصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده ، وأنجي الخليل إبراهيم ، وجعل الجاهليين الأخسرين الأسفلين .

وفكر الخليل في تغيير المكان لعله يجد أناساً أرق أفئدة ، وألين قلوباً ، فينتجه إلى مصر ، باحثاً عن الأمن الذي فقدته بين قومه وأهله ، وتكون تجربة أشد من نوع آخر في وطن الغربة في مصر ..

إنه يواجه طاغية مصر آنذاك ، وقد تردى في الفحش وانتهاك أعراض النساء ، وسعد الجنود القوادون وهم يجوبون شوارع البلدة ، بحثاً عن الجميلات من النساء ، بكرةً أو زوجة ؛ لتساق باسم النظام السياسي هدية إلى جبار مصر وطاغيها ، وفي تلك المعمة جاء الخليل وزوجه سارة ، وكانت على نصيب كبير من الجمال ، فأى حول وأى طول يملكه الخليل وزوجه غير حول الله وطوله ، وقوته ... إن كانت الساقطات العاهرات يرين في اختيارهن حظوة فيسرعن لأول هاتف ، ولا يرددن يد لأمس ، وقد يسعين إلى ذلك رغبة في مادة ، أو وقوفاً على سر ، أو انتزاعاً لأرض ، فالنساء الحرائر على غير هذا النمط الساقط في عالم يزعم الحرية .

وكانت سارة من غمط الحرائر التي لاتأكل بثديها .

إن ذلك الجبار يسأل عن الرفيق للمرأة ، فإن علم أنه زوج ذبحه ذبح النعاج ، وأخذ المرأة يستمتع بها متى شاء ، وكيف شاء ، والجنود جميعاً يقدمون

له المرأة راضين ، ويقومون بقطع رقبة الزوج مليون ...
 وإن كان الرفيق غير زوج نجا من الذبح ، وبقيت الأحوال الأخرى تجري
 كما يراها الجبار ...
 هذا هو الموقف .

أيفصح الخليل عن حقيقة الصلة بينه ، وبين سارة أم يرى في المعارض
 مندوحة ، والتورية مهرباً؟؟

وقد علمنا الشرع الحكيم أسلوب المواجهة في مثل هذه المواقف فأى صلة
 تجمع بين الزوجين هنا غير الزوجية ؟ إنها الأخوة في الدين ، وقد مر بنا ما قاله
 الخليل — عليه السلام — « يا سارة ليس على وجه الأرض مؤمن غيري
 وغيرك » فإذا ما قال : هذه أختي فنحن أمام تفسير للأخوة ، تفسير قريب وهو
 الأخوة في النسب ، وتفسير بعيد وهو الأخوة في الدين ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾
 والتورية في علم اللغة هي أن يكون للفظ معنيان ، معنى قريب ، ومعنى بعيد ،
 يضمم القائل في نفسه المعنى البعيد ، ويموه على المخاطب بالمعنى القريب ، وهذا
 ما حدث . وهذا ما كان يستعمله النبي — ﷺ — في الغزوات ...
 ويطرح السؤال نفسه هنا .

فلم إذن والحال هذه يعتبر الخليل هذا خطأ كبيراً ؟
 إنها الحساسية الإيمانية التي لا يتنوقها إلا من امتلأ قلبه بالإيمان من الأنبياء
 والصالحين ، ممن يتحرون صدق الكلمة مع أنفسهم ومع الله رب العالمين .

الموقف الرابع ، وقوله حين الشفاعة : « نفسي نفسي »

في حديث الشفاعة الذي أخرجه الشيخان في فصل سابق (٥٨) عرفنا أن
 الخلائق وقد أصابهم الفرع والهول يذهبون إلى آدم — عليه السلام —

(٥٨) فصل آدم — عليه السلام — والشفاعة رقم ٤٦ ، ارجع إلى الحديث بتامه هناك .

مستشفعين ، فيقول : ربي ... نهانى عن الشجرة فعصيته . نفسى ، نفسى .
ويذهبون إلى نوح — عليه السلام — فيقول أيضاً : نفسى نفسى . وفى نص
الحديث بهذا الفصل عرفنا أيضاً أنهم يذهبون بدورهم إلى الخليل إبراهيم — عليه
السلام — فيذكر كذباته ، ويقول : نفسى نفسى ...

إن آدم — عليه السلام — سمي الأكل من الشجرة معصية ، وذلك حق في
ذاته ، ولكن الله سبحانه بعد ذلك فتاب عليه وهدى ، وإن الحسنات
يذهبن السيئات ، ولكن الحساسية الإيمانية جعلت أمر الشجرة رقيباً على آدم ،
بمعنى الخوف ، والحذر الدائمين من معصية لله سبحانه في مستقبل الأيام ، وتظل
هذه الحساسية حتى يوم القيامة ؛ ليقوم بالشفاعة العظمى أفضل الأنبياء ،
وخاتمهم ؛ محمد — ﷺ — ونفس الأمر من الخليل ، وقد تمثلت له هذه المواقف
الثلاثة ، على الرغم من مبرراتها ، لتكون الشفاعة لصاحب الشفاعة . « سيد
القوم يوم القيامة » .

دروس وعبر :

نأخذ في ضوء صفات الخليل — عليه السلام :

— أن الله سبحانه يختار لدعوته من يلتزم طاعته ، ويوفى الأعمال حقها .
— أن إمامة البشرية تسبقها اختبارات للإنسان الذي يقودها إلى بر الأمان ، فقد اتخذ الله نبيه خليلاً ، وجعله إماماً بعد أن اختبر فآتم الاختبارات ووفأها حقها .

— من الناس من يكون كأمة ، كما كان الخليل — عليه السلام — وعلى نفس الدرب حين طلب خالد بن الوليد إلى أنى بكر مدداً فأمدته الخليفة الصديق بالقعقاع بن عمرو ، وقال له : رجل بألف ، وقد كان عند حسن الظن به حين أبطل مؤامرة القائد الفارسي في معركة كاظمة .

— المواصفات التي يُختار على أساسها إمام الناس ، وحاكمهم :

(ا) إخلاص العمل لله سبحانه ، ويظهر هذا الإخلاص في أعماله .
« حنيفاً » .

(ب) البعد عن أى مظهر من مظاهر الشرك ، وعن السكوت عنه ، وعدم محاربته « ولم يك من المشركين » .

(ج) الذهن المتفتح ، والقدرة على التصرف أمام المشكلات « رشده » .

(د) ألا يجعل من منهجه تحطيم من سبقه من الأئمة والحكام ، فقد رفض النبى الخاتم أن يوصف بما اختص به الخليل خير البرية — عليهما الصلاة والسلام .

(هـ) ألا يكون به عيب جسمى ؛ حتى لا يعيقه عن عمل ما ، لا انتقاصاً له ، ولكن رحمة به ، وبالأمة . فليس له في وجود عيبه يد .

— أن الله سبحانه يحشر الناس يوم القيامة كما خلقهم أول مرة ، وأن المفاضلة بينهم على أساس عملهم الصالح في الدنيا .

ونأخذ في ضوء تأمله في الكون .

— أن الله سبحانه سخر لنا الكون ، وطلب إلينا أن نتأمله لهدفين :
(١) الإيمان العميق بالله سبحانه ، وأنه الخالق وحده لهذا الكون ،
المستحق وحده للعبادة .

(ب) التعرف على هذا الكون ، وكشف طاقاته ، واستغلالها ، والتنقيب
عن خاماته وتصنيعها ، وأن هذا الكون مسخر للإنسان على هذا الشكل ،
ولا يصح من الإنسان أن يعبد شيئاً من هذا الكون .

— لا يחדش المسلم أن يطلب ما يزداد به يقيناً وإيماناً ، فقد طلب
الخليل — عليه السلام — إلى ربه أن يريه كيف يحيى الموتى ؟ .

— مقارعة الملحدّين ، والتعرف على أساليب إفحامهم ، بقصد إضعاف
شوكتهم ، دون اللجاجة في ذلك ؛ فمن صفات عباد الرحمن إذا خاطبهم الجاهلون
قالوا : سلاماً .

وفي ضوء الحوار مع الوالد :

— أن المسلم يبدأ دعوته بإنذار عشيرته الأقربين « قال لأبيه آزر » ويمثل
هذا البدء مرحلة فقط دون توقف . آمن الأقربون أم لم يؤمنوا . فلم تتوقف دعوة
الخليل — عليه السلام — بإصرار آزر على الشرك ، ولم تتوقف دعوة النبي
الخاتم — ﷺ — بإصرار أبي لهب ، وأبى طالب على الكفر .

— وضوح الدعوة منذ اللحظة الأولى في حياة الداعية المسلم ،
فلا طواغيت ولا أصنام ولا شرك ، ولكنها دعوة التوحيد والتي تشمل كل حياة
الإنسان .

— تمجيد الله سبحانه بما هو أهله ، ولفت الانتباه دائماً إلى صفات الله
سبحانه .

— على الداعية أن يتوقع حرباً معلنة عليه ممن يتكسبون من الشرك
والإلحاد وقد تعلن هذه الحرب من أقرب الناس نسباً إلى المسلم ؛ كما حدث من
آزر .

— ولا يفت في عضد الداعية تهديد ، ووعيد من البشر ؛ لأنه يتعامل مع الله سبحانه — فليصبر ، وليتدرج في دعوته مرحلة مرحلة .

— تبدأ الدعوة إلى الله بمقارعة الحجة بالحجة ، وللمرء أن يختار أسلوب الإنكار باليد إذا ما وجد من نفسه القدرة على ذلك ، ووازن بين مفسدة متوقعة للدعوة ، وخير يَدْعُمُها ، ويقوى عودها ، فيفعل الداعية ما يناسب ظروفه ، وظروف دعوته ، وظروف قومه .

— أن الله سبحانه يجعل من كلمته هي العالية مهما بلغ التسلط من الطغاة ؛ فهذا هو الخليل يخرج من النار سالماً ، والقوم يصابون بالخسران .

وفي ضوء اعتزاله :

أن الداعية بحركة ذهنية دائمة ، إذا لم تُجَدِ الحجة أعمل اليد ، وإذا لم يُعْجِدِ إعمال وفقد الأمان في وطنه ، عليه أن ينشد الأمان في بقعة أخرى .

— أن الداعية تربطه بالناس دعوته ، فإذا ما كان إيمان منهم ثبتت وقويت ، وإذا ما أصروا على الكفر والعداء لله سبحانه ، وشرعه ، تبرأ منهم ، وركن إلى الله العزيز القهار ، وفي رحاب من آمن بالتوحيد .

— أن المسجد الأقصى بآرك الله حوله ، والله سبحانه يحب من عباده المسلمين أن يكون شرف الدفاع عنه ، وتحريره من اليهودية والصليبية من أقدس واجباتهم .

وفى ضوء الحديث عن إسماعيل — عليه السلام :

— أن نعمة الولد متى كان صالحاً طائعاً لله سبحانه ، ولذا عُدَّ إسماعيل بشرى ؛ لأنه صادق الوعد ، يأمر بالخير ، مرضى عند ربه ، حلیم ، وليس كذلك ابن نوح — عليه السلام — الذى حقت عليه كلمة العذاب بكفره ، فكان من المغرقين .

— أن نعمة الأمن ليست بتلك الحضارات الزائفة ، فالخليل لم يجد أمناً بحضارة العراق ، ونمرودها ، وحضارة مصر وجبارها ، ولكنه وجد الأمن بواد غير ذى زرع عند بيت الله المحرم .

— أن مسيرة الدعوة إلى الله سبحانه متصلة الحلقات على مدى التاريخ الطويل ، فالخليل يدعو لمن يأتي بعده ، والمسلمون الآن يؤدون مناسك بدأتها هاجر أم إسماعيل — عليه السلام .

— أن الله سبحانه لا يضيع أجر من أحسن عملاً ، وبذل جهداً ، ويرزقه من حيث لا يحتسب ، وسيفجر الماء لعباده من أرض قاحلة جرداء ، تظل أحقاباً طويلة ، وها هو ماء زمزم .

— على المسلم أن يتخير لنطفه فإن العرق دساس ، ويختار ذات الدين الراضية الصابرة ، والجنديّة فى ميدان الدعوة إلى الله سبحانه ؛ فقد فارق إسماعيل — عليه السلام — من اتخذت السخط سبيلاً وعادة ، وسعد بمن صبرت وصابرت ، وكان منها النبی الخاتم محمد بن عبد الله — ﷺ .

— تَعَلَّمُ الرمى « ارموا بنى إسماعيل ؛ فإن أباكم كان رامياً » (٥٩) وجعل

(٥٩) قال يزيد بن أبى عبيد : سمعت سلمة بن الأكوع - رضى الله عنه - قال : مر النبی - ﷺ - على قوم ينتضلون ، فقال - ﷺ : « ارموا بنى إسماعيل فإن أباكم كان رامياً ... » البخارى كتاب الجهاد ، باب التحريض على الرمى ، ج ٤ ص ٤٥ طبعة كتاب الشعب .

وروى فى هذا الشأن أيضاً أحاديث أخرى ، المختصر ج ٢ ، ص ٥٢ أرقام ١١٠٢ ،

١١٠٣ ، ١١٠٤ .

هذه المهارة الحربية في الخطة التربوية للجيل المسلم .

— على الوالد ألا يكتم النصيحة للولد بشأن الزوجة شريطة أن تكون النية الخالصة متوفرة ، كما طلب الخليل إلى ابنه إسماعيل في الفراق ، والإمساك .
— على الرغم من صحة العمل فالمسلم يلهج لسانه دائماً بالثناء على الله سبحانه ، وأن يرجو منه أن يتقبل هذا العمل .

— رعاية بيوت الله سبحانه بإبعاد أى مظهر من مظاهر الشرك عنها ، وتنظيفها ، وتعيين من يخدمها ويرعاها ؛ شريطة ألا توجد فتنة ، وألا تكون باستعجال الأحداث قبل أوانها ، فقد ظل النبي — ﷺ — يصلى بالكعبة ، وقد أقيم فيها ثلاثمائة وستون صنماً كما روى البخارى ، ولم يحطمها ويكسرها إلا عند الفتح ، والفرق بين الأمرين واضح وظاهر .

وأن مجرد الخوف من الفتنة أيضاً عدل النبي — ﷺ — أيضاً عن بناء الكعبة على قواعد إبراهيم — عليه السلام .

وفي ضوء قصة الذبح والفداء :

— أن درجة الاختبار تتناسب ودرجات الإنسان ، فلا يكلف المرء عملاً هو دون هذا العمل ؛ مخافة النكوص والردّة ، وأن الناس يعرفون بالحق ، ولا يعرف الحق بالناس إلا إذا كان معصوماً يبلغ عن الله سبحانه .

— أن الطاعة للرسول — عليهم الصلاة والسلام — هى فى حقيقة الأمر طاعة لله سبحانه ، ولذلك قال إسماعيل لأبيه — عليهما السلام : ﴿ افعل ما تؤمر ﴾ وأن المسلم يعلق الأمر بمشيئته سبحانه . ﴿ ستجدنى إن شاء الله ﴾

— سرعة الاستجابة والفهم لأمر الله تعالى ؛ فالخليل — عليه السلام — رأى أنه يذبح إسماعيل — عليه السلام — ففهم الأمر برغم عدم ورود الأمر صراحة ، ولم يعلل ؛ هروباً من الامتثال .

— الاعتماد على الشورى فى حياتنا ، فعلى الرغم من التكليف الإلهى فى

الرؤيا ، فقد استشار الخليل ابنه إسماعيل — عليهما السلام ؛ لأن الأمر يتعلق بهما سوياً ، وليس بالوالد فقط .

— أن العدو الأول للمسلم هو الشيطان يحاول من كل الطرق أن يثبط الهمة في طاعة الله سبحانه ، وعلى المسلم أن تتضح في ذهنه هذه الصورة ، ويعترف على أساليبه ومداخله إلى النفس ليحذره .

وفي ضوء سيرة إسحاق — عليه السلام :

— أن المسلم يفرح إذا ما أصابت الطاغية هزيمة وإهلاك بعد استفاد كل الوسائل في دعوته ، وأنه يعلن الحرب عليه إذا ما توفرت لديه القوة . فقد فرحت سارة حين علمت بإهلاك قوم لوط — عليه السلام .

— أن العجب والدهشة لا يناقضان الإيمان ، ولكنهما لا يدلان على سموه فقد سَلَّمَ الخليل بالبشرى ، ولم يناقش في حين وقفت سارة موقف المستغرب .

— أن القادم يلقي التحية ، ويرد عليه بمثلها أو أحسن منها ، وفاز الخليل بالأحسن ، وذلك من شيمة الأنبياء والصالحين .

— أن إكرام الضيفان من صفات المؤمنين ، ودرجة الإكرام تتناسب وأقدار المضيف ، لا أقدار الضيف . فقد قدم الخليل عجلًا سميناً قبل أن يعلم من الضيفان ؟ وما حقيقتهم ؟ .

— وكما كانت البشرى بإسماعيل ، كانت أيضاً بالنسبة لإسحاق — عليهما السلام ؛ لأنه سيكون نبياً ، ومن الصالحين ، وعلى علم ، ومبارك ، تنتزل عليه رحمت الله سبحانه ، ومن أكرم الناس .

ولا تكون البشرى إلا بما يرضى الله سبحانه ، وهكذا كان كل من الوالدين .

وفي ضوء المواقف الأربعة :

- التحايل على الجاهلية لضربها الضربات الموجهة ، وعدم كشف الخطة التي تُوضع . والحرص على الكتمان بكل صوره ، ولنا في موقف الخليل وقد عزم على تحطيم الأصنام — والنبي — عليهما السلام — في الفتح عبرة وعظة .
- كلما سما المسلم في إيمانه ازدادت حساسيته الإيمانية ، والحذر مما فيه أدنى شبهة من الخطأ .
- أن يَصْدِمَ المسلمُ الطاغية المستبد في شعوره ؛ ليصاب بالإحباط ، والترنح ، والضعف ، ويكون ذلك في مصلحة الدعوة ..
- أن الجاهلية المعاصرة فاقت الجاهلية الأولى في التعتيم الإعلامي ، والجلسات المغلقة ؛ ستراً لعيوبها ومخازيها .
- وأن الجاهلية تعمل على نشر الفحش ، وانتهاك الأعراض والحرمات وقتل من يدعو إلى الطهر ، وأن الله القوي يحفظ أوليائه وينصرهم .
- أن صاحب الشفاعة العظمى هو خاتم الأنبياء والمرسلين — عليهم الصلاة والسلام .

يوسف — عليه السلام

- أكرم الناس .
- الرؤيا .
- يوسف — عليه السلام — وإخوته .
- في الطريق إلى مصر .
- عفة يوسف — عليه السلام — وطهره .
- افتضاح أمر الزوجة ، وتبريرها لرغبتها .
- يوسف — عليه السلام — بالسجن يدعو إلى الله تعالى ، ويؤول الرؤيا .
- رؤيا الملك .
- يوسف — عليه السلام — وزير على خزائن الأرض .
- لقاءه بالإخوة .
- البراءة من الإهمال .
- تحرك إيجابى .
- فرحة اللقاء .
- دروس ، وعبر .

أكرم الناس

قيل : يا رسول الله ، من أكرم الناس ؟ قال :

« أتقاهم »

فقالوا : ليس عن هذا نسألك ، قال :

« فيوسف نبي الله ، ابن نبي الله ، ابن نبي الله ، ابن خليل الله »

قالوا : ليس عن هذا نسألك ، قال :

« فعن معادن العرب تسألون ؟ خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام

إذا فقهوا » (١) .

قال الإمام النووي (١) في شرحه للحديث : قال العلماء : لما سئل — ﷺ — أخبر بأكرم الكرم ، وأعمه ، فقال : « أتقاهم الله » مصداقاً لقوله تبارك وتعالى : ﴿ إِن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾ (٢) وقد ذكرنا (أى النووي) أن أصل الكرم كثرة الخير ، ومن كان متقياً كان كثير الخير ، وكثير الفائدة في الدنيا ، وصاحب الدرجات العلا في الآخرة ؛ فيوسف نبي الله ؛ لأنه — ﷺ — جمع مكارم الأخلاق مع شرف النبوة ، مع شرف النسب ، وكونه نبياً ابن ثلاثة أنبياء متناسلين ، أحدهم خليل الله — ﷺ — وانضم إليه شرف علم الرؤيا ، وتمكنه فيه ، ورياسة الدنيا وملكها بالسيرة الجميلة ، وحياطته للرعية ، وعموم نفعه إياهم ، وشفقته عليهم ، وإنقاذه إياهم من تلك السنين الجذباء .

وكان هذا من إتمام نعمة الله سبحانه على يوسف — عليه السلام — وعلى آلِهِ ﴿ وَيَم نعمة عليك وعلى آل يعقوب كما أتمها على أبويك من قبل إبراهيم

(١) أخرجه الشيخان عن أبي هريرة — رضى الله عنه — اللؤلؤ والمرجان ، كتاب الفضائل رقم ١٥٣٨ ص ٦٢٥ ، ٦٢٦ ، وكلام النووي التالى بالهامش .

(٢) سورة الحجرات ، الآية رقم ١٣ .

وإسحاق ﴿٣﴾ .

ولذا كان كل من إسحاق ويعقوب محل بشري ، ومحل الهدية المقدمة للخليل ، ومحل الصلاح ، والتقوى ، والإمامة ﴿ووهبنا له (أى إبراهيم) إسحاق ويعقوب نافلة ، وكلا جعلنا صالحين ، وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا﴾ (٤) وجاء يوسف — عليه السلام — على نفس الطريق ، حيث قال : ﴿واتبعت ملة آبائى : إبراهيم ، وإسحاق ويعقوب ، ما كان لنا أن نشرك بالله من شيء ، ذلك من فضل الله علينا ، وعلى الناس ، ولكن أكثر الناس لا يشكرون﴾ (٥) ، وكان فى قوله هذا شكر الله سبحانه على ما آتاه من فضل ، وإمامة ، وصلاح ، وتمام نعمة ؛ فاستحق أن يكون أكرم الناس — عليه الصلاة والسلام — ويقيم مع أبيه فى أرض بارك الله فيها .

الرؤيا .

عن أنى هريرة — رضى الله عنه — قال : سمعت رسول الله — ﷺ — يقول :

« لم يبق من النبوة إلا المبشرات »

قالوا : وما المبشرات ؟ قال :

« الرؤيا الصالحة » (٦) .

(٣) سورة يوسف ، الآية رقم ٦ .

(٤) سورة الأنبياء ، الآيتان ، رقمها ٧٢ ، ٧٣ .

(٥) سورة يوسف ، الآية رقم ٣٨ .

(٦) أخرجه البخارى ، كتاب التعبير ، باب المبشرات ، ج ٩ ص ٣٩ ، ٤٠ .

وعنه ، وعن عبادة بن الصامت (٧) ، وأنس بن مالك — رضى الله عنهم — أن النبي ﷺ — قال :

« رؤيا المؤمن جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة » (٨) .

وعن أبى سعيد الخدرى — رضى الله عنه — أنه سمع النبي ﷺ — يقول :

« إذا رأى أحدهم رؤياً يحبها ، فإنها من الله ، فليحمد الله عليها ، وليحدث بها ، وإذا رأى غير ذلك مما يكره فإنما هي من الشيطان ، فليستعذ من شرها ، ولا يذكرها لأحد ، فإنها لا تضره » (٩) .

وعن أبى قتادة (١٠) — رضى الله عنه — مثل ذلك (١١) .

تدل الأحاديث النبوية على أن الرؤيا المبشرة حق ، وأن على من رآها أن يحدث بها من يحبه من الناس ، وأن يحمد الله سبحانه على أن بشره بهذه البشارة . وقد كان من يوسف — عليه السلام — أن رأى وهو صغير تلك الرؤيا المبشرة ، ورأى أحد عشر كوكباً ، والشمس والقمر ساجدين له ، وحكى هذه

(٧) هو أبو الوليد ، عبادة بن الصامت بن قيس ، الخزرجى ، الأنصارى ، السالمى . كان من نقباء الأنصار ، وشهد العقبة الأولى ، والثانية ، والثالثة ، وشهد بدرأ ، والمشاهد كلها ، وجهه عمر — رضى الله عنه — إلى الشام قاضياً ، ومعلماً ، فأقام بحمص ، ثم انتقل إلى فلسطين ، ومات بها فى الرملة ، وقيل فى بيت المقدس . سنة أربع وثلاثين ، وهو ابن اثنتين وسبعين سنة . سبل السلام للصنعانى ج ٢ ، ص ١٦٨ .

(٨) أخرجه الشيخان ، اللؤلؤ والمرجان ، كتاب الرؤيا رقم ١٤٥٧ وما بعده .

(٩) أخرجه البخارى ، باب رؤيا الصالحين ج ٩ ص ٣٨ ، ٣٩ .

(١٠) اسمه فى أكثر الأقوال : الحارث بن ربيعة الأنصارى ، فارس رسول الله ﷺ — شهد أحداً وما بعدها ، وكانت وفاته سنة أربع وخمسين بالمدينة ، وقيل مات بالكوفة فى خلافة أمير المؤمنين على — رضى الله عنه — وشهد معه حروبه كلها .

(١١) اللؤلؤ والمرجان رقم ١٤٥٦ .

الرؤيا لأبيه يعقوب — عليهما السلام — في تعبير/يدل على تبادل المودة بينهما .

فيوسف ينادى بقوله : « يا أبت » بناء تدل على رقة في النداء .

ويعقوب يناديه بقوله : « يا بني » وينصحه بكتان هذه الرؤيا عن إخوته ؛ لما فيها من تكريم ليوسف — عليه السلام — دونهم ، ثم هو يبين له أنه يسير في مسيرة النبيين الذين أنعم الله عليهم من إبراهيم ، وإسحاق ثم يعقوب — عليهم السلام .

فماذا كان من أمر هذه الرؤيا في عالم الواقع ؟ ومتى ؟ وأين ؟

يوسف — عليه السلام — وإخوته :

بدأت قصة يوسف — عليه السلام — منذ أن كان صغيراً ، وقد كان أصغرهم ، ويدل على ذلك جملة أمور :

— فالإخوة حين تَسَأَبُهم كما زعموا ، قالوا : تركناه عند متاعنا ، إذن لم يكن بالقدرة على مشاركة من هم أقوى منه ، وأكبر سنّاً .

— والتمكن من ربطه ، وإلقائه في الجب ، ويُسرُّ ذلك عليهم ؛ لأنه أصغرهم ، وإذا كان كبيراً في السن احتاج تنفيذ الإلقاء إلى معاناة ، قد تفشل فيفتضح أمرهم سريعاً .

وإلقاؤه بهدف التقاط المارة له يدعم ذلك .

— وخوف الوالد عليه لا محل له إذا ما كان يافعاً قوياً ، لا يتوجه إليه ذئب ليفترسه .

وقد نرى في حياتنا الآن ما يوصى به الوالد أبناءه الكبار مع أخيه الصغير .

ولأن يوسف — عليه السلام — صغير السن كما ظهر ازداد الخنو عليه ،

والحب له ، والوصية به ، وشاركه في هذا من اقترب منه عمراً ، وكان شقيقاً له (١٢) .
ورأى الأبناء الكبار هذا التعلق الظاهر من الوالد ، وفسروه تفسيراً خاطئاً ، وضحخم الشيطان تصورهم هذا ، وبدأت خيوط المؤامرة تُحاك ضد يوسف — عليه السلام — وقد زعموا أن أباهم في ضلال مبين — حاشاه عن ذلك .

(١٢) المزيد من الخنو لأسباب تدعو إليه ، عمل قلبي لا يقدر على دفعه الإنسان ، إذا ما صاحبه عدل تام ، ومثل ذلك ما رواه الإمام أحمد وأهل السنن ، عن أم المؤمنين عائشة — رضى الله عنها — قالت : كان رسول الله — ﷺ — يقسم بين نسائه فيعدل ، ثم يقول : « اللهم ، هذا قسمي فيما أملك ، فلا تلمني فيما لا أملك » يعنى القلب ؛ هذا لفظ أبى داود ، وقال ابن كثير عند تفسير قوله تعالى : ﴿ ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم ﴾ الآية رقم ١٢٩ من سورة النساء ج ٢ ص ٤١٠ قال : هذا إسناد صحيح ، لكن قال الترمذى : رواه حماد بن زيد ، وغير واحد عن أيوب ، عن أبى قلابة مرسلاً قال : وهذا أصح ، ونقل رواية أخرى عند ابن أبى حاتم من طريق أخرى أن هذه الآية نزلت في عائشة — رضى الله عنها — وشاهدنا في هذا أن العمل القلبي قد يزيد بالحب لشخص ولأسباب خاصة ، وأن هذا العمل لا يملك المرء دفعه بحضور الأسباب الداعية إليه .

وقد سئلت إحدى النساء عن أحب أبنائها إليها فقالت : الصغير حتى يكبر ، والمريض حتى يشفى ، والغائب حتى يحضر .

فإذا ما تساوى الأبناء في الظروف المحيطة بهم ، فهم كما قالت فاطمة بنت الخرشب الأثمارية عن بنينا حين سئلت : أيهم أفضل ؟ قالت : هم كالحلقة المفرغة لا يُدري أين طرفاها .

أما المزيد من العطاء المادى ، وتخصيص أحدهم بجزء من التركة ، أو ما يملكه الوالد في حياته ، فقد اعتبره النبى — ﷺ — ظلماً وجوراً .

عن النعمان بن بشير — رضى الله عنهما — أن أباه أتى به رسول الله — ﷺ — فقال : إني نخلت ابني هذا غلاماً كان لى ، فقال رسول الله — ﷺ — : « أكل ولدك نخلته مثل هذا ؟ فقال : لا ، فقال : فأرجعه » متفق عليه ، واللفظ للبخارى ، وفي رواية لأحمد ومسلم وأبى داود قوله : « فليس يصلح هذا ، وإني لا أشهد إلا على حق » وفي =

يقول الله تعالى :

﴿ إِذْ قَالُوا : لِيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِمَّا نَحْنُ عَصِيْبَةٌ ؛ إِنْ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ . اقْتُلُوا يُوسُفَ ، أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا ، يَخِلْ لَكُمْ وَجْهَ أَيْكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ ، قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ : لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ ، وَأَلْقُوهُ فِي غِيَابَةِ الْجَبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ، قَالُوا : يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ ، وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ ، أَرْسَلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبُ ، وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ، قَالَ : إِنْى لِيَحْزَنُنِى أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ ، وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ ، قَالُوا : لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لْخَاسِرُونَ ﴾ (١٣) .

ويتضح من الآيات السابقة :

توفر الدافع لتنفيذ الجريمة وهو حب أبيهم ليوسف أكثر منهم .
واقترعهم بصحة هذا الدافع ؛ حيث حكموا على أبيهم بسببه أنه فى ضلال مبين .

امتلاك القوة للتغيير فأوضحوا أنهم عصبية متعاونة تمثل قوة .
مناقشة الصورة التى تتم بها الجريمة فالحوار بين القتل أو الطرح فى الأرض ، أو الإلقاء فى بئر عميق .

اختلافهم فى درجة الانتقام ؛ فيهم من حذر من القتل ، ومنهم من صمم عليه ؛ إما على وجه السرعة بمباشرة ، وإما بتركه يموت على أى وضع فى الصحراء .

استدراج الوالد للموافقة على اصطحابهم يوسف ليلعب ، وإما لإحساس الوالد حقدهم على أخيه .

= رواية لأبى داود قوله : « لا تُشهدنى على جور » نيل الأوطار للشوكانى ج ٦ ص ٨ باب التعديل بين الأولاد فى العطية . فارجع إليه إن أردت المزيد .
(١٣) سورة يوسف ، الآيات من رقم ٨ إلى رقم ١٤ .

أوضح الوالد رأيه في الذهاب به أنه سيحزنه ، لشدة التعلق به ، ويخوف الخوف عليه من العبارة التالية : ﴿ وأخاف أن يأكله الذئب ، وأنتم عنه غافلون ﴾ .

وتمت موافقة الوالد بعد هذا الإلحاح من الإخوة .

﴿ فلما ذهبوا به وأجمعوا أن يجعلوه في غيابة الجب ، وأوحينا إليه لتبتئهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون ، وجاءوا أباهم عشاءً يكون ، قالوا : يا أبانا ، إنا ذهبنا نستبق وتركنا يوسف عند متاعنا ، فأكله الذئب وما أنت بمؤمن لنا ، ولو كنا صادقين ، وجاءوا على قميصه بدم كذب ، قال : بل سولت لكم أنفسكم أمراً فصبر جميل ، والله المستعان على ما تصفون ﴾ (١٤) .

صرحت الآيات بإجماعهم على إلقائه في الجب ، ويُفهم من هذا الإجماع ما يلزم من تنفيذ الأمر المجمع عليه عادة ، وجاء الأمان ليوسف من السماء وهو في أشد حالاته ، وذلك عن طريق الوحي الكريم ، فهو سيعيش ، وسيخبر إخوته بما فعلوه ، أما هم فقد تظاهروا بالحزن حين رجوعهم عشاءً زاعمين أن الذئب قد أكله حين لعبهم ، وما ترك الذئب منه غير قميص ملطخ بالدم .

وفوجئ الوالد بحلوث ما حذرهم منه ، وهو الانتقام ، على أى صورة من الصور ، وعقب على إخبارهم إياه ، ومخاطباً إياهم بأنهم قد نفثوا مؤامرة مدبرة ضد أخيهم يوسف ، وليس الأمر كما يقولون .

فسباع الصحراء تغتال صباحاً أو ظهراً ، وفي آخر النهار ترجع إلى عُرنِها (جمع عرين) ، فما بالهم قد جاءوا عشاءً بهذا النبأ ؟! وإذا كانوا صادقين وحريصين على أخيهم كما عاقلوا لجاءوا مبكرين ، ولكنهم بحاجة إلى وقت يعطيهم فرصة البحث عن دم حيوان يصيلونه .

جاء إخبارهم في عبارة موجزة لا تتضمن أى إشارة إلى حزن منهم ، أو

(١٤) سورة يوسف ، الآيات من رقم ١٥ إلى رقم ١٨ .

لوم لأنفسهم المقصرة ، ولكنهم عقبوا بما يحسونه في أنفسهم ﴿ وما أنت بمؤمن لنا ، ولو كنا صادقين ﴾ .

وقَوَّضَ الوالد أمره إلى الله سبحانه ، راجياً منه العون على الصبر بقوله تعالى : ﴿ فصبر جميل ، والله المستعان على ما تصفون ﴾ (١٥) .

في الطريق إلى مصر :

وفي أشد الحالات ضيقاً كان الفرج والطمأنينة والراحة النفسية ليوسف — عليه السلام — وهو غلام صغير ، ملقى في بئر ، وفي صحراء .

فكيف يكون المخرج ، وقد أحاطت بالغلام الصغير أسباب الهلاك بعد مؤامرة من أقرب الناس ؟

ذاك ما تصنعه يد العناية الإلهية بأنبيائها .

مرت قافلة قريباً من البئر ، وألقت رحالها ؛ بغية الراحة ، وطلباً للماء ، وأرسلت أحد أفرادها لإحضار ماء من البئر ، فما كان الماء إلا غلاماً صغيراً ، وعزم أفراد القافلة على ظلم جديد له ، كان سبباً في فرج ومخرج دون أن يشعروا ؛ أسروه بضاعة أى (أضمروا في أنفسهم بأن يكون رقيقاً يُباع ويُشترى) ، والله سبحانه مطلع على سير الأحداث ، وتصريفها بحكمته ؛ فيبع يوسف — عليه السلام — بثمن قليل ، شأن من يسرق شيئاً ويريد أن يتخلص منه بأبخس الأثمان ؛ لستر جريمة اقترفت وتحقيق كسب قليل مضمون أفضل من انتظار كسب كبير معرض للضياع بكامله .

(١٥) والدعاء المتوجه إلى الله سبحانه بهذه الصورة ، حين يفقد المرء من كان يظن منه النصرة ، وقد حدث لأم المؤمنين عائشة — رضى الله عنها — مثل هذا الموقف في حادث الإفك .

فعن مسروق قال : سألت أم رومان ، وهى أم عائشة عما قيل فيها ما قيل . قالت : =

قال الله تعالى :

﴿ وجاءت سيارة فأرسلوا واردهم ، فأدلى دلوه ، قال : يا بشرى ، هذا غلام ، وأسروه بضاعة ، والله عليم بما يعملون ، وشروه بثمن بخس دراهم معدودة ، وكانوا فيه من الزاهدين ﴾ (١٦) .

وسخر الله سبحانه أسرة تشتريه ؛ رب هذه الأسرة هو العزيز أحد وزراء الملك ، وتلك امرأته زليخاء ، طلب إليها أن تكرم مثواه ، فيقيم إقامة مكرمة ، يقدم إليه الخير عن طوعية وإخلاص وحب ؛ لما ينتظرانه منه من نفع في المستقبل ، أو أن يتخذ ولداً لهما .

قال تعالى :

﴿ وقال الذى اشتراه من مصر لامراته : أكرمى مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً ﴾ (١٦) .

وقد دفعهما إلى ذلك ما كان عليه يوسف — عليه السلام — من الجمال والحسن الفائقين .

ففي حديث الإسراء ، عن أنس بن مالك — رضى الله عنه — أن رسول الله ﷺ — قال :

= بينا أنا مع عائشة جالستان ، إذ ولجت علينا امرأة من الأنصار ، وهى تقول : فعل الله بفلان ، وفعل . قالت : فقلت : لم ؟ قالت : إنه نُمى ذكر الحديث ، فقالت عائشة : أى حديث ؟ فأخبرتها . قالت : فسمعه أبو بكر ، ورسول الله ﷺ — قال : نعم . فخرت مغشياً عليها ، فما أفأقت إلا وعليها حمى بنافض ، فجاء النبی — ﷺ — فقال : « ما لهذه ؟ » قلت : حمى أخذتها من أجل حديث تُحَدِّثُ به ، فقعدت وقالت : والله لئن حلفت لا تصدقوني ، ولئن اعتذرت لا تعذروني ، فمثلى ومثلكم كمثلى يعقوب وبنیه ، فالله المستعان على ما تصفون . فانصرف النبی — ﷺ — فأُنزل الله ما أنزل ، فأخبرها ، فقالت : بحمد الله لا بحمد أحد . صحيح البخارى ، كتاب الأنبياء ، باب قول الله تعالى : ﴿ لقد كان في يوسف وإخوته آيات للسائلين ﴾ ج ٤ ص ١٨٣ .

(١٦) سورة يوسف ، الآيات من رقم ١٩ إلى رقم ٢١ .

« ... ثم عُرج بنا إلى السماء الثالثة ، فاستفتح جبريل ، فقيل : من أنت ؟ قال : جبريل . قيل : ومن معك ؟ قال : محمد . قيل : وقد بُعث إليه ؟ قال : قد بُعث إليه . ففتح لنا ، فإذا أنا يوسف ، فإذا هو قد أُعطي شطر الحسن . قال : فرحب بي ، ودعا لي بخير » (١٧) .

وفي هذا أيضاً ورد في القرآن الكريم ، على لسان النسوة ، حين خرج يوسف عليهن :

﴿ حاش لله ، ما هذا بشراً ، إن هذا إلا ملك كريم ﴾ (١٨) .

ووصل الأمر بهن أن قطعن أيديهن بما لدى كل من سكين لقطع الطعام ؛ وذلك لمزيد إعجابهن بجمال يوسف ، وحسنه . إعجاب شغلن عن الشعور بالآلام جرح الأيدي ، ثم ما صار بعد ذلك من إصرار امرأة العزيز على معاودة المرافقة ، على الرغم من افتضاح أمرها في المدينة ، وإقرار النسوة أخيراً بالغرر لها في طلبها .

عفة يوسف — عليه السلام — وطهره :

أخرج الشيخان عن أبي هريرة — رضى الله عنه — عن النبي — ﷺ — قال :

« سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله : الإمام العادل ، وشاب نشأ في عبادة ربه ، ورجل قلبه معلق في المساجد ، ورجلان تحابا في الله ، اجتمعا عليه ، وتفرقا عليه ، ورجل طلبته امرأة ذات منصب وجمال فقال : إني أخاف الله ، ورجل تصدق أخفى ؛ حتى

(١٧) أخرجه مسلم ، باب الإسرائء بالنبي — ﷺ — إلى السموات وفرض الصلوات ج ١ ص ٢٦ رقم ٧٦ المختصر .

وإذا كان يوسف قد أُعطي شطر الحسن ، فإن آدم قد أُعطي الحسن كله ؛ فإن الله سبحانه قد خلق آدم بيده على أكمل صورة وأحسنها .

(١٨) سورة يوسف ، الآية رقم ٣١

لا تعلم شماله ما تتفق يمينه ، ورجل ذكر الله خالياً ففاضت
عيناه ﴿ (١٩) .

ثم كان موقف يوسف — عليه السلام — مع امرأة العزيز .

فيوسف — عليه السلام :

مكن الله له في الأرض ، وعلمه من تأويل الأحاديث ، واكتملت
رجولته ، وبلغ أشده ، وأوتى الحكمة والعلم ، ووفق إلى إحسان ، ثم هو
بالإضافة إلى ذلك بلغ من الحسن مبلغاً كبيراً .

وامرأة العزيز :

ذات منصب وجمال : فهي زوجة جميلة لوزير الملك ، وتملك بيتها فهي
صاحبتها ؛ لأنها زوجة صاحبه ، ويوسف قادم إليه ، وتملك الانفراد به فلا يراها
من البشر أحد ، فليس لها من أولاد ، وزوجها بالخارج حيث يعمل ، وإن كان
بالبیت صغير فقد كان خارج غرفة المراودة قريباً من الباب .

وسول لها الشيطان الفاحشة فأحكمت إغلاق الأبواب ، وتهيأت بكل
ما لديها من زينة مغرية ومثيرة ثم راودته عن نفسه وهي على أشد ما تكون
النزوة ، ومع تتابع المراودة تعلن أنها ملك ليوسف ، على الرغم من أنها السيدة ،
وصاحبة الأمر والنهي في هذا البيت .

وتجمعت كل هذه الأسباب أمام نبي من أنبياء الله تعالى ، هو يوسف —
عليه السلام — فماذا كان من أمره ؟

﴿ قال : معاذ الله ؛ إنه ربي أحسن مثواي ، إنه لا يفلح
الظالمون ﴾ (٢٠) .

فإذا كان البشر لا يروننا ، فالله مطلع علينا . ألا نخشاه ؟ ثم هذا الزوج

(١٩) متفق عليه اللؤلؤ والمرجان ، كتاب الزكاة ، باب فضل إخفاء الصدقة ، رقم ٦١٠ .

(٢٠) سورة يوسف ، الآية رقم ٢٣ .

الذى أكرمنى بالإقامة فى بيته . كيف أخونه ؟ وكيف أظلمه ؟ إنه حاول أن يوقظ فيها جانب الخير من جهتين : جهة الإيمان بالله سبحانه ﴿ معاذ الله ﴾ وجهة الأمانة الزوجية ﴿ إنه رضى أحسن مثنوى ﴾ ، ومن الظلم للنفس أن يفقد المرء إيمانه ، وأمانته .

ولكن أنى لامرأة تمكنت منها الرغبة ، فقدت عقلها وتفكيرها ، فلا يزنى الزانى حين يزنى ، وهو مؤمن (٢١) ، وسوف لا تستجيب لنداء العقل الذى أعلنه النبى العفيف .

وتدرج الأمر من جديد ليأخذ شكل الإكراه ، فهمت به إجباراً ، وهم بها دفعاً وإنكاراً (٢٢) . وصرف الله سبحانه عنه السوء والفحشاء ، فقد أخلص قلبه

(٢١) جزء من حديث متفق عليه ، عن أبى هريرة — رضى الله عنه — أن النبى — ﷺ — قال : « لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن ، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن ، ولا يسرق السارق حين يسرقها وهو مؤمن » وزاد فى رواية « ولا ينتهب نهبه ذات شرف ، يرفع الناس إليه أبصارهم فيها حين ينتهبها وهو مؤمن » اللؤلؤ والمرجان ، كتاب الإيمان ، باب نقصان الإيمان بالمعاصى رقم ٣٦ ص ١٢ .
(٢٢) ليس هذا التفسير لِلَّهِم بغريب ؛ حيث فُسر بما يناسب كلا من الجانبين .

فقد ورد قريب منه فى الحديث الشريف الذى رواه مسلم (المختصر ج ١ ص ٨٩ رقم ١٢٠٩ ، وفى الأربعين النووية رقم ٧) .

فعن أبى رقية ، تميم بن أوس الدارى — رضى الله عنه — أن النبى — ﷺ — قال : « الدين النصيحة . قلنا لمن ؟ قال : لله ، ولكتابه ، ولرسوله ، ولأئمة المسلمين ، وعامتهم » فكلمة النصيحة لها عدة معان ، فُسرت مع كل بما يُناسب ؛ فالنصيحة لله : الإخلاص له ، والإيمان به ، ونفى الشريك عنه ، وترك الإلحاد فى صفاته ، والنصيحة لكتاب الله تعالى : الإيمان بأنه كلام الله تعالى ، وتنزيله لا يُشبهه شئ من كلام الناس ، وأما النصيحة لرسول الله — ﷺ — فتصديقه على الرسالة ، والإيمان بجميع ما جاء به ، وطاعته فى أمره ونهيه ، والنصيحة لأئمة المسلمين بمعاونتهم على الحق ، وإعلامهم بما غفلوا عنه ولم يبلغهم ، والنصيحة لعامة المسلمين : تبصيرهم بالحق ، وبيان ما هو واجب الاتباع عليهم . (راجع تفسير النووى لهذا الحديث فى الأربعين النووية) .

لله تعالى ، وتصور معي أيها القارئ الكريم هذا السباق نحو الباب . من يوسف هروباً من منطقة الشر والسوء ، ومنها متابعة في تنفيذ ما اشتتهه ، ورغبته ، وبلغ بها أن أمسكت بقميصه جذباً إليها ، وهو مصمم على الإفلات والهروب ؛ حتى قُدد القميص وهما بجوار الباب ؛ ليتمكن من فتحه ، حيث تكون المفاجأة بوجود العزيز لدى الباب .

وتتغير لهجة المرأة فجأة : ﴿ قالت : ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً إلا أن يسجن أو عذاب أليم ﴾ (٢٣) .

تُدعى زوراً وكيداً ، وعقوبة لمن عصاها ولم يستجب لها ؛ اهتمته بأنه هو الذي أراد السوء — حاشاه عن ذلك — وجزاء من يريد السوء بأمثال تلك المرأة السجن ، أو العذاب الأليم .

ورد يوسف — عليه السلام — التهمة الموجهة إليه بأمرين :

الأمر الأول : إنكارها ، وادعاء العكس أي أن المرأة هي التي راودته عن نفسه .

الأمر الثاني : الدليل المادى على البراءة ، وهو أقوى الأدلة عُرفاً وشرعاً .

وفي ذلك يقول الله تعالى :

﴿ قال : هي راودتني عن نفسي ، وشهد شاهد من أهلها ؛ إن كان قميصه قُدد من قبل فصدقت وهو من الكاذبين ، وإن كان قميصه قُدد من دبر فكذبت وهو من الصادقين ﴾ (٢٤) .

ونلمح في هذه الآية الكريمة وما سبقتها الموقف الأول في الحكم في هذه الدعوى :

(٢٣) سورة يوسف ، الآية رقم ٢٥ .

(٢٤) سورة يوسف ، الآية رقم ٢٦ .

- الخصمان ماثلان أمام القاضى :
- من قدم الدعوى ضد الآخر وهو هنا امرأة العزيز .
- والمدعى عليه وهو يوسف عليه السلام .
- والقاضى وهو العزيز ، زوج المدعية ، وفى قرابته للمدعية ، تضيق لفرص البراءة للمدعى عليه .
- أن مضمون هذه الدعوى اتهام بالسعى إلى ارتكاب الفحشاء .
- أن المرأة أثارت فى زوجها الغيرة بالباطل ، حيث قالت ﴿ من أراد بأهلك ﴾ ولم تقل من أرادنى .
- أنها مع إعلان الدعوى حددت العقوبة فى أمرين لا ثالث لهما : إما السجن ، وإما العذاب الأليم .
- وأنها أغفلت شيئاً مادياً يبدو عليها وهو ما يكون من أثر التهيؤ بالزينة وغيرها والتي لا تُمحي فجأة من نفسها .
- وأنها وضعت نفسها مدعية بالباطل حيث سبقت بالشكوى ، وتقديم الادعاء ، مما يدل على مكر المدعى حين يسبق الخصم ، ويعاجله .
- وأنها من الفصاحة اللسانية حيث ملكت زمام الموقف على الرغم من خطئها .
- وأمام كل هذه الملابس كان الخصم البريء ، يوسف العفيف — عليه السلام .
- إنه أنكر التهمة ، وماذا يعمل الإنكار أمام كل هذه الادعاءات والملابس ؟ . وماذا يعمل غير إلصاق التهمة بها هى وحدها ؛ كما يفهم من أسلوب الحصر ﴿ هى راودتنى عن نفسى ﴾ .
- وتتدخل عناية الله سبحانه وتعالى ، حيث فقد يوسف — عليه السلام — .

الدليل القاطع على براءته . ﴿ ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ﴾ (٢٥) .

— إن يوسف — عليه السلام — لم يشر إلى ما يبيلو عليها من تهيؤ وزينة ، فقد عَفَّ لسانه عن ذلك .

— وبقي في الجلسة الأولى في تلك القضية ، طفل صغير يحبو (٢٦) ،

(٢٥) سورة الطلاق ، الآية رقم ٢ .

(٢٦) ورد في أمر هذا الشاهد أحاديث وآراء كثيرة نذكر منها هنا ما هو صحيح أو راجح .

— رُوى عن أبي هريرة ، وهلال بن يساف ، والحسن ، وسعيد بن جبير والضحاك بن مزاحم أنه كان صبيّاً بالدار ، واختاره ابن جرير .

— وقد ورد فيه حديث مرفوع ، فروى ابن جرير : عن ابن عباس — رضى الله عنهما — عن النبي ﷺ — قال : « تكلم في المهد أربعة وهم صغار » فذكر فيهم شاهد يوسف .

— ورواه غير ابن جرير عن ابن عباس أيضاً من طريق أخرى « تكلم أربعة وهم صغار ابن ماشطة بنت فرعون ، وشاهد يوسف ، وصاحب جريج ، وعيسى بن مريم » (ابن كثير في تفسير الآية ، وقد ذكر أيضاً من الروايات ما يحدد أنهم في المهد) .

— وقد ورد بشأن من تكلم في المهد حديث متفق عليه :

فعن أبي هريرة — رضى الله عنه — عن النبي ﷺ — قال :

« لم يتكلم في المهد إلا ثلاثة :

عيسى بن مريم ، وصاحب جريج .. وبيننا صبي يرضع من أمه ، فمر رجل راكب على دابة فارهة ، وشارة حسنة ، فقالت أمه : اللهم اجعل ابني مثل هذا ، فترك الثدي ، وأقبل إليه ، فنظر إليه ، قال : اللهم لا تجعلني مثله ... »

أخرجه البخارى ج ٤ ص ٢٠١ باب واذكر في الكتاب مريم ، وأخرجه مسلم ، المختصر ، كتاب البر والصلة ، باب تقديم بر الوالدين على العبادة رقم ١٧٥٥ ص ٢٢٨ ، اللؤلؤ والمرجان رقم ١٦٥٤ ص ٦٩٤ الكتاب والباب كما في مختصر مسلم ، واللفظ له .

وقال محقق المختصر الشيخ ناصر الدين الألبانى في تعليقه على الحديث : لا يخالف هذا الحصر كلام صبي الأخلود (رواه مسلم أيضاً) لأنه ليس فيه أنه كان في المهد ، بل كان =

وأنى لطفل على هذا النحو أن ينطق بما شاهده في ساحة البيت حين الاستباق إلى الباب .

— ولكن الله سبحانه وجهه إلى الاستشهاد بهذا الطفل ﴿ وشهد شاهد من أهلها ﴾ .

— وكانت المعجزة بإنطاق الله سبحانه لهذا الطفل ، وشهادته .

— وعلى الرغم من إيجاز الشهادة التي تكونت من بضعة وثلاثين حرفاً ، فقد تضمنت أقوى الأدلة ، وهو الدليل المادى على براءة يوسف — عليه السلام .

— إن هذا الشاهد وهو الطفل الصغير صور الموقف أمام الزوج ، والقاضى . فإذا كان من اختلاف الخصمين ، وكل منهما يدعى البراءة ، ويتم الآخر، فلننظر إلى الحال الناتجة من هذا الاختلاف .

— ووجه الشاهد القاضى إلى قميص يوسف ، وقد عهد في قميصه السلامة ؛ فهو في بيت العزيز ، ولم يسبق له أن لبس قميصاً على النحو المرئى الآن

— وماذا بشأن تمزيق القميص ؟

— إما أن يكون ممزقاً من الخلف ، أو ممزقاً من الأمام ، وعلى بساطة

= أكبر من صاحب المهد ، وإن كان صغيراً يرضع ، وأما حديث « لم يتكلم في المهد إلا أربعة : عيسى ، وشاهد يوسف ، وصاحب جريج ، وابن ماشطة بنت فرعون » فحديث باطل كما بينته في سلسلة الأحاديث الضعيفة رقم ٨٨٤ ، وأما ما ذكره بعضهم أن يحيى — عليه السلام — ممن تكلم في المهد فمما لا أصل له مرفوعاً ، وإنما هو من زعم الضحاك في تفسيره كما ذكر الحافظ ابن حجر في فتح البارى على شرح البخارى . انتهى التعليق للشيخ ناصر .

هذا ويستبعد أن يكون الشاهد غير طفل عقلاً ، لما يخالف الغرض من تغليق الأبواب ، والتهبؤ ، فيبقى كونه طفلاً ، وكونه ليس بالمهد ؛ لصريح الحديث المتفق عليه . والله أعلم بالصواب .

هذا فإنه مادی ملحوظ من كل الأطراف : الخصمين والقاضى ، والشاهد .
 — وتدرج الشاهد من دفع التهمة أولاً ، ثم إثبات البراءة ثانياً ؛ فقد
 ناقش دعوى المرأة بقوله : ﴿ إن كان قميصه قُذِّ من قبل فصدقت وهو من
 الكاذبين ﴾ .

ثم أثبت هذا الشاهد التهمة على المدعية نفسها ، وهى امرأة العزيز ﴿ وإن
 كان قميصه قُذِّ من دُبر فكذبت وهو من الصادقين ﴾ .

— وحينئذ نظر القاضى وهو العزيز زوج المرأة إلى ما ذكره الشاهد من
 دليل مادی ، فتبين له ما به أعلن حكمه .

قال الله تعالى على لسانه : ﴿ فلما رأى قميصه قُذِّ من دُبر ، قال : إنه
 من كيدكن ؛ إن كيدكن عظيم ، يوسف أعرض عن هذا واستغفرى لذنبك ؛
 إنك كنت من الخاطئين ﴾ (٢٧) .

ونلمح في هذه الآية الكريمة :

— الحكم ببراءة يوسف — عليه السلام — من التهمة التى وُجهت إليه
 من امرأة العزيز .

— وأن هذا الحكم قد اعتمد على دليل قاطع ، وهو الدليل المادى أقوى
 الأدلة .

— أن جدوى الدليل هنا جاءت من الرؤية المباشرة ، وصلته المباشرة
 زمنياً بالمرادة ، ولو كان متأخراً فى الزمن لاحتمل الشك ، لما يظن من تديره .
 — ثم الحكم بإدانة المرأة .

— كما نلاحظ أيضاً جانب المحاباة من هذا القاضى ، وتأثره بالعلاقة
 المباشرة بالمدعية ، على الرغم من وضوح الدليل :
 فلم يحكم عليها بما رأته هى : من سجن ، أو عذاب أليم .

(٢٧) سورة يوسف ، الآية رقم ٢٨ ، ٢٩ .

ولم يحكم عليها إلا في تهمة واحدة ، ولكنها ارتكبت مع المحاولة لارتكاب الفاحشة الكذب والبهتان .

ونخلص من هذا كله بعدة أمور :

— أن الله سبحانه وتعالى يحفظ عباده الصالحين ، ويعصمهم ، والمعصوم من عصمه الله .

— أن المسلم عليه أن يقدم ما لديه من حقائق تدفع تهمة عن برىء .

— وأن الدليل المادى يجب أن يعتمد عليه شهادة ، وقضاء .

— وأن القاضى يجب ألا تربطه بأى الخصمين علاقة تؤثر عليه في قضائه وحكمه ، وعليه أن يعتذر عن القضية ، أو لا توجه إليه ، وإمكان الطعن في حكمه إذا ما ظهر تأثير بعلاقة ما .

افتصاح أمر الزوجة ، وتبريرها لرغبتها :

من السياق القرآنى نرى قوة شخصية هذه المرأة ، حتى على زوجها ، فعلى الرغم من الدليل المادى الذى رد الاتهام ، لم يزد إلا أن طلب الاستغفار إليها من هذا الكيد ، ولكن الحادثة شاعت في أنحاء المدينة ، وتناقلتها النسوة .

قال الله تعالى :

﴿ وقال نسوة في المدينة : امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه ؛ قد شغفها حباً ؛ إنا لنراها في ضلال مبين ، فلما سمعت بمكرهن أرسلت إليهن ، وأعتدت لهن متكأ ، وآتت كل واحدة منهن سكينة ، وقالت اخرج عليهن ، فلما رأينه أكبرنه ، وقطعن أيديهن ، وقلن : حاش لله ، ما هذا بشراً ، إن هذا إلا ملك كريم ، قالت : فذلكن الذى لُمْتُنْنِي فيه ، ولقد راودته عن نفسه ، فاستعصم ، ولئن لم يفعلْ لما أمره ليسجنن ، وليكونن من الصاغرين ﴾ (٢٨) .

(٢٨) سورة يوسف ، الآيات من رقم ٣٠ — ٣٢ .

إن الخبر قد انتشر بالمدينة ، وخص مجتمع النساء بتناقله أكثر من الرجال ، فمن راودته كانت من جنسهن من ناحية ، ولحفة الضغط القانوني عليهن من ناحية أخرى ، ويختلف عن ذلك الرجال الذين يتكون بالعزير احتكاك المأمور بالآمر ، والمسود بالسيد ، وحكم النسوة على امرأة العزير يدل على بقايا من سير الأنبياء السابقين ، ودعواتهم ، فقد اعتبرن المراودة ضللاً مبيناً من ناحية ، كما يدل على أن حبها ليوسف كان حباً جسدياً تحركه الغريزة ، وأن هذا الحب كان من طرف واحد ، وهذا من ناحية أخرى ، وأن الحب الجسدي الذي يكون على هذه الصورة ليس سبيلاً قوياً لبناء أسرة ، وإنما هو لاستنفاد طاقة فقط . واللقاء الزوجي يجمع بين الجسد ، والقلب ، فيكون قضاء الوطر ، والنسل من لقاء الجسدين ، وتكون المودة والرحمة ، والحب القويم والمتكامل من لقاء قلبيين . واعتبرت امرأة العزير تناقل خبرها بين النسوة في المدينة مكرراً فوضعت خطة أشد مكرراً توقف مكرهن .

دعتهن إلى وليمة فلزم عليهن إجابة دعوتها لما للداعية من مكانة أدبية ، ولذا لم يصرح القرآن الكريم بما يُفهم من السياق ، وجلسن جميعاً جلسة مريحة ، وقدمت إليهن ما من شأنه أن يقطع بالسكين ، وهو الطعام ، وحتى هذه اللحظة لم يتضح الغرض الحقيقي من الدعوة ، وحينئذ قالت امرأة العزير ليوسف دون الإفصاح عن اسمه : اخرج عليهن ، فلبى الأمر من صاحبة البيت ، حيث لا معصية في هذه التلبية ، فماذا كان من أمر النسوة ؟

إنهن قد رأين من أعطى شطر الحسن ، كما سبق في الحديث الصحيح . أكبرن جماله وحسنه ، وبهرن به ، وشغلن عما بأيديهن من طعام ، وصارت تقطع كل واحدة منهن يدها بما لديها من سكين لمزيد إعجابها وانبهارها ، وقلن على الفور : ما هذا بشراً ، فلم نعهد بشراً على هذه الصورة من الحسن والجمال ، إن هذا إلا ملك كريم .

حينئذ أعلنت امرأة العزير : أن هذا هو يوسف الذي لُمتنني فيه ، وأقر ، وأعترف أنني أنا الذي راودته عن نفسه ...

وتكشر الجاهلية ، وتتحدى ، حيث يُفقد في ظلامها للقانون سلطانه ،

فعلی الرغم من الاعتراف ببراءة الداعی إلى الله ، سيكون له السجن ، والإذلال ، وقد سبق من قوم لوط — علیه السلام — أن أعلنوا عقوبة الطرد له ، ولقومه لأنهم أناس يتطهرون ، وتأقی امرأة العزيز لتمثل صوت الجاهلية المتمرغ فی وحل الفاحشة ، وتعلن بصوتها العالی دون حياء شأن الجاهلین دائماً حين یوسد الأمر إلى غیر أهله إنها تعلن :

﴿ ولئن لم یفعل ما أمره لیسجن ، ولیكونن من الصاغرین ﴾

وعادت الكرة من جدید ، نغمة التخويف والتجویع ، والتعذیب ، والإذلال .

وما كان من الداعية المعصوم إلا الصمود والثبات ، واللجوء إلى الله سبحانه ، قال الله تعالى علی لسان یوسف — علیه السلام :

﴿ قال : رب ، السجن أحب إلّی مما یدعوننی إلیه ، وإلا تصرف عنی کیدهن (٢٩) أصب إليهن وأكن من الجاهلین ﴾ (٣٠) .

(٢٩) قال صاحب القاموس : الكید : المکر والخبث کالمکیدة والحيلة . وقيل بالمعجم الوسيط : المکیدة : الخديعة ، ويُفسر الكید حسب ما تُسب إليه ، فللشیطان کید ﴿ إن کید الشیطان کان ضعيفاً ﴾ (النساء-٧٦) وللکافرین کید ﴿ وما کید الکافرین إلا فی ضلال ﴾ (غافر ٢٥) وللطاغية کید ﴿ وما کید فرعون إلا فی تباب ﴾ (غافر ٣٧) ولمن دون ذلك أيضاً کید ، فإخوة یوسف کادوا له ﴿ فیکیدوا لك کیداً ﴾ (یوسف ٥) وللنسوة کید كما فی النص الکريم ، وللسحرة کید ﴿ إنما صنعوا کید ساحر ﴾ (طه ٦٩)

ویضاف الكید إلى غیر هؤلاء بمعنى التدير ، وإفساد خطة الکافرین ، فإبراهيم قيل علی لسانه : ﴿ وتالله لأکیدن أصنامکم بعد أن تولوا مدبرین ﴾ (الأنبياء ٥٧) كما یُضاف إلى الله سبحانه إما فی مقام المشاکلة اللفظية ، أو إفساد خطة الکافرین ، ونصرة المؤمنین الذین لجئوا إلیه . ﴿ كذلك کدنا لیوسف ﴾ (یوسف ٧٦) ﴿ إنهم یکیدون کیداً وأکید کیداً ﴾ (الطارق ١٥ - ١٦) وأخبر الله عن کیده فقال : ﴿ وأملی لهم إن کیدی متین ﴾ (الاعراف ١٨٣ ، والقلم ٤٥) .

وتفسیر صاحب القاموس للکید بأنه المکر لا يمنع نسبته إلى الله سبحانه فقد قال : =

واستجاب الله سبحانه ، فالسجن على ما فيه من مكروه أهون على نفس عفيفة ، وأحب إليها من التعرض للفاحشة .

﴿ ومكروا ومكر الله ، والله خير الماكرين ﴾ (آل عمران ٥٤) ﴿ قل الله أسرع مكرًا ﴾ (يونس ٢١) .

وتفسير المعجم الوسيط المكيدة بالخدعة ليس بمانع أيضاً فقد قال تعالى : ﴿ إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم ﴾ (النساء ١٤٢) ولكن تفسير الكيد بالخبث لا يتأتى إلا في جانب الشر المحكوم عليه بالتاب ، والهلاك والضلال .

ولما أردنا تقديم هذه المقدمة إبعاداً لظن سيء بالصديقة بنت الصديق أم المؤمنين عائشة — رضى الله عنها وعن أبيها .

أخرج الشيخان عنها ، أنها قالت : لما مرض رسول الله — ﷺ — مرضه الذى مات فيه ، فحضرت الصلاة فأذن ، فقال : « مروا أبابكر فليصل بالناس ، فقبل له : إن أبابكر رجل أسيف (أى شديد الحزن ، رقيق القلب ، سريع البكاء) إذا قام مقامك لم يستطع أن يصل بالناس ، وأعاد فأعادوا له ، وأعاد الثالثة ، فقال : « إنكن صواحب يوسف ، مروا أبابكر فليصل بالناس » فخرج أبو بكر فصلى ، فوجد النبى — ﷺ — من نفسه خفة ، فخرج بهادى بين رجلين (هما العباس ، وعلى ، كما ذكر فى إجابة ابن عباس عن سؤال وجه إليه) كأنى انظر رجله تخطان الأرض من الوجع ، فأراد أبو بكر أن يتأخر ، فأومأ إليه النبى — ﷺ — « أن مكانك » ثم أتى به حتى جلس إلى جنبه ، فكان النبى — ﷺ — يصل وأبو بكر يصل بصلاته ، والناس يصلون بصلاته أى بكر . اللؤلؤ والمرجان ، كتاب الصلاة ، باب استخلاف الإمام إذا عرض له عذر رقم ٢٣٨ ص ٨٦ .

والشاهد هنا « إنكن صواحب يوسف » أى فى كيدهن ، والكيد المناسب هنا كما يدل النص نفسه : بمعنى المخالفة للأمر بسرعة ، وليس أبعد من ذلك ، خاصة وأن فى هذه المخالفة ما يدفع أى نوع من المحابة لغيرها ، على حساب الحق ، حتى ولو كان هذا الشخص والدها . والله أعلم بالصواب .
(٣٠) سورة يوسف ، الآية رقم ٣٣ .

يوسف — عليه السلام — بالسجن يدعو إلى الله تعالى ، ويؤول الرؤيا :

أخرج الشيخان - رحمهما الله - عن أبي هريرة - رضى الله عنه - أن رسول الله — ﷺ — قال :

« نحن أحق بالشك من إبراهيم ؛ إذ قال : رب أرني كيف تحيي الموتى ؟ قال : أو لم تؤمن ؟ قال : بلى ، ولكن ليطمئن قلبي ، ويرحم الله لوطاً ؛ لقد كان يأوى إلى ركن شديد ، ولو لبثت في السجن طول ما لبث يوسف لأجبت الداعي » (٣١) .

ودخول يوسف — عليه السلام — ثابت بصريح القرآن الكريم ، وطول مكثه فيه ثابت بالحديث المتفق عليه ، صراحة ، كما يفهم أيضاً من سياق النص القرآني ، وترتيب إجابة الداعي — فرضاً — على طول المكث يدل على ما ناله بالسجن من إيلام .

(٣١) اللؤلؤ والمرجان ، كتاب الإيمان ، باب نحن أحق بالشك من إبراهيم ص ٣٠ رقم ٩٢ ، وقد ورد بالهامش تعليق المحقق د . عبد الستار أبو غدة :

أى أن الشك يستحيل في حق إبراهيم — عليه السلام — ولو كان الشك متطرقاً إلى الأنبياء — عليهم الصلاة والسلام — لكنت الأحق من إبراهيم ، وقد علمتم أن إبراهيم لم يشك ، فإذا لم أشك أنا ، ولم أرتب في القدرة على الإحياء إبراهيم أولى بذلك ، ويرحم الله لوطاً لقد كان يأوى إلى ركن شديد : إلى الله تعالى ، ولو لبثت في السجن ما لبث يوسف لأجبت الداعي ، أى لأسرعت في الخروج من السجن ، ولما قدمت طلب البراءة ، قال محيي السنة : وصف — ﷺ — يوسف بالأنانة والصبر ؛ حيث لم يبادر إلى الخروج حين جاءه رسول الملك فعل المذنب حين يعفى عنه مع طول لبثه في السجن ، بل قال : ﴿ ارجع إلى ربك فاسأله : ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن ﴾ أراد أن يقيم الحجة في حبسهم لإياه ظلماً . ١ هـ

إن يوسف — عليه السلام — أدخل السجن لأوهى مبرر من القوم ، فقد كانت براءته واضحة ، ولكنهم أرادوا إدخاله إليها بأنه راودها عن نفسها ، وأنهم سجنوه على ذلك ، ولهذا لما طلبه الملك في آخر المدة امتنع عن الخروج حتى تتبين براءته مما تُسب إليه من الخيانة .

اعتبر السجن على ما فيه من ضيق ومكروه ، أفضل مما يتعرض إليه خارجه ، وأن الإقامة فيه صرف لكيد النسوة ، وأن تحقيق ذلك نعمة من الله سبحانه تفضل بها عليه ، ولذا طويت صفحات ما لاقاه بالسجن ، وفُهمت فهماً من إشارات الآيات ، والحديث ، وبقيت صفحة الدعوة إلى الله سبحانه .

قال الله تعالى :

﴿ ودخل معه السجن فتيان ، قال أحدهما : إني أراي أعصر خمراً ، وقال الآخر : إني أراي أحمل فوق رأسي خبزاً تأكل الطير منه ، نبئنا بتأويله ؛ إنا نراك من المحسنين ﴾ (٣٢) .

إنها الثقة تدفع صاحبها إلى من يركن إليه ، وحسب الصديق رصيده الضخم من التجربة والنزاهة والعفة ، ويكون التأكيد من الفتيين على إحسانه ﴿ إنا نراك من المحسنين ﴾ .

وتدرج يوسف — عليه السلام — في الدعوة إلى الله سبحانه ، على الرغم من أنه خلف القضبان ، في أقبية السجون .

قال الله تعالى :

﴿ قال : لا يأتيكما طعام ترزقانه إلا نبأتكما بتأويله قبل أن يأتيكما ، ذلكما مما علمني ربي ، إني تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله ، وهم بالآخرة هم كافرون ، واتبع ملة آباءي إبراهيم ، وإسحاق ، ويعقوب ، ما كان لنا أن نشرك بالله من شيء ، ذلك من فضل الله علينا ، وعلى الناس ، ولكن أكثر الناس لا يشكرون ، يا صاحبي السجن ، أرباب متفرقون خير أم الله الواحد

(٣٢) سورة يوسف ، الآية رقم ٣٦ .

القهار ؟ ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتوها أنتم وآباؤكم ، ما أنزل الله بها من سلطان ، إن الحكم إلا لله أمر ألا تعبدوا إلا إياه ، ذلك الدين القيم ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون ، يا صاحبي السجن ، أما أحداً فيسقى ربه خمراً ، وأما الآخر فيُصلب فتأكل الطير من رأسه ، قُضى الأمر الذى فيه تستفتيان ، وقال للذى ظن أنه ناج منهما : اذكرنى عند ربك ﴿ ٣٣ ﴾ .

— الدعوة في موقف التهيئة :

فقد أعلن إليهم إخبارهم بنوع الطعام قبل أن يأتيهما ، وذاك أمر مادي ملموس يدفع إلى الثقة فيه أكثر ، وفيما يدعو إليه ، وعلى الفور عرفهما أن هذا الإخبار ليس اجتهداً منه ، وحنساً وتخميناً ، ولكن من تعليم الله سبحانه له . إذن هناك رب وهناك مربيوب .

— الدعوة في موقف الحكم العام على الكفر :

وذلك بأن القوم قد جهلوا حقيقة الربوبية الحققة ، وكفروا بها ، وأن الداعية واضح متميز فقد ترك ملة قوم لا يؤمنون بالله .

— جذور الدعوة إلى الله سبحانه :

فهى دعوة الأنبياء الذين يتصل بهم نسباً وعقيدة . تفضل الله عليهم بتوحيدهم إياه ، ونبذهم للشرك ، أما من جهل هذا الفضل استبدل بالشكر على النعمة جحوداً .

وإلى هنا والمواقف لا تمس — بشكل مباشر — الفتيتين . وبقي على الداعية

(٣٣) سورة يوسف ، الآيات من ٣٧ إلى ٤٢ ، وبقيّة الآيات التى تتصل بالرؤيا حتى ٤٩ .

وقد تجاوز مرحلة جس النبض ، والاختبار ، وإحساسه رضاهم — بقي عليه أن يتوجه إليهم بشكل مباشر .

— دعوة الفتيين :

إنه حين أراد نصحهما بشكل مباشر تودد إليهما ، وتلطف وترفق ، فما كان الرفق في شيء إلا زانه ، وما نزع من شيء إلا شانه فقد قال لهما : يا صاحبي السجن ، فهما صاحبان له ، ويشاركانه آلام السجن وعذابه ، ولا مجال لأن يكذب واحد على الآخرين .

— الدعوة وقضية التوحيد :

ونلمح أيضاً من خلال الآيات الاهتمام الأكبر بقضية التوحيد .
فقد أبطل الشرك بأسلوب الحصر القاطع ، ﴿ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نَشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ .

وقارن بين تعدد الأرباب ، والوحدانية ﴿ أَرَأَيْتَ مَتَفَرِّقُونَ خَيْرَ أَمِ اللَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾ ؟ ووصفه الأرباب بالتفرق سبيل إلى إنكار التعدد هذا . وأن هذه الأرباب ليس عليها دليل أو سلطان حتى نتمسك بعبادتها ، وهو إذ يقرر الوحدانية لله سبحانه جعل من لوازم الإيمان بقضية التوحيد ، التحاكم إلى الله سبحانه دون سواه ، وأن التحاكم إلى غيره مظهر شركي ، كما أن العبادة الصحيحة لا تكون إلا نتيجة الإيمان الكامل بالوحدانية : ﴿ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ، أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ﴾ وختم يوسف — عليه السلام — مناقشة هذه القضية مع السجينين بأمرين :

الأول : أن دين الله سبحانه هو أقوم الأديان . كما يفهم ذلك من أسلوب الحصر بتعريف الطرفين ﴿ ذَلِكَ الدِّينُ الْقِيمُ ﴾ .

الثاني : أن العلم هو أساس الدعوة إلى الله سبحانه ، وتوحيده ، والعالم

الحق هو الذى يمكنه أن يدرك هذه الوحداية ، وأن انتشار الجهل بين الناس مدعاة للشرك بأى نوع من أنواعه ، خفيه ، أو جليه .

— الدعوة تدخل قلبى السجينين :

ونتصور الآن هذين السجينين ، وقد أصابها إلى ذلك الصوت الجديد ، الذى بدأهما بالإخبار عن طعامهما قبل أن يأتى ، ثم تابع الحديث بدعوتهما إلى دين الله ، ثم هو الآن يفسر لهما الرؤيا بعد أن قطع شوطاً فى الدعوة ، وكان تفسيره للرؤيا بإيجاز ولكنه واف وواضح .

— تفسير الرؤيا :

للسجين الأول : الذى قال : ﴿ إني أراي أعصر خمرًا ﴾ قال له يوسف — عليه السلام : « ستكون من حاشية الملك ، وتقدم إليه ما يشرب من خمر » .

للسجين الثانى : الذى قال : ﴿ إني أراي أحمل فوق رأسي خبزاً تأكل الطير منه ﴾ قال له يوسف — عليه السلام : سيُحكَم عليك بالموت ، ثم الصلب ، وتترك فى العراء حتى تأكل الطير من لحم رأسك حيث يحط الطير .

— الثقة فى التفسير :

إن يوسف — عليه السلام — قال فى أول خطابه لصاحبيه بشأن تفسير الرؤى ﴿ ذلكما مما علمنى ربى ﴾ وهما هو الآن واثق تماماً فى هذا التفسير طالما أنه من تعليم الله سبحانه ، وزيادة فى اليقين رتب على نجاة الناجى منهما تكليفه تبليغ رسالة إلى الملك .

﴿ وقال للذى ظن أنه ناج منهما : اذكرنى عند ربك ﴾ إلى انقل له أمرين :

الأول : علمى بتفسير الرؤيا .

الثاني : أنى على دين التوحيد ، دين إبراهيم ، وإسحاق ، ويعقوب ، وأننى من أبنائهم .

رؤيا الملك :

إن قضية الرؤيا شغلت عدداً كبيراً من الناس ، بدأت بالملك ، ثم الملأ من حاشيته ، ثم الناجى وغيره ليكون الصدق فى التفسير شاهداً على صديق يوسف عليه السلام وبراءته .

ولذا كان النداء من الناجى على هذا النمط ﴿ يوسف أيها الصديق ﴾ قد رأى صدقه فى نفسه ؛ فقد نجا فعلاً ، ولكن هنا يطلب الفتوى للجميع ، ولذا قال : ﴿ أفستا ﴾ وعرض عليه الرؤيا .

وتأمل تفسير الصديق يوسف عليه السلام لهذه الرؤيا ...

﴿ قال تزرعون سبع سنين دأباً فما حصدتم فذروه فى سنبله إلا قليلاً مما تأكلون ، ثم يأتى من بعد ذلك سبع شداد يأكلن ما قدمتم هن إلا قليلاً مما تحصنون . ثم يأتى من بعد ذلك عام فيه يَغاثُ الناس وفيه يعصرون ﴾ (٣٤) .

إنه لا يكتفى بتفسير الرؤيا ، ولكنه يضع الوقاية من المهلكة المرتبة للأمة ، إذن فهو حريص على الأمة جميعها ، وليس على الملك وحده ، أو العزيز وحده ، أو زوجة العزيز وحدها . فالحصيد قسمان :

قسم يُدخر فى سنبله حتى لا يأكله السوس ، وقسم يُؤكل مع الاقتصاد فيه طالما أنه ينتظر جفاف ، ويأتى الفرج أخيراً طالما اتخذت الحكمة وادخرت المواد التموينية لمجموع الأمة .

إن عرض الرؤيا على هذا النمط مثير فعلاً ، وقبل أن يرى لها واقع فى الحياة ،

(٣٤) الآيات من سورة يوسف من ٤٧ — ٤٩ .

وأول من أثاره هذا التفسير الملك ، وعلى الفور طلب المعجىء به ، ومنحه عفواً من سجن طال أمده ، ولكن براءة العرض ثينة لا بد أن تعلن على الملأ ، ويظهر كذب امرأة العزيز والنسوة قبل أن يخرج من السجن (٣٥) .

وكان سؤال وجواب وأعلنت النسوة : ﴿ قلن حاش لله ما علمنا عليه من سوء ، قالت امرأة العزيز : الآن حصحص الحق أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين ﴾ (٣٦) .

يوسف — عليه السلام — وزير على خزائن الأرض :

وكان الملك حكيماً حين قبل دعوة يوسف — عليه السلام — أن يكون أميناً على الخزائن ، وقد سبق له ما يرشحه لهذا المركز بالذات كما يدل عليه تفسيره لرؤيا الملك .

ولكن يوسف — عليه السلام — أضاف لكفاءته صفتين ضروريتين لكل مسئول عن أرزاق العباد ، قال الله تعالى على لسانه :

﴿ اجعلنى على خزائن الأرض (٣٨) إني حفيظ عليم ﴾ (٣٧)

فالصفة الأولى هي الأمانة في الحفظ ، وتلك من لوازم كل مسئول وخاصة من كان بهذا المنصب ، والصفة الثانية خبرة في جانب الحفظ ، فهو يعلم الوسائل والأسباب التي تؤدي إلى الاكتفاء بما هو موجود دون إفراط ، أو تفريط ، وهذا ما نعينه حالياً بأسلوب الإدارة والمحاسبة .

(٣٥) هذا الموقف الذى ورد فيه الحديث السابق « ولو لبثت في السجن ما لبث يوسف لأجبت الداعى » .

(٣٦) سورة يوسف ، الآية رقم ٥١ .

(٣٧) سورة يوسف ، الآية رقم ٥٥ .

(٣٨) فقد كانت مصر بهذا التعبير المركز الأهم في الأرض ، أو أن الممالك الأخرى تتبع مصر في سياستها وظروفها آنذاك فناسب أن يُقال عن خزائن مصر خزائن الأرض.

واستطاع يوسف — عليه السلام — أن يعدل في رغبة الملك إلى الأفضل ، فالملك رغب أن يستخلصه لنفسه فيكون مكيناً أميناً فيما له ، فكان مكيناً أميناً فيما له ، ولغيره ؛ من المقيمين ، والوافدين . كما يدل عليه لقاءه بالإخوة ، وتجهيزهم بما طلبوه .

وإذا كان المسئول قد حظى عن كفاءة بهذا المنصب ، فعليه أن يتجده بأعماله هذه لله سبحانه ؛ فلا تطغيه المادة ، ولا تبطره النعمة ، وليتذكر أن إسناد مثل هذه الوظائف لأمثال يوسف — عليه السلام — من رحمة الله بعباده ، فعليهم أن يحسنوا العمل ، وينظروا إلى الأجر الأفضل — أجر الآخرة — ويتقوا الله سبحانه في كل عمل يعملونه .

لقاءه بالإخوة :

إن صفحة يوسف — عليه السلام — في نظر الإخوة قد طويت وعفا عليها الزمن منذ أن ألقوه في غيابة الجب ، أمات بالجب ؟ أم أخذه إنسان لا يدري عن أصله وفصله ، فيسترقه ، يُباع ويُشترى ، ويصير كماً مهملاً ؟ .

ولكن الله سبحانه وقد أوحى إليه وهو في البئر جعل السكينة تملأ قلبه ، وأشعره بالمعية معه جل شأنه أياً كانت الأحداث ، ولم ينس يوسف — عليه السلام — تلك الحقيقة ، فعلى الرغم من ظلمات السجن ، وعذابه قد وجه طاقته إلى الدعوة إلى الله ، ووحدانيته ومحاربة الشرك ، والمشركين ، وتطويع المراكز الإدارية لدين الله سبحانه في الأرض ، وتلك من وسائل تطبيق شرع الله تعالى في الأرض .

ولما باشر يوسف — عليه السلام — الوزارة بمصر ، ومضت سبع السنين الخصبية ، ثم تلتها سبع السنين المجدبة طبقاً لما فسره من رؤيا الملك ، وعم القحط بلاد مصر بأكملها ، ووصل إلى بلاد الشام ، وهى التى فيها يعقوب — عليه السلام — وأولاده .

وحينئذ احتاط يوسف — عليه السلام — للناس في غلاتهم وجمعها أحسن جمع ، وورد عليه الناس من كل الأقاليم (٣٩) .

وكان يوسف — عليه السلام — الشخصية الأولى في تاريخ مصر آنذاك إذ حفظها من مجاعة مهلكة — يعطيهم لأنفسهم وعيالهم ، فكان لا يعطى الرجل إلا مقداراً مناسباً يكفل إبقاء حصص أخرى للآخرين .

وجاء إخوة يوسف — عليه السلام — من أرض الشام إلى أرض مصر طلباً للطعام فدخلوا عليه فعرفهم ولكنهم لم يتعرفوا عليه ، فرحب بهم أيما ترحيب ، وكان خير المنزليين لهم ضيافة وحسن لقاء ، وأكرمهم بوفاء الكيل ، وقبل أن تُحمل الإبل كان شرط يوسف — عليه السلام .

سوف لا أعطيكم ما جهزكم به إلا إذا رجعتم وأتيتم بأخ لكم من أيكم

(٣٩) وقد دعا النبي ﷺ على مضر بالجدب والقحط كسنى يوسف — عليه السلام — فعن أبي هريرة رضى الله عنه قال : وكان النبي ﷺ حين يرفع رأسه يقول : « سمع الله لمن حمده ربنا ولك الحمد يدعو لرجال فيسميهم بأسمائهم فيقول : اللهم أنج الوليد بن الوليد ، ومسلمة بن هشام ، وعياش بن أبي ربيعة ، والمستضعفين من المؤمنين ، اللهم اشدد وطأتك على مضر واجعلها عليهم سنين كسنى يوسف ، وأهل المشرق يومئذ من مضر مخالفون له » .

رواه الشيخان ، اللؤلؤ والمرجان — كتاب المساجد ، مواضع الصلاة ٥ — باب استحباب القنوت في جميع الصلاة إذا نزلت بالمسلمين نازلة رقم ٥٤ .

اشدد وطأتك .. الوطأة — شدة الاعتماد على الرجل والمراد : اشدد بأسك ، وعقوبتك ، واجعلها أى السنين وقد نصوا على جواز عودة الضمير على المتأخر لفظاً ورتبة إذا كان مخبراً عنه بخبر يفسره بمثل .. ﴿إن هي إلا حياتنا الدنيا﴾ .. وما نحن فيه من هذا القليل . سنين .. جمع سنة والمراد هنا زمن القحط كسنى يوسف — عليه السلام — السبع الشداد في القحط وامتداد زمان المحنة ، والبلاء ، وبلوغ غاية الجهد ، والضراء (هامش اللؤلؤ) وهذا يدل على أهمية تفسير رؤيا الملك ، وأهمية الدور الذى يقوم به يوسف عليه السلام للخروج من هذه المحنة .

وهو شقيق يوسف (٤٠) وإلا فلا كيل ولا وزن ولا إقامة لكم هنا ولا ترحيب ، وقبولهم لهذا الشرط يدل على ما أصاب الناس بالشام أيضاً من مجاعة ، وعليهم أن يسيروا الأيام الطويلة ذهاباً وإياباً لينفذوا الشرط ، ثم هم لأزالوا متهمين في نظر والدهم يعقوب — عليه السلام — بشأن يوسف — عليه السلام ، فهو حتى الآن لم ينسه ، ويطمع في اللقاء به من جديد — إن شاء الله تعالى .

وحين الرحيل كلف عماله ، ومن تحت يده ، من الموظفين أن يجعلوا بضاعتهم في رحالهم التي جاعوا للاستبدال بها الحبوب .

تلهفهم على الطعام المشروط بحضور الأخ جعلهم يسرعون في الحديث مع الوالد بهذا الشأن قبل أن يفتحوا رحالهم .

﴿ قالوا : يا أبانا منع منا الكيل فأرسل معنا أخانا نكتل وإنا له لحافظون . قال هل آمنكم عليه إلا كما أمنتكم على أخيه من قبل فالله خير حافظاً وهو أرحم الراحمين ﴾ (٤١) .

ولكنهم بعد هذا أدركوا أن بضاعتهم في رحالهم فلم صمموا على أخذ الأخ كما طلب يوسف — عليه السلام ؟ فعلوا ذلك حتى يؤخذ نصيب هذا الفرد الجديد وذلك كسب زائد للطعام .

قال لهم أبوهم :

﴿ لن أرسله معكم حتى توثقوا موثقاً من الله لتأثني به إلا أن يُحاط بكم فلما آتوه موثقهم قال الله على ما نقول وكيل ﴾ (٤٢) .

ويظهر أن نوعاً من الندم قد أصاب الإخوة ، وأنهم أحسنوا المعاملة

(٤٠) مما يدل على أنه تداول معهم الحديث فذكروا له من أحوالهم وظروفهم الاجتماعية وأن لهم أخوا غير شقيق ، وإلا لأثار طلب يوسف الأخ استغواً في نفوسهم وشكاً وهذا لم يحدث فدل على السابق .

(٤١) سورة يوسف الآيتان ٦٣ — ٦٤ .

(٤٢) سورة يوسف الآية ٦٦ .

بالوالد ، فقد لى طلبهم على الرغم من فعلتهم السابقة فى يوسف — عليه السلام ، ويدل على ذلك أيضاً خوفه عليهم من الحسد حيث طلب إليهم أن يدخلوا من أبواب متفرقة ولا يدخلوا من باب واحد . وليس هذا اعتراضاً على حكم الله تعالى وقضائه ...

﴿ إن الحكم إلا لله عليه توكلت وعليه فليتكول المتوكلون ﴾ (٤٣) .

وقطع الإخوة الصحراء من جديد ومعهم شقيق يوسف، والتقوا جميعاً بمصر حيث وجد يوسف الفرصة لإخبار أخيه وكتان ذلك، حتى تتاح فرصة تدبير مؤامرة للإبقاء على أخيه معه بمصر ..

لقاء الإخوة :

منذ أن تعرض الإخوة لطلب شقيق يوسف من الوالد ، وهم فى ابتلاء فقد كانوا متهمين فى نظر الوالد منذ البداية ، فكيف يعطيهم من جديد أخاهم ؟ واضطروا إلى أن يزدادوا فى الإلحاح على أبيهم حتى رضى ، وتم سفرهم إلى مصر كما سبق ؛ ليتعرضوا لابتلاء من صنع غيرهم . وقد يكون هذا تكفيراً لما صنعوه هم سلفاً .

فقد جهزهم يوسف — عليه السلام — بالطعام ، واحتال على أن يُبقى شقيقه معه بمصر دون أن يظهرهم على شخصيته ، فوضع صواع الملك فى رحل أخيه — وهو الذى يُسقى به — ولا بد أن يكون نفيساً وله شأن عند الجميع . وعلى القافلة أن تتحرك متجهة إلى الشام .

وقطع مسيرهم هذا صوت مناد يصيح ، ويناديهم ، ففوجئوا جميعاً ولهم الحق فى ذلك ؛ فهم لم يسرقوا ، ولم يفكروا فى السرقة ؛ بل انصاعوا لحكمهم السابق فى إحضار الأخ ، ولذا كان تعجبهم وهم مقبلون على الصوت ماذا

(٤٣) سورة يوسف الآية ٦٧ .

تفقدون ؟ وأحكمت الحيلة من يوسف — عليه السلام — والذي سوغ له هذا ترتب المصلحة عليه ليوسف ، ولجميع الإخوة ، والوالدين .

وكانت إجابة المنادى نفقد صواع الملك ، ولمن جاء به البراءة ، والجائزة ، وضمان ذلك أن يتشجع ويعطينا ما أخذ ، ودار حوار بينهم :

﴿ تالله لقد علمتم ما جئنا لنفسد في الأرض وما كنا سارقين ، قالوا : فما جزاؤه إن كنتم كاذبين ﴾ (٤٤) .

وكان جزاء السارق في شريعة الخليل إبراهيم وإسحاق ويعقوب — عليهم السلام — أن السارق يدفع إلى المسروق منه ، ولم يتردد الإخوة في أن يحكموا شريعتهم التي تقضى بذلك وهم على يقين من براءتهم ، ولكن يوسف — عليه السلام — يريد إبقاء أخيه ، والأمور تسير حسب الخطة التي رسمها ، فكان التفتيش عن الصواع ؛ فبدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه ، ثم انتهى به بتفتيش وعاء أخيه ، وتكرار كلمة أخيه تدل على الهدف .

وقد تحقق هذا الهدف بإلهام الله سبحانه وتعالى يوسف — عليه السلام — هذه الخطة مما يرفع أى لوم يُنسب إليه كرسول .

﴿ كذلك كدنا ليوسف ، ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك إلا أن يشاء الله ﴾ (٤٥) .

ووصل الابتلاء إلى الذروة حيث لزمتهم الحجة بتطبيق شريعتهم هم والتي اقترحوها عقاباً لمن سرق . ووجدوا أنفسهم سينفصلون عن شقيق يوسف ، برغم المواثيق التي قطعت بينهم ، وبين والدهم يعقوب — عليه السلام — ولم يصدقوا ما حدث ففوجئوا بأمر ما كانوا يتصورونه ، ولكن الدلائل الظاهرة تدل على السرقة فكان تعليقهم السريع من هول المفاجأة ..

﴿ إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل ﴾ . أى يوسف ولم يرد في ستة

(٤٤) سورة يوسف الآيتان ٧٣ ، ٧٤ .

(٤٥) سورة يوسف الآية ٧٦ .

أو قرآن بيان لنوع هذه السرقة أهي سرقة حقيقية لصنم يكسره أم غير ذلك ؟
المهم أنهم وقد أخطأوا في الحكم والقياس اعتبروا عملاً ما سرقة في نظرهم
وليس هو في الحقيقة سرقة فقد كان تعليق يوسف — عليه السلام :
﴿ قالوا : إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل فأسرها يوسف في نفسه
ولم يُيدها لهم ؛ قال أنتم شر مكاناً والله أعلم بما تصفون ﴾ (٤٦) .
فماذا يفعل الإخوة وقد أخذ عليهم والدهم الموثق لتأنتنى به إلا أن يُحاط
بكم ؟

ظلوا يلحون على العزيز في العفو عن أخيه ، أو أخذ واحد منهم مكانه
وذلك مخالف لما اقترحوه هم من تحكيم شريعة يعقوب — عليه السلام — وكعادة
المرء حين تكون له حاجة ويسعى في مظانها أن يختار من صفات المخاطب
ما يساعد على قضائها .. ﴿ إنا نراك من المحسنين ﴾ ، وقد سبق أن قدمتم إلينا من
الإحسان بالتكريم ، وإعطاء القوت .

ولكن الخطة لها طريق آخر غير هذا الطريق . فكان لابد من تثبيت
شريعة يعقوب في الحكم . ﴿ قال : معاذ الله . أن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا
عنده إنا إذن لظالمون ﴾ .

وإذا كان يوسف قد نطق بالعبرة السابقة فقد كان حذراً حين لم يكرر
النداء إنكم لسارقون وقال هنا : مَنْ وجدنا متاعنا عنده حيث رفع آصرة السرقة
عن أخيه ، ولو تعبيراً ، ورتب الظلم على مخالفة القاعدة دون اعتبار المضمون في
التطبيق فهو بالحقيقة غير ظالم حين أراد أن يكون أخوه بجواره .

وانتهى الموقف بحتمية الإبقاء لأخى يوسف بمصر وعليهم أن يفكروا كيف
يواجهون أباهم من جديد ؟

(٤٦) سورة يوسف الآية ٧٧ .

البراءة من الإهمال :

إن الإخوة هنا على نمط آخر مخالف لما كانوا عليه بصحراء الذئب إن الموقف قد آلمهم ، ووضعهم في حرج شديد فقد كانوا على يقين أنهم سيحافظون على أخيتهم وما تعرض إليه يوسف هم الذين صنعوه ويعلمون حقيقته .

بعد أن بذلوا جهداً كبيراً في محاولة تخليص الأخ من الإبقاء عقوبة في مصر عقدوا اجتماعاً فيما بينهم ذكرهم الأخ الأكبر بما كان من موثق حتى يتصرفوا في ضوئه ، وقد ألزم نفسه المشاركة في المعاناة ، فهو سيقم بمصر قريباً حتى يأذن له أبوه أو يحكم الله حكمه ، وهو خير الحاكمين .

وبرغم الحكم على نفسه بالبعد عن موطنه لم يبخل على إخوته بالنصيحة ، والتي نفذوها بالحرف الواحد .

﴿ارجعوا إلى أيكم فقولوا يا أبانا إن ابنك سرق وما شهدنا إلا بما علمنا ، وما كنا للغيب حافظين ، واسأل القرية التي كنا فيها والعير التي أقبلنا فيها وإنا لصادقون﴾ (٤٧) .

والدلائل على البراءة هنا غيرها بالأمس :

فالقضية عرضت على وجه السرعة إن ابنك سرق .

وموقفهم أنهم شاهدوا هذا بأعينهم .

وإذا كنا قد أخذنا موثقاً على إرجاعه فنحن لا علم لنا بالغيب .

وإذا كان من شك في كلامهم فالوالد يمكن أن يتأكد بسؤال جهتين :

جهة قريبة شاهدت الموقف ، وحضرت إلى الوطن . وهي القافلة التي علمت بشأن السرقة ، والتي لا يمكن أن تجمع على باطل .

وجهة بعيدة . هنالك بمصر ؛ فقد تسمع الناس أيضاً بخبر السرقة وإن كنا

(٤٧) سورة يوسف الآيتان ٨١ ، ٨٢ .

قد طلبنا تحكيم شريعة جدنا الخليل ، والتي تعاقب السارق نفسه دون بديل ؛ فهذا يدل على براءتنا ، وحرصنا على الوفاء بالموثق .

وأنى لهذه الدلائل أن تنسيه ابنين ، ومعهما أيضاً الابن الأكبر الذى لم يقدر على مواجهة والده ، فظل بعيداً .

﴿ قال : بل سولت لكم أنفسكم أمراً فصبر جميل ، عسى الله أن يأتينى بهم جميعاً ؛ إنه هو العليم الحكيم ﴾ (٤٨) .

وبدا يعانى الوالد المكلم فى أولاده الثلاثة ، وأعرض عمن حمل إليه هذه الأنباء الحزينة ، واشتد بكأؤه حتى فقد بصره .

وبدا الشعاع الإيماني يرسل ومضاته نحو يوسف ، على الرغم من تباعد الزمن . مما يدل على قرب اللقاء .

ولم يستطع الإخوة أن يفسروا إحياء ما مضى من أحداث بعيدة ، وما ملكوا إلا أن قالوا : ﴿ تالله تفتأ تذكر يوسف حتى تكون حرضاً أو تكون من الهالكين ﴾ (٤٩)

ولكن القلب الموصول بالله سبحانه يشكو به ، وحزنه إلى الله سبحانه ، ويعلم من الإلهام ، والهداية ما لا يعلمه غيره من الناس .

تحرك إيجابى :

وبدا يعقوب — عليه السلام — يدخل هذه الأحداث بصورة جديدة . وقد دل كلامه على أن ذلك من هدى الله سبحانه وتعالى ..
﴿ وأعلم من الله ما لا تعلمون ﴾ .

(٤٨) سورة يوسف الآية ٨٣ .

(٤٩) سورة يوسف الآية ٨٥ .

وأضاف إلى مخزون نفسه السابق تلك الرؤيا التي رآها يوسف إذن فلا زال في الغيب فرصة اللقاء ، ولكن أين هي ؟ ومتى تكون ؟
إنه طلب إلى أبنائه عملاً .. وأوصاهم وصية والعمل والوصية لازمان ، وكل منهما مكمل للآخر .

فالعمل ذهاباً إلى مصر من جديد ؛ بغرض البحث عن يوسف وأخيه ، والبحث يأخذ أشكاله ؛ من سؤال الناس ، وتسمع لما يدور بينهم ، وتحسس لما خفى من ملابسات تعين على الوصول إلى الغرض .

وقد يأخذ هذا العمل مدة ، وقد يصيبهم فتور ، أو يأس ، فكانت الوصية بعدم اليأس ، وضرورة المثابرة في البحث ، وعلق يعقوب — عليه السلام — مشاعرهم هنا بالله سبحانه وتعالى ، فلم يقل : لا تيأسوا من الحصول على يوسف ، ولكن قال : ﴿ لا تيأسوا من روح الله ﴾ ؛ لأن الله سبحانه وتعالى هو الذى تولى وحده إدارة الأمور ، وتصريفها ولذا كان تعليله .. ﴿ إنه لا يئس من روح الله إلا القوم الكافرون ﴾ (٥٠) .

ومعنى ذلك أن البشرى باللقاء بدأت تقوى في نفس يعقوب ، ويريد أن يُزيل الإخوة آصرة الأخطاء السابقة ، بنجدهم في البحث ، وقد كان ..

ولكن الأحداث جاءت إليهم طبيعية ، وقد بدعوا متخفين في صورة طلب الكيل ، والإنقاذ من الجوع ، والرجاء في الإحسان ، والصدقة ؛ حيث فقدوا حتى الثمن المجزى ، وإن الله سبحانه هو المجزى على الصدقة .

وكانت سفرة مباركة ؛ حيث أفصح يوسف عن شخصيته

فرحة اللقاء :

وتحركت عاطفة الرحمة والشفقة بالإخوة حيث أخذت الشكوى مجالها في

(٥٠) سورة يوسف الآية ٨٧ .

نفوسهم وذلك مما أصابهم من القحط والجذب ، وقد وصل بهم الأمر — كما سبق — أن لم يملكوا الثمن الذى يوفر لهم القدر الذى ينقذهم مما أصابهم . فأشفق عليهم حيث وصلوا إلى آخر نقطة فى مسيرة كانت بقيادتهم ؛ ليسلموا الزمام بكامله إلى من تسلم زمام دولة بكاملها ؛ لأنه حفيظ عليم .

ومن نبرات جديدة بعيدة عن الكيد والحيلة تذكرنا نبرات أخ فقلوه منذ أمد بعيد ﴿ قالوا : أئنك لأنت يوسف ؟ قال : أنا يوسف وهذا أخى ﴾ . وعلى الفور نبههم إلى أن هذا المصير وقد ارتبط بما سبقه من نجاة ، وحفظ ، وبراءة من الباطل ، ودعوة إلى الله من صنع الله سبحانه : ﴿ إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين ﴾ .

ولم يبدأ اللقاء إلا وارتفعت كلمة الحق الخالصة لله سبحانه فى كل زاوية من زوايا المجلس أما الإخوة فإنهم يتحركون من الأرض إلى أعلى ﴿ لقد آثر الله علينا ﴾ (٥١) .

ولم يناقشوا أنفسهم لم كان هذا الإيثار ؟ ولعلمهم سيفهمون هذا فى مستقبل أيامهم ، أما يوسف — عليه السلام — فيخاطبهم حيث هو ..

﴿ لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين ﴾ (٥٢) .

وتبدأ أغرب رحلة فى تاريخ البشرية ، إنها رحلة قميص تمتد رائحته عبر الأميال ؛ فتقطع الصحراء الشرقية لمصر ، وسيناء وجنوب الشام ، إلى موطن يعقوب .

فبمجرد أن تحركت العير بالقميص قال : إني لأجد ريح يوسف . على الرغم من أن إعلان هذا الأمر وجد غرابة كبرى ، واتهاماً منكراً من غيره ، ولكنه كان على يقين من ذلك ، كما أن يوسف عليه السلام كان على يقين بما هو أكبر من

(٥١) سورة يوسف الآية ٩١ .

(٥٢) من سورة يوسف الآية ٩٢ .

ذلك فإذا كان يعقوب — عليه السلام — قد وجد رائحة يوسف من قميصه ،
فإن يوسف عليه السلام علم — بإذن الله — أن إلقاءه على وجه أبيه سيعيد إليه
بصره ، وقد كان .

وحين صدّق الواقع ما أعلنه كل من يوسف ، ويعقوب — عليهما
السلام — أعلن من سبق له أن أنكر : ﴿ يا أبانا استغفر لنا ذنوبنا إنا كنا
خاطئين ، قال : سوف أستغفر لكم ربي إنه هو الغفور الرحيم ﴾ .

وها هي القافلة تتحرك من جديد إلى مصر ؛ لا طلباً للقمح ، والطعام ،
ولكن لينعم أهلها بالأمن في مصر ؛ حيث يوسف — عليه السلام .

وإن طوت الآيات الكريمة هذه الصفحات ؛ فلأنها تعلن عن نفسها دون
حروف .. والد مكلوم يقدم على ابنه الحبيب وقد عاش أيام غربته على هذا الأمل
الذي لم يُفقد أبداً .

فأي فرحة كبرى عنوانها ارتداد البصر؟! إنها ولا بد أن تكون أعظم
فرحة .

وها هي الصورة تنقلنا إلى مصر حيث التقى الجميع في مكان واحد ،
وآمن ، يكون الوالدان أقرب إلى يوسف ، وحوله إخوته ورفع أبويه على العرش
وخرجوا له سُجّداً وقال :

﴿ يا أبت هذا تأويل رؤيائى من قبل قد جعلها ربي حقاً ﴾ (٥٣) .

وعلى الرغم مما احتواه الماضي من غربة ، وسجن ، فقد أحسن الله بى إذ
أخرجنى من السجن ، كما أحسن بكم إذ جاء بكم إلى أولاً ، ونقلكم من بداوة
الشام إلى الحاضرة مصر ، والعلو الحقيقى الذى يجب أن نستعيد بالله منه هو
الشیطان الرجيم فهو الذى نرغ بينى وبين إخوتى ﴿ إن ربي لطيف لما يشاء إنه
هو العليم الحكيم ﴾ .

(٥٣) من سورة يوسف الآية ١٠٠ .

وارتفعت أكف الضراعة إلى الله سبحانه بالجميل من الدعاء ؛ اعترافاً
بالنعم ، وإثباتاً لعظمة الله سبحانه في خلقه للسموات ، والأرض ، واعترافاً بأنه
ولى المتقين والصالحين ...

وتلك المقدمات فى الدعاء لأجمل رجاء

﴿ توفنى مسلماً وألحقنى بالصالحين ﴾ (٥٤) اللهم آمين .

(٥٤) من سورة يوسف الآية ١٠١ .

دروس وعبر :

- لاتنال الدرجات الرفيعة إلا بما قدم المسلم من أعمال الخير بأنواعها ؛ من علم ، وقدره على سياسة الأمور ، وتقديم العون للناس ، وقد كان يوسف عليه السلام فى المقدمة من هذا .
- إن مصدر النعم هو الله سبحانه وتعالى ، وقد أتم نعمه على أنبيائه الكرام ، ولذا كانوا معصومين من الخطأ فى التبليغ عن ربهم .
- السنة النبوية مينة للقرآن الكريم وموضحة له حين بينت أكرم الناس ، وذكرت مثلاً على ذلك بالعقلاء من البشر إذا استغلوا عقولهم فى الفقه ، والفهم ، والاستنباط .
- إن الرؤيا تختلف باختلاف الرأى ؛ فرؤيا الأنبياء وحى ، ورؤيا الصالحين حق ، وهى بهذا الوصف جزء من النبوة ؛ لأنها إخبار بالغيب .
- إذا ما كانت رؤيا خير فتعريف من يحبونه ويقدرونه دون غيرهم من تمام هذا الخير ، فى المودة بين الناس كما طلب يعقوب إلى يوسف عليهما السلام حين رؤياه .
- رؤيا المرء ما يكره تكون من الشيطان لإزعاج المسلم وعلينا من وسائل حربه ، وتقويت الفرصة عليه ألا نوسع دائرة الإزعاج ، وذلك بكتمانها عن الآخرين من الناس .
- على الوالد أن تكون معاملته لبنيه بالعدل ، والرحمة ، والعدل ؛ يقضى بالتساوى بينهم ، والرحمة تقضى بالعطف والشفقة لمن هو بحاجة إليهما .
- إن حب الوالد أو المرئى لأحد الأبناء قيس يقذفه الله سبحانه فى قلوب عباده ، ولا يملكون دفعه ، ولذا لا يؤاخذهم على التفاوت فى هذا الحب .

فإذا ما خرج هذا الحب في صورة تمييز مادي خرج أيضاً من دائرة الحل إلى الحرمة ويُعتبر ظلماً بنص الحديث السابق (٥٥) .

— أخطأ الأبناء حين عتبوا على أبيهم حين أحب أصغرهم ، ولم يلتفتوا إلى سبب الحب ، والحنو ، وهو الصغر ، ورتبوا على الخطأ في الفهم ، ما هو أفدح لو كان صواباً ، وذلك من نزغات الشيطان .

— تتوجه القوة إلى الشر إذا ما سبقها خطأ في الاعتقاد وعصبة الإخوة قوة توجهت إلى إلحاق الضرر بالصغير .

— العقل الجماعي يشكل قوة جديدة فوق قوة الأفراد ؛ فعلى الدولة الإسلامية أن توزع عناصر الشر بالنفي مع المراقبة ، ومن جهة أخرى على جماعة الخير أن تلزم جماعتها؛ فقوتها في الاعتصام بها ، وعدم التفرق كما أمر الله سبحانه ، ولتحذر الجاهلية التي تبث الفرقة بينها بالكثير من الوسائل .

— على المسلم ألا يقبل الخير دون تبين ، وتثبت .

ولهذا الأمر ثلاث حالات :

(١) الحالة الأولى : يكون فيها صاحب الخير ، وحامله ثقة ، ولم يعلم عنه إلا الضبط في القول ، والتأكد من الأخبار قبل نقلها .

وفي هذه الحالة يجب على المسلم أن يصدق مثل هذا الشخص .

وتلك قاعدة في علم الحديث : أن يكون الراوى عدلاً تام الضبط ، يروى عن مثله ، عن مثله ، حتى نهاية سلسلة السند ؛ فيكون الحديث صحيحاً لصحة السند .

(٥٥) موضوع يوسف — عليه السلام — وإخوته ، الهامش .

ولم يكن إخوة يوسف — عليه السلام — على مثل هذه الحال ، حين رجعوا ، وأخبروا أباهم بأن الذئب قد أكل يوسف — عليه السلام .

(ب) الحالة الثانية : يكون فيها صاحب الخبر مشكوكاً فيه ، أى يحوز أن ينقل الصدق ، والكذب ، وعلى المسلم فى مثل هذه الحالة أن يتأكد ، ويتبين . وفى هذا وردت الآية الكريمة :

﴿ يَأْمُرُ الَّذِينَ آمَنُوا ، إِنْ جَاءَكَ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا ﴾ (٥٦)

ورد يعقوب — عليه السلام — على الإخوة بقوله :

﴿ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً ﴾ (٥٧)

يؤكد أن هذا الخبر ليس من هذه الحالة أيضاً ، فقد حكم عليهم بالكذب ابتداءً .

(ج) الحالة الثالثة : يكون فيها صاحب الخبر ، أو حامله متهماً بالكذب ، والعداوة ، وتدل الدلائل على ذلك ، وكان إخوة يوسف — عليه السلام — فى موقفهم السابق — على هذه الحالة ، ومثلها أيضاً حين يطلق العدو الكافر ، أكان من الشرق ، أو الغرب أخباراً تمس أصولنا وعقيدتنا ، وتشوه اجتماعنا واعتصامنا بحبل الله سبحانه ، وتسئ إلى كتابنا ، وديننا ...

وقد يقدم بعض الأخبار الصادقة ؛ بغية النيل من فريسته ﴿ يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ، ويأبى الله إلا أن يتم نوره ، ولو كره الكافرون ﴾ (٥٨) .

وقد أمر الله سبحانه المؤمنين باتخاذ الحذر ، فقال : ﴿ يَأْمُرُ الَّذِينَ آمَنُوا ، خُذُوا حِذْرَكُمْ .. ﴾ (٥٩) وفى هذا الباب تفصيل فارجع إلى مصادره .

— ليس هناك جريمة كاملة الإخفاء ، ولا بد أن يبقى لها أى أثر . وقد

(٥٦) سورة الحجرات ، الآية ٦ (٥٧) سورة يوسف ، الآية ١٨ .

(٥٨) سورة التوبة الآية ٣٢ . (٥٩) سورة النساء ، الآية ٧١ .

- رأى يعقوب — عليه السلام — من العلامات التي تدل على كذبهم وأعلن عليهم ﴿ بل سولت لكم أنفسكم أمراً ﴾ .
- إن صحراء الشام وسيناء كانت تجتازها القوافل ذهاباً وإياباً منذ القدم .
- تناثر الآبار في الصحراء يَمَكِّن القوافل من الضرب فيها بأمان من الهلكة .
- سلطة الكبير على الصغير استغلت في السابق للاسترقاق ظلماً وقد حارب الإسلام هذا ، وذلك في ضوء بيع يوسف بعد أن التقط من الجُب ، ولم يظهر على أحد أفراد القافلة من خالف ذلك .
- من شأن السارق ومن يحصل على متاع دون جهد عدم الحرص عليه والتفريط فيه بأقل الأثمان مما يفضح أمرهما .
- من يقدم الخير يهيئ الله سبحانه له من الأمان والإكرام الشيء الكثير .
﴿ ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ﴾ .
- الله سبحانه أعلم حيث يجعل رسالته ، ويولى أنبيائه من الكرم حتى ولو كان في صورة معاناة وتعَب .
- على أهل الخير والتقوى مهما تباعدت أوطانهم وتعددت جماعاتهم أن يبذلوا مودتهم لإخوانهم أين كانوا ؛ كما كان ترحيب يوسف بالنبي الخاتم — عليهما السلام — ودعاؤه له . وعكس ذلك أن تحيا المنازلة بين الأفراد ، والجماعات ، ويحل الخصام محل الوئام .
- أخطر فتنة توجه إلى الشباب بشكل خاص ، والرجال بصفة عامة ما كانت عن الطريق الجنسي ولذا وجب على الدولة ما يلزم من وقاية وحماية مما تصنعه وسائل الإعلام الرخيصة .
- على الداعية المسلم أن يقى نفسه مواطن الزلل والبعد عن مواطن الشبهات ويحذر وساوس الشيطان من هذه الناحية .

- خلوة المرأة بالشباب ، وخلوة الرجل بالمرأة يحرك من غرائزها ، وتحرك من غرائزه ، ولذا يلزم الأسر المسلمة من الحيطه ، من ترك الخدم بالبيت مع جنس آخر من أصحاب البيت .
- قوة الإيمان تقف في وجه محاولات الإغراء والإثارة من المرأة الأجنبية ، وتقوى صاحبها مصارع السوء .
- ولذا يلزم الاهتمام أساساً بتقويم العقيدة في نفس المسلم التي ترفض تلك المحاولات والتي يمكن أن تأتى أيضاً في المستقبل عند تخصيص قمر صناعى لنقل الإرسال التليفزيونى الحر للشبكات المختلفة كما أعلن أخيراً .
- يُتهم البريء ممن يملك السلطة ، برغم وضوح الدلائل المادية لتبرئته ، كما حدث من امرأة العزيز عند رؤية العزيز وادعائها على يوسف — عليه السلام .
- علينا الاهتمام أيضاً بإبراز الدلائل المادية ، والحرص عليها بالإضافة إلى ما نملكه من عقيدة ، وصدق .
- وقوف المرء بجوار الحق ولو كان ضد أقربائه كما حدث أولاً من العزيز .
- السجن على طول المكث فيه ، أخف على النفس المسلمة العفيفة من الوقوع في الجريمة الخلقية مما يدل على نظافة المجتمع الإسلامى وطهارته ، عكس المجتمعات المادية التي تلهث وراء الانحدار الخلقى ، وتبذل الغالى والرخيص في سبيل الحصول على المتع الجسدية المحرمة .
- الداعية المسلم ينتقل دائماً بدعوته ولو كان بأحلك الأوقات ، ويختار للظرف ما يناسبه ، ويستغل الأحداث لصالح دعوته .
- فيوسف عليه السلام دعا بالسجن ، واختار العقيدة للتركيز عليها واستغل علمه بتفسير الرؤيا لصالح الدعوة ، وحرك النفس البشرية بما تحتاجه من طعام .

- تقويم المجتمع يتم ، ويقوم بميزان الله سبحانه الذي أنعم به على البشر ، ومن الواجب عليهم شكره لا جحوده .
- الدعوة إذا ما أخذت طريقها الصحيح بالحكمة ، والموعظة الحسنة ، والجدال بالتي هي أحسن لمست جوانب النفس البشرية ، فحركاتها إلى الخير خطوة لتتلوها خطوات ، كما حدث لصاحبي السجن .
- قد يكون مع الحكم الجاهلي بصيص خير ، ونور فالملك استشار من حوله وطلب الفتيا في أمر الرؤيا ، وأذعن لتفسير من أودعه السجن قبل ذلك .
- ونرى الآن مجتمعات كافرة شاعت فيها الشورى والحرية ، كما نرى ممن يزعمون أنهم مسلمون كبت الحريات ورفض الشورى في سياسة الدولة .
- حرص المسلم على تقديم الخير للمجتمع الذي يعيش فيه وتجنبيه المهلك ، كمسلك يوسف في تفسير الرؤيا ، وتبصير القوم بما يلزم من تدابير لازمة للخروج من الأزمة بسلام .
- حين يتيقن الداعية المسلم من حصوله على كسب لدينه يخطو خطواته الثانية دون استعجال للأحداث . فبعد أن كان الوثوق من حكمة يوسف على ملأ من الناس طلب البراءة مما اتهم به وقد كان .
- تجمع المواقف المشرفة للداعية تحية المعارضين وتجرهم على الاعتراف بما حاكوه من كذب ضد داعية برىء ﴿الآن حصحص الحق﴾ (٦٠) .
- إعداد الأكفاء الصالحين لقيادة الدولة ولو جزئياً لضيفوا إلى الرصيد الطيب ما يحققونه لصالح الدعوة من مراكزهم .

(٦٠) من سورة يوسف ، الآية رقم ٥١ .

— يجوز شرعاً أن يطلب المسلم الكفاءة الإمامة ، على أى درجة هى ؛
إمامة عامة ، أو خاصة ، كما طلب يوسف — عليه السلام — أن
يكون مسئولاً عن المواد التموينية ، والمالية ، قال الله تعالى على لسانه:
﴿ اجعلنى على خزائن الأرض ؛ إني حفيظ عليم ﴾ (٦١) .

وكما قال تعالى فى موضع آخر على لسان عباد الرحمن :

﴿ واجعلنا للمتقين إماماً ﴾ (٦٢)

واتضحت الكفاءة فى الموقف الأول ، فى قوله : ﴿ إني حفيظ
عليم ﴾ وفى الثانى من الأوصاف التى سبقت الآية لعباد الرحمن .
وربما يصل الأمر إلى مرتبة الفرض إذا لم يكن إلا هذا المسلم لهذا
المكان ، وللخوف من تسلم المنحرفين له ، فيعيثون الفساد فى
الأرض .

— وضع الرجل المناسب فى المكان المناسب مسئولية الحاكم الذى يريد
الخير لأمتة فقد جمع يوسف من الكفاءات ..

(أ) الخبرة بالتخزين الجديد الذى يحفظ الحبوب من الفساد
كما ظهر من تفسيره للرؤيا ..

(ب) من جانب الأمانة وهو أمر ضرورى ؛ حتى تؤتى الخبرات
الأخرى ثمارها .. ﴿ إني حفيظ عليم ﴾ .

(ج) العلم بطريق التوزيع طوال فترة الجذب ؛ كما دلت عليه
تصرفاته القادمة ، والخروج من الأزمة بسلام ، برغم
طول فترة الجذب ، وخطورته على الأمم .
فقد دعا النبى ﷺ على مُضَرَّ به وقت أن كانت

(٦١) من سورة يوسف ، الآية رقم ٥٥ .

(٦٢) من سورة الفرقان ، الآية رقم ٧٤ .

مشركة ، وقبل أن تسلم .

(د) تقديم الآخرين على نفسه إيثاراً فقد طلب الملك أن يكون يوسف مكيئلاً لديه ، ولكنه عدل الرغبة لتكون في خدمة المجتمع ككل .

— إن مصر كانت ذات مركز دولي آنئذ ، وقد رفع من شأنها أيضاً تسلم يوسف عليه السلام إدارة المخازن ، والتوزيع حسب خطة مرسومة .

— الإنسان بماضييه تأثراً ، وحاضره تقويماً ، ومستقبله رجاء ، وعزاً . فلم ينس يوسف ما سبق من أحداث ، ولجأ إلى ربه سبحانه فيما يحقق له ولقومه من أمن وعز .

— الداعية المسلم تلزمه الفطنة ، والذكاء ، والسعى إلى تحقيق الغرض حين الضرورة بالحيلة والكيد .

﴿ كذلك كدنا ليوسف ﴾ (٦٣) .

— إن الله سبحانه يعاتب عباده بما يجترحون من سيئات .

﴿ وما أصابكم من مصيبة فيما كسبت أيديكم ﴾ (٦٤) وذلك ما حاق بإخوة يوسف .

— كان للخليل وأبنائه شريعة محكمة ، اقترح الإخوة تطبيقها على أنفسهم ، برغم بُعد الشقة ، ومن موادها أخذ السارق ليكون في ملك المسروق رقيقاً .

— مهارة الحاكم المسلم حين يواجه خصومه الماكرين ، وتفوقه عليهم بالحيلة ، إذا ما كان الغرض مصلحة الدولة ، والمجتمع ؛ لا تحقيقاً

(٦٣) من سورة يوسف ، الآية رقم ٧٦ .

(٦٤) من سورة الشورى ، الآية رقم ٣٠ .

لنفع شخصى .

— حرص المتهم على أن يجمع من الدلائل التى تكفى لتبرئته لازم عرفاً وشرعاً ، كما حدث من الإخوة سرّاً ، وكما يلزم للحصول على بغية المرء من تحسس الأخبار سرّاً ، وعدم اليأس .

— التقوى والصبر عليها تحققان الفرج

﴿ ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ﴾ (٦٥) وقد أعلن يوسف عليه السلام ذلك لإخوانه ؛ شكراً لربه سبحانه ، وتوجيهاً لإخوانه .
﴿ إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين ﴾ (٦٦) .

— من الخوارق للعادة التى حدثت أن يشم يعقوب رائحة يوسف عليهما السلام من قميصه على بعد مئات الأميال بين مصر والشام

— العفو والصفح عن المصء سبيل إلى مرضاة الله سبحانه ، وسبيل لإصلاح نفسية هذا المصء ؛ كما صنع يوسف — عليه السلام — لإخوته بمصر ، وكما صنع أبو بكر الصديق ، وابنته التى نزلت براءتها من السماء مع من اجترحت ألسنتهم آصرة الإفك .

— بدأ تاريخ يعقوب فى مصر منذ هذه الحقبة على يد يوسف عليه السلام بمجموع الأبناء الاثنى عشر ، والذين تمايزت بيوتهم بعد ذلك كما سنرى — إن شاء الله تعالى فى قصة موسى — عليه السلام — والله أعلم .

(٦٥) من سورة الطلاق ، الآية ٢ .

(٦٦) من سورة يوسف عليه السلام ، الآية ٩٠ .

أَيُّوب ، وَالْيَسَعَ ، وَذُو الْكُفْلِ — عَلَيْهِمُ السَّلَام .

- أَيُّوب — عَلَيْهِ السَّلَام .
- الْيَسَعَ — عَلَيْهِ السَّلَام .
- ذُو الْكُفْلِ — عَلَيْهِ السَّلَام .
- دُرُوسٌ وَعَبْرٌ .

أيوب — عليه السلام :

يتصل نسبه بإبراهيم — عليه السلام ، وليس من طريق إسماعيل الذبيح ولكن أهو عن طريق إسحاق من يعقوب أو غيره ؟ ليس هناك ما يؤكد ، أو يرجح أحدهما ، وإن كان الحديث النبوى الوحيد الذى أورده البخارى تعليقا ووصله النسائى كما ذكر القسطلانى^(١) يدل على مخالطة بنى إسرائيل (يعقوب) أكان منهم أم من غيرهم ؟ .

والآيات الكريمة بسورتي الأنبياء ، و « ص » تدل على أن أيوب — عليه السلام — تذرع بالصبر .

يقول الله تعالى :

﴿ وأيوب إذ نادى ربه أنى مسنى الضر ﴾^(٢) .
 وقال : ﴿ واذكر عبدنا أيوب إذ نادى ربه أنى مسنى الضر ﴾^(٣) .
 وقال : ﴿ إنا وجدناه صابراً ﴾^(٤) .

والإصابة بالضر على نمط يكون الصبر عليه صفة مميزة لصاحبه من غيره يدل على أمرين :

(١) — بلوغ الصبر مداه .

(ب) — سبق هذا الضر بمُخَالَفَه من تمام فى الصحة ، ووفرة فى المال ، وكثرة فى الولد ، ليلغ الضر أقصاه من حرمان مما سبق ودخوله إلى مزيد فى الجسم .

(١) أحد شراح صحيح البخارى .

(٢) سورة الأنبياء رقم ٨٣ .

(٣) سورة ص رقم ٤١ .

(٤) سورة ص رقم ٤٤ .

أيوب — عليه السلام — يشكو إلى الله سبحانه :

ولم يجزع أيوب بل تذرع بالصبر على هذا الابتلاء ، وقد مدحه الله سبحانه بذلك ﴿ إنا وجدناه صابرا نعم العبد ﴾ ، وتضرع إلى ربه سبحانه أن يرفع عنه هذا البلاء ؛ فالله سبحانه أرحم على عباده من أنفسهم .

﴿ وأيوب إذ نادى ربه أنى مسنى الضر وأنت أرحم الراحمين ﴾ .

وكما وصف بالصبر على الابتلاء ، فهو نعم العبد ، وهو أواب ، تائب ، راجع إلى ربه أرحم الراحمين .

فكان أن استجاب الله لدعائه حيث قال :

﴿ فاستجبنا له فكشفنا ما به من ضر ﴾ (٥) .

وارتبط كشف الضر عن أيوب عليه السلام بتكليف الله سبحانه إياه بمحاولة يسيرة وممكنة لمبتلى مثله (٦) وذلك بأن يضرب برجله الأرض ، والضرب بالرجل للأرض لا يفجر عادة العيون ، ولكن الله سبحانه الذى كلف عبده الصابر أيوب هو الذى سيضعف هذه القوة أضعافا كثيرة .

فتنفجر الأرض ، وينبع منها ماء صالح للشرب ، والاغتسال ، بل يكون منه الشفاء بإذن الله سبحانه ؛ لتحقيق الرحمة بتمامها لأيوب — عليه السلام — فقد تماثل للشفاء ، وقوى على العبادة من جديد .

يقول الله تعالى :

﴿ اركض برجلك ؛ هذا مغتسل ؛ بارد ، وشراب ﴾ (٧)

(٥) من سورة الأنبياء الآية رقم ٨٤ .

(٦) يشير هذا إلى قوله تعالى لمريم : ﴿ وهزى إليك بمجذع النخلة .. ﴾ فذلك هو الأمر اليسير لها فقط ، وهو بحاجة إلى مضاعفة من الله سبحانه ؛ ليكون سببا لتساقط التمر .

(٧) سورة ص الآية رقم ٤٢ .

وأفاض الله عليه ؛ بأن أعطاه النرية العابدة القانئة التى آمنت بالله سبحانه ، وآمنت بأيوب — عليه السلام — نبيا كريماً . وفى أول قائمة هذه النرية زوج أيوب — عليه السلام .

قال الله تعالى :

﴿ فاستجبنا له ، فكشفنا ما به من ضرر ، وآتيناه أهله ، ومثلهم معهم ؛ رحمة من عندنا ، وذكرى للعابدين ﴾ (٨) .

وقال أيضاً :

﴿ ووهبنا له أهله ، ومثلهم معهم ؛ رحمة منا وذكرى لأولى الألباب ﴾ (٩) .

وأهل الرجل كما يقول صاحب القاموس : عشيرته ، وذوو قريبه ، كما تطلق أيضاً على الزوجة (١٠) ، وإعطاء الله تعالى أيوب — عليه السلام — النرية

(٨) سورة الأنبياء الآية رقم ٨٤ .

(٩) سورة ص الآية رقم ٤٣ .

(١٠) وفى المعنى الأول ورد قوله تعالى : ﴿ فأنجيناه ، وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين ﴾ (الأعراف ٨٣) فاستثناء المرأة ، وهى الزوجة من الأهل يدل على أن الأهل عشيرة الرجل ، وذوو قريبه . وفى المعنى الثانى ورد قوله تعالى على لسان امرأة العزيز : ﴿ قالت : ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً إلا أن يسجن ﴾ (يوسف ٢٥) فإذا ما أضيفت إلى غير الرجل دلت على معنى أوسع ، قال تعالى : ﴿ رب اجعل هذا بلداً آمناً ، وارزق أهله من الثمرات ﴾ (البقرة ١٢٦) ويحدد المعنى المراد بالقرينة .

فقد أضيفت كلمة « أهل » إلى الضمير العائد لأيوب — عليه السلام — فانحصر المراد فى المعنى الأول ، والمعنى الثانى .

وعود الضمير فى قوله ﴿ ومثلهم معهم ﴾ بصورة الجمع . يحدد المعنى الأول فقط ، دون الثانى .

= فيكون المراد ، والله أعلم . على هذا النحو : إن الله سبحانه وهب أيوب — عليه

الصالحة ، من زوج وأقارب ، وكذلك من تبعه من الصالحين ، كان رحمة منه سبحانه ، وذكرى لأولى الألباب العابدين .

والرحمة من الله سبحانه هنا شملت :

أيوب — عليه السلام — بإعطائه هذا الخير .

كما شملت زوجه ، وأقرباءه بأن آمنوا بالله سبحانه رباً واحداً ، وبأيوب — عليه السلام — نبياً كريماً .

كما شملت الناس الذين آمنوا بأيوب — عليه السلام — من غير الأقرباء . وتشمل اللاحقين الذين يأخذون العبرة من القصص القرآني ، وهم أولو الألباب والعقول الفاهمة .

وكان تكليف آخر لأيوب — عليه السلام — يقول الله تعالى :

﴿ وَخُذْ يَدَكَ ضَغْثًا فَاضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنَثْ ﴾ (١١) .

ويشير هذا التعبير القرآني الكريم إلى جملة أمور منها .

— أنه قد سبق حلف من أيوب — عليه السلام — وهو في حرج من تنفيذه .

— أن تنفيذ هذا القسم ارتبط بعودة صحته حيث يكون قادراً عليه .

— أن اليمين ارتبط بشخص ، ومضمونه أن يضربه متى قدر على ضربه إياه .

=السلام — أقرباءه ؛ بعد أن قذف بالإيمان في قلوبهم ، كما وهبه أيضاً من غير الأقرباء مثلهم عدداً ، وتلك رحمة من الله سبحانه ، وذكرى للعابدين .

ولا يخفى في هذا المقام أيضاً أن كلمة « رحمة » وقعت مفعولاً لأجله ، وعطفت عليها « ذكرى » وبذلك نرى فساد رأى من يقول إن اسم زوجة أيوب كان « رحمة » بناء على هذا والله أعلم .

(١١) من سورة ص الآية رقم ٤٤ .

— ولم يكن هناك من شخص قريب منه عادة ، وهو قريب غير زوجته .
— وأن هذه الزوجة قد قصرت أو أخطأت أو فعلت مباحاً ولكن لم يرض عنه أيوب — عليه السلام .

— وأن الله سبحانه وتعالى رحمة منه بأيوب وزوجه طلب إليه ليبر في قسمه أن يأخذ عيداناً ضعيفة فيضرب بها زوجه ويكون بذلك قد برّ في قسمه ولم يؤذ زوجه حيث لم يكن عملها جرماً كبيراً .

وتدل هذه الأمور مجتمعة على :

أن الله سبحانه ، طلب إلى أيوب — عليه السلام — أن يأخذ عيداناً ضعيفة فيضرب بها زوجه ؛ إبراراً لقسم أقسمه عليها (١٢) .

وفي هذا ما يشير إلى ضرورة التيسير في الفتوى ، ومراعاة الناس وأحوالهم ، وأن التشديد عليهم فيه مخالفة شرعية .

واشترك أيوب — عليه السلام — مع بنى إسرائيل (يعقوب عليه السلام) في معيشتهم وحياتهم . ومما يدل على هذا الاشتراك هذا الحديث الشريف كما سبق أن نوه إليه .

عن أبي هريرة — رضى الله عنه — عن النبي ﷺ « بينا أيوب يغتسل عريان فخر عليه جراد من ذهب فجعل أيوب يحشى في ثوبه فناداه ربه : يا أيوب ألم أكن أغنيك عما ترى ؟ قال : بلى وعزتك ولكن لا غنى لى عن برّ بركتك » (١٣) .

(١٢) وليس في النصوص المعتمدة ما يحدد نوع عمل الزوجة فوجب الوقوف على ما تدل عليه الآيات فقط .

(١٣) رواه البخارى تعليقاً ووصله النسائى ، كما ذكر العسقلانى فى شرحه . جراد من ذهب : الأظهر أن يكون ذهباً على شكل جراد — يحشى : أى يأخذ بيده ، ويرمى فى ثوبه ج ١ ص ٧٨ كتاب الغسل باب من اغتسل عريانا وحده فى الخلوة ج ١ ص ٣٣١ من إرشاد السارى .

وفي رواية سابقة عنه « كان بنو إسرائيل يغتسلون عراة ينظر بعضهم إلى بعض وكان موسى يغتسل وحده » .

وفي ضوء الحديثين نرى .

أن أيوب — عليه السلام — اغتسل وحده في خلوة من الناس ؛ فهو لا يفعل ما يتناقض مع ما نص عليه موسى — عليه السلام — حيث كان يغتسل وحده منكرا ما يفعله بنو إسرائيل من الاغتسال عراة ينظر بعضهم إلى بعض (١٤) .

وأن الله سبحانه قد أهبط عليه قطعاً من الذهب على شكل الجراد وأن أيوب قد اهتم بذلك فبدأ بجمع تلك القطع الذهبية في ثوبه ، وأن الله تعالى قد عاتبه على هذا الجمع والاهتمام به حيث قد أغناه سلفاً ولم يعد بحاجة إلى تلك القطع ، وما كان إنزالها إلا اختباراً له ، ولكن أيوب — عليه السلام — يوعز ذلك بأنه لا غنى له عن بركات ربه ؛ حيث حصّته بذلك . ولم يرد في الحديث عقب ذلك ما يدل على إنكار جديد من الله سبحانه لما صنعه أيوب — عليه السلام — .

اليسع ، وذو الكفل — عليهما السلام :

يتصل نسب كل منهما كما يبيلو من الآيات الكريمة بإبراهيم الخليل — عليهما السلام — وإن كان من آراء أخرى فليس على سبيل اليقين .

وقد وصف الله سبحانه وتعالى اليسع — عليه السلام — بأنه من المفضلين على العالمين وبأنه من الأخيار حيث قال الله تعالى :

(١٤) قال العسقلاني صاحب فتح الباري شرح البخاري عند شرحه هذا الحديث : وكان حراماً عندهم لكنهم كانوا يتساهلون في ذلك وهذا هو الظاهر (فقد ذكر العسقلاني احتمالاً آخر) ويؤيده قول القرطبي : كانت بنو إسرائيل تفعل ذلك معاندة للشرع مخالفة لموسى — عليه السلام — وهذا من جملة عتوهم وقلة مبالاتهم باتباع شرعه .

﴿ وإسماعيل واليسع ويونس ولوطا وكلا فضلنا على العالمين ﴾ (١٥)
وقال : ﴿ واذكر إسماعيل واليسع وذا الكفل وكل من الأخيار ﴾ (١٦) .

واختيار الله سبحانه وتعالى وتفضيله المرء على العالمين يدلان على نبوة وعلى قيادة لجمع من الناس .

وقد وصف الله سبحانه ذا الكفل — عليه السلام — بأنه من الأخيار
كاليسع — عليه السلام — كما سبق في آية « ص » ووصفه بأنه من الصابرين
حيث قال :

﴿ وإسماعيل وإدريس وذا الكفل كل من الصابرين ﴾ (١٧) والصابرين
على معاناة في دعوته الناس بشكل عام .

وقد أسهبت بعض الكتب في سرد قصتهما دون اعتماد على أصل صحيح ،
فآثرنا الاكتفاء بما اختاره الله سبحانه لنا من علم بشأنهما ، ولا مبرر أبداً لأن
نسود الصفحات من غير المعتمد في ديننا والله سبحانه أعلم .

(١٥) من سورة الأنعام الآية ٨٦ .

(١٦) من سورة ص الآية ٤٨ .

(١٧) من سورة الأنبياء الآية ٨٥ .

دروس وعبر :

— إن الله سبحانه يمتحن عباده ويمحصهم ليميز الخبيث من الطيب والصالحون منهم يتذرعون بالصبر على البلاء ؛ كما صبر أيوب — عليه السلام — وكما قال الرسول ﷺ :

« عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله له خير وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له ، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له » (١٨) .

— ومن لوازم الصبر أن يجار المبتلى بالشكوى إلى الله . لا جزعا من وقوع المصيبة ، ولكن تذلاً وتضرعاً ؛ فالله سبحانه أرحم بعبده المؤمن من الأم بولدها (١٩) .

ولذا أبرز أيوب — عليه السلام — في مقام دعائه وصف الله تعالى بقوله : ﴿ وأنت أرحم الراحمين ﴾ .

— إذا ما أخذ التضرع إلى الله سبحانه شروطه ؛ من بعد عن الجزع ، ومن إلحاح في الطلب ، ومن تمجيد الله سبحانه ، ووصفه بما وصف به نفسه . كانت الاستجابة على أى نحو من الأنحاء يراها الله سبحانه لتحقيق الخير لعبده الصالح .

(١٨) رواه مسلم عن صهيب - رضى الله عنه - كتاب الزهد والرفائق باب المؤمن أمره خير كله رقم ٢٠٩٢ ص ٣١٦ مختصر مسلم .

(١٩) فى حديث عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - قال : قدم على النبى ﷺ سبى ، فإذا امرأة من السبى قد تحلب ثديها تسعى ، وإذا وجدت صبياً فى السبى أخذته فألصقته بطنها وأرضعته فقال لنا النبى ﷺ : « أترون هذه طارحة ولدها فى النار ؟ قلنا : لا وهى تقدر على ألا تطرحه فقال : لله أرحم بعباده من هذه بولدها » . رواه الشيخان — اللؤلؤ والمرجان كتاب التوبة رقم ١٧٥١ ص ٧٤٨ .

— على الرغم من ضعف المبتلى فهو يعمل العمل الذى بإمكانه أن يعمل ؛ سبيلا إلى الخلاص من البلاء ، بإذن الله سبحانه ؛ فأيوب — عليه السلام — ضرب الأرض ، واغتسل بماء نظيف ، وشرب الطاهر ، فكان الشفاء .

وكما يلزمنا من بذل للوسائل المشروعة من عرض على الطبيب ، وتناول الدواء ، وتنفيذ إرشادات الطبيب ، والبعد عن مواطن العدوى ، والتطعيم للوقاية منها ، والبعد عن كل ما يضر الجسم والصحة ، ولو كان مباحاً في ذاته كإسراف فى أكل أو شرب ، ومداومة على نوع واحد من الطعام ، وهكذا .
— إن ديننا الكريم لا يوقع أبناءه فى حرج ﴿ وما جعل عليكم فى الدين من حرج ﴾ (٢٠) .

فما كانت فيه رخصة ويفيد المسلم أنه يأخذ بها عليه أن يفعل هذه الرخصة وتفصيل ذلك فى مواضعه .
— إن الله سبحانه يختبر عباده بالنعم كما يختبرهم بالمصائب فإذا ما كانت النعم مستغلة فى طاعته بعيدة عن البطر وغمط حقوق الناس كان المرء شاكراً لربه سبحانه ، وليس فى امتلاكه النعم ما يسئ إليه شرعاً إذا كان بهذا الوصف .
— يطلب إلى المسلم أن تكون نماذج الرسل الكرام هى المثل الحية والقلوة .

يونس — عليه السلام

- قومه .
- هروبه من قومه الأولين .
- يونس — عليه السلام — فى بطن الحوت .
- يونس — عليه السلام — وقد لفظه الحوت .
- جهاد جديد .
- دروس وعبر .

قوم يونس - عليه السلام :

كانوا يسكنون قرياً من بحر يمكن أن تعيش فيه الحيتان فحين هرب منهم التقمه الحوت كما تدل الآيات القادمة .

وقد بذل معهم من الجهد الكبير داعياً إلى وحدانية الله سبحانه ، وحاكميته ؛ لدرجة أن بلغ منه الإعياء ، واليأس منهم ، ومن قبولهم الإيمان وحين لم تظهر عليهم علامات الهداية تركهم غضبا منهم وتصور في نفسه أن الله سبحانه سوف لن يضيق عليه بالانتظار بين جماعة تعنتوا وعاندوا وبإمكانه أن يبحث عن بيئة جديدة وتربة خصبة علّ الدعوة إلى الله سبحانه تؤتي أكلها وتثمر في أهلها .

وكان أقوام الرسل السابقين حين يكفرون يعاقبهم الله سبحانه بالعذاب وهم كافرون ، ولكن قوم يونس - عليه السلام - كان فيهم كفر وحين عاينوا أسباب العذاب ؛ بهروب نبيهم رجعوا إلى الله سبحانه ، وآمنوا ، فأُنقذوا من العذاب يقول الله تعالى في ذلك :

﴿ فلولا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين ﴾ (١) .

وكان ليونس - عليه السلام - قوم آخرون بعد نجاته فقبّل أرسل إلى مائة ألف أو يزيدون وقد عايشهم في كل مراحل الدعوة عكس القوم السابقين الذين عايشهم زمن دعوتهم وإنكارهم ولم يكن معهم حين آمنوا ؛ فقد دعاهم إلى الله سبحانه وتعالى واستفاد من تجربته السابقة فلم يكن هناك تفكير في الهروب منهم ، واستمر معهم حتى تحققت الهداية على يديه يقول الله تعالى :

﴿ وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون فآمنوا فامتعناهم إلى حين ﴾ (٢) .

(١) من سورة يونس الآية رقم ٩٨ .

(٢) سورة الصافات الآيتان ١٤٧ ، ١٤٨ .

هروبه من قومه الأولين :

حين رأى يونس — عليه السلام — معاندة قومه وتعتهم فكر في تركهم إلى مكان بعيد عنهم على الشاطئ الآخر للبحر ؛ حيث يكون قوم آخرون دون هؤلاء عنادا ، واستكباراً . ودخل التفكير مرحلة التنفيذ فذهب إلى البحر وكان ضمن مسافرين في سفينة .

واعتبر الله سبحانه ذلك هروباً للداعية من الميدان ، وعليه أن يتحمل إصرار هذا الهروب ؛ فعرضت السفينة لمخاطر سرعان ما فهم الراكبون أن بها هارباً ولكن من ؟ ولابد أن يكون الربط بين التعرض للمخاطر ووجود هارب بالسفينة إلهاما من الله سبحانه وكذا ما لحق هذا التفكير من إجراء القرعة التي لم تخطئ . فكانت قرعة تظهر الهارب بالسفينة فكانت تخرج على يونس — عليه السلام — وإن قوما هداهم الله سبحانه إلى هذا الإجراء يرجح أنهم أعادوا هذه القرعة ؛ ليتأكلوا من صوابها ، وحتى لا يكون منهم ظلم لراكب وبخاصة يونس الذي عرف بينهم بالصلاح ويدل هذا على إيمان قلة من قومه الأولين ، وإلحاق العذاب بالقوم حسب الوضع الذي يدير المجتمع ويسوسه ، والذي لا تؤثر فيه هذه القلة .

ولم يكن ليونس خيار في أن يلقي به من السفينة ؛ ليضمن القوم لها السلامة ولتكون نجاة للباقيين مع التضحية بفرد منهم .

يقول الله تعالى :

﴿ وإن يونس لمن المرسلين إذ أبق إلى الفلك المشحون فسأهم فكان من المدحضين ﴾ (٣) .

وإلى هنا تتوقف تماما قدرة يونس — عليه السلام — البشرية لتكون عناية الله سبحانه هي التي تتولى أموره وحفظه ، والتي كان يجب على يونس أن يوقن

(٣) من سورة الصافات الآيات ١٣٩ - ١٤١ .

بها قبل ذلك ولكن الدرس يتناول كل خطواته ليكون نبأاً للبشرية كلها حين يتصور مسلم متمحن أن عناية الله سبحانه قد تخلت عنه .

في بطن الحوت :

وتدخل القصة مرحلة من المعجزات في أحلك الأوقات حيث الرجوع إلى الله سبحانه وتعالى .

إن التوقيت محكم ودقيق فذلك حوت يُقَدَّم إلى غريق يلهث ، ويلفظ أنفاسه الأخيرة . فهل كان الغريق لقمة سائغة لحوت ضخم شأن الحيتان التي خلقها الله سبحانه إلى يوم القيامة ؟ .

إن الذي خلق الحوت ، والذي أرسل يونس — عليه السلام — أهون عليه أن يأمر حوته بالتقام الغريق ، لا ازدراءً له ، ولكن حفظاً ، وصيانةً ، هكذا كان . وهكذا تخضع المخلوقات للخالق سبحانه .

وأمكن ليونس — عليه السلام — أن يعيش في بطن الحوت دون هلاك وأحسَّ القدرة على الحركة والكلام .

فماذا كان كلامه حين تراكت عليه الظلمات من كل جانب ؟ فهو في ظلمة بطن الحوت ، وهو في ظلمة البحر ، وهو في ظلمة الليل .

وعلى الرغم من كثافة الحجب ، وتراكم الظلمات كان التضرع إلى الله سبحانه وتعالى :

﴿ فنادى في الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانه إني كنت من الظالمين ﴾ (٤) .

واخترق النداء تلك الحجب على كثافتها ليصعد إلى السماء حيث الخالق سبحانه السميع البصير الذي يعلم السر وأخفى من السر .

(٤) من سورة الأنبياء الآية رقم ٨٧ .

وأى نداء هذا ؟

إنه اعتراف بالذنب ، وتقديس الله سبحانه وتعالى ، وتنزيهه عن كل نقص ، وتداركته نعمة الخالق سبحانه لأنه اعترف بالذنب ، ولجأ إلى الرب ، واستجاب له ، ونجاه ، فلفظه الحوت على شاطئ ؛ لتبدأ مرحلة جديدة بعد هذه التجربة الفريدة من نوعها في تاريخ البشرية قال الله تعالى :

﴿ فلولاً أنه كان من المسبحين للبث في بطنه إلى يوم يبعثون ﴾ (٥) .
وقال : ﴿ فاستجبنا له ونجيناه من الغم ، وكذلك ننجي المؤمنين ﴾ (٦) .

يونس — عليه السلام — وقد لفظه الحوت :

لفظ الحوت يونس — عليه السلام — على الشاطئ وقد بليت ثيابه وأصابه الإعياء والسقم ، ليس له من البشر من يقدم له عوناً أو خدمة فقد لفظ بالعراء حيث لا مأوى لبشر .

إن جسماً غير قادر على الحركة تحت حر الشمس ولفح البرد وهوام الأرض وحشرات الهواء والأرض — جسم قريب من الهلاك عاجلاً أو آجلاً ، ولكن النعمة التي تداركت يونس — عليه السلام — وهو في بطن الحوت امتدت معه ، فتداركته وهو بهذه الحالة .

فتحركت الأرض بإذن ربها لتتبت شجرة تظلل يونس — عليه السلام — واختيرت الشجرة التي لا يأوى إليها الذباب .

وشجرة تؤتى من الثمار أسهل الخضروات هضماً فلا يزال الأطباء يصفون ثمرتها لكل مريض .

(٥) سورة الصافات الآيتان ١٤٣ ، ١٤٤ .

(٦) سورة الأنبياء الآية رقم ٨٨ .

وتؤكل ثمارها نيئة كما تؤكل مطبوخة .

وتجمعت هذه الخصائص فى شجرة القرع ؛ لتكون فى خدمة يونس — عليه السلام — قال الله تعالى :

﴿ فنبذناه بالعراء وهو سقيم وأنبتنا عليه شجرة من يقطين ﴾ (٧) .

ولولا نعمة الله لنبذ مذموماً ولكن نبذ محموداً بسبب ما قدمه من تسبيح ، واستغفار ، وتضرع إلى المولى سبحانه .

فامتدئ أيتها الشجرة على يونس فأنت مسوقة لخدمته ، وتطاولى على الأشجار تيهاً فقد سخرك الله سبحانه لخدمة يونس — عليه السلام .

جهاد جديد :

ودبت الحياة النشطة فى يونس — عليه السلام — لتكون عوناً له فى سبيل الدعوة إلى الله سبحانه ، فالمؤمن على جهاد دائم ما بقيت فيه حياة ، وما ظل به عرق ينبض واختاره الله سبحانه واجتبه ، وأصلح على يديه خلقاً كثيرين فقد كلفه دعوة قوم آخرين واصل معهم وبذل من الأسباب حتى آمنوا قال الله تعالى :

﴿ وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون فآمنوا فمنعناهم إلى حين ﴾ (٨) .

إن الله تعالى وهو يعرض على رسوله تلك التجارب يعرضها ليفيد منها الرسول الكريم — ﷺ — ليفيد من الرصيد الضخم الذى تخلف من رسالات الأنبياء السابقين ، فهو النبی الخاتم صاحب العبء الأكبر فى تاريخ الدعوات والرسل الكرام — عليهم الصلاة والسلام .

(٧) سورة الصافات الآيتان ١٤٥ ، ١٤٦ .

(٨) سورة الصافات الآيتان ١٤٧ ، ١٤٨ .

قال الله تعالى :

﴿ فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت إذ نادى وهو مكظوم
لولا أن تداركه نعمة من ربه لنبذ بالعراء وهو مذموم فاجتباه ربه فجعله من
الصالحين ﴾ (٩) .

وليس معنى ذلك أن يأتي امرؤ بلغ من الجهاد في الدعوة درجة طيبة أن
يتجرأ ويقول : أنا خير من يونس .

فقد روى عن ابن عباس وأبي هريرة — رضى الله عنهما — عن النبي
ﷺ — قال :

« ما ينبغي لعبد أن يقول : أنا خير من يونس بن متى » (١٠) .

(٩) سورة القلم الآيات ٤٨ — ٥٠ .

(١٠) رواه البخارى ومسلم وأحمد واللفظ للبخارى كتاب التفسير باب قوله تعالى
﴿ ويونس ولوطا وكلا فضلنا على العالمين ﴾ ج ٥ ص ٧١ .

دروس وعبر :

— أصحاب الدعوات لابد أن يتحملوا تكاليفها ، وأن يصبروا على التكاليف بها ، والإيذاء من أجلها ، وتكذيب الصادق الوائق مرير على النفس حقا ، ولكنه بعض تكاليف الرسالة فلا بد لمن يكلفون حمل الدعوات أن يصبروا ، ويتحملوا ولا بد أن يثابروا ويثبتوا ولا بد أن يكرروا الدعوة ويبدعوا فيها ، ويعيدوا .

— إنهم لا يجوز لهم أن يأسوا من صلاح النفوس واستجابة القلوب ، مهما واجهوا من إنكار وتكذيب ومن عتو وجحود ، فإذا كانت المرة المائة لم تصل إلى القلوب فقد تصل المرة الواحدة بعد المائة وقد تصل المرة الواحدة بعد الألف .. ولو صبروا هذه المرة وحاولوا ولم يقنطوا لتفتحت لهم أرصاد القلوب .

— إن طريق الدعوات ليس هينا لنا ، واستجابة النفوس للدعوات ليست قرية يسيرة فهناك ركام من الباطل والضلال والتقاليد والعادات والنظم والأوضاع تجثم على القلوب ، ولا بد من إزالة هذا الركام ، ولا بد من إحياء القلوب بكل وسيلة ، ولا بد من لمس لجميع المراكز الحساسة ، ومن محاولة العثور على العصب الموصل ، وأجدى اللمسات ستصادف مع المثابرة والصبر والرجاء ، ولمسة واحدة قد تحول الكائن البشرى تحويلا تاما في لحظة ، متى أصابت اللمسة موضعها ، وإن الإنسان ليدهش أحيانا وهو يحاول ألف محاولة ثم إذا لمسة عابرة تصيب موضعها في الجهاز البشرى بأيسر مجهود ، وقد أعيا من قبل كل الجهود . وأقرب ما يحضرني للتمثيل لهذه الحالة جهاز الاستقبال عند البحث عن محطة إرسال .

إنك لتحرك المؤشر مرات كثيرة ذهابا وإيابا ، فتخطئ المحطة وأنت تدقق ، وتصوب ، ثم إذا حركة عابرة من يدك فتتصل الموجة ، وتنطلق الأصدا ، والأنغام .

إن القلب البشرى هو أقرب ما يكون إلى جهاز الاستقبال وأصحاب الدعوات ، لابد أن يحاولوا تحريك المؤشر ليتلقى القلب من وراء الأفق ولمسة

واحدة بعد الألف لمسة قد تصله بمصدر الإرسال .

إنه من السهل على صاحب الدعوة أن يغضب ؛ لأن الناس لا يستجيبون لدعوته ، فيهجر الناس ، إنه عمل مريح قد يفتأ الغضب ويهدئ الأعصاب ولكن أين الدعوة ؟ وما الذى عاد عليها من هجران المكذبين المعارضين ؟ (١١) .

— إن الدعوة هي الأصل لا شخص الداعية فليضق صدره ، ولكن ليكظم ، ويمض . وخير له أن يصير فلا يضيق صدره بما يقولون .

— إن الداعية أداة في يد القدرة ، والله سبحانه وتعالى أرحم لدعوته وأحفظ . فليؤد هو واجبه في كل ظرف ، وفي كل جو والبقية على الله ، والهدى هدى الله .

— وإن في قصة ذى النون (وهو الحوت) درساً لأصحاب الدعوات ينبغي أن يتأملوه ، وإن في رجعة ذى النون إلى ربه واعترافه بظلمه لعبرة لأصحاب الدعوات ينبغي أن يتدبروها وإن في رحمة الله لذى النون واستجابة دعائه المنيب في الظلمات لبشرى للمؤمنين ﴿ وكذلك ننجي المؤمنين ﴾ .

(١١) من الظلال بتصرف .

شعيب — عليه السلام

- من الذين أرسل إليهم ؟ وأين كانوا ؟
- انحراف أهل مدين .
- دعاوى أهل مدين .
- استعلاء الكفر ، واستبداده
- قويل الجزاء .
- جزاء عادل .
- مبلغ الجهد .
- دروس وعبر .

مَنْ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ شَعِيبٌ وَأَيْنَ كَانُوا ؟

أُرْسِلَ شَعِيبٌ — عَلَيْهِ السَّلَامُ — إِلَى أَهْلِ مَدِينٍ ، وَأَرْضُ مَدِينٍ هِيَ الَّتِي مَرَّ بِهَا مُوسَى — عَلَيْهِ السَّلَامُ — فِي طَرِيقِهِ مِنْ مِصْرَ إِلَى الشَّامِ . أَيْ فِي جَزِيرَةِ سِينَاءَ ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى :

﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدِينٍ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ ﴾ (١) .

وَالْآيَةُ الْكَرِيمَةُ الَّتِي وَرَدَتْ عَلَى لِسَانِ شَعِيبٍ — عَلَيْهِ السَّلَامُ — مَخَاطِبًا قَوْمَهُ :

﴿ وَمَا قَوْمُ لُوطَ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ ﴾ (٢) .

تَحْدُدُ الْجُزْءَ مِنْ أَرْضِ مَدِينٍ الَّذِي كَانُوا يَعِيشُونَ فِيهِ وَهُوَ مَا يَحِيطُ بِخَلِيجِ الْعَقْبَةِ مِنْ جِهَةِ الْجَزِيرَةِ الْعَرَبِيَّةِ حَيْثُ كَانَ أَصْلُ مَدِينٍ ، ثُمَّ امْتَدَّتِ الْقَبِيلَةُ إِلَى سِينَاءَ زَمَنَ مُوسَى — عَلَيْهِ السَّلَامُ — وَتَأْتِي الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ الْآخَرَى :

﴿ أَلَا بُعْدًا لِمَدِينٍ كَمَا بَعَدَتْ ثَمُودُ ﴾ (٣) .

لِتَحْدُدَ هَذَا الْفَهْمَ أَيْضًا ، وَثَمُودُ هُمْ قَوْمُ صَالِحٍ — عَلَيْهِ السَّلَامُ — وَقَدْ عَرَفْنَا فِيمَا سَبَقَ أَنَّ ثَمُودَ كَانَتْ بِالطَّرِيقِ الْمُنْتَجِهَةِ مِنَ الْحِجَازِ إِلَى الشَّامِ ، كَمَا دَلَّتْ عَلَى ذَلِكَ الْأَحَادِيثُ النَّبَوِيَّةُ الشَّرِيفَةُ السَّابِقَةُ .

وَقَدْ كَانَتْ أَرْضُ مَدِينٍ ذَاتَ أَشْجَارٍ ، وَزُرُوعٍ ، وَمَحَاصِيلِ زَرَاعِيَّةٍ ، وَلِذَا سَمَوْا أَهْلَهَا بِأَصْحَابِ الْأَيْكَةِ ، أَيْ الشَّجَرَةِ الْعَظِيمَةِ الْمُلْتَفَةِ ، وَالَّتِي كَانُوا يَعْبُدُونَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ سَبْحَانَهُ وَآيَةُ الْقِصَصِ السَّابِقَةِ ﴿ وَرَدَ مَاءَ مَدِينٍ ﴾ تَدُلُّ عَلَى وَفَرَةِ الْمِيَاهِ الْجَوْفِيَّةِ بِهَا .

(١) سُورَةُ الْقِصَصِ الْآيَةُ رَقْمُ ٢٣ .

(٢) سُورَةُ هُودِ الْآيَةُ رَقْمُ ٨٩ .

(٣) سُورَةُ هُودِ الْآيَةُ رَقْمُ ٩٥ .

والحديث عن الكيل والوزن يدل على ما يكال من المحاصيل الزراعية بهذه الأرض .

هذا وقد كان شعيب — عليه السلام — من أبناء قومه وقد وردت هذه الآية الكريمة ..

﴿ وإلى مدين أحاهم شعيباً ﴾ (٤) . لتدل على ذلك ، حين البدء بقصة شعيب — عليه السلام — أما حين البدء بتكذيب قومه ناسب هذا التعبير القرآني .

﴿ كذب أصحاب الأيكة المرسلين ﴾ (٥) .

لأن الموقف يختلف عن سابقه .

وبمجموع ما سبق نفهم . .

أن شعيبا — عليه السلام — أرسل إلى أهل مدين ، وأن من أرسل إليهم أمة واحدة ؛ تسكن بجوار خليج العقبة من جهة الجزيرة العربية (٦) ، وأن أهل مدين كانوا يعبدون شجرة عظيمة من دون الله سبحانه .

انحراف أهل مدين :

إن اهتمام رسالات السماء بالمجتمع الإنساني شمل كل مجالاته ، فإذا ما اهتمت بالدرجة الأولى بالعقيدة الصحيحة ، وهي عقيدة التوحيد ، فهي تهتم أيضاً بالمجال التطبيقي ؛ بأن يعيش الناس إخوة متحابين ولا يعتدى أحدهم على غيره ، ولا يغشه ولا يظلمه ، وفي قصة شعيب — عليه السلام — نموذج من هذا .

(٤) سورة الأعراف الآية ٨٥ هود الآية ٨٤ العنكبوت الآية ٣٦ .

(٥) سورة الشعراء الآية رقم ١٧٦ .

(٦) انظر إلى الخريطة ص ١٤٥ .

ففى مجال العقيدة وقد عبد أهل مدين شجرة عظيمة من دون الله سبحانه أوضح لهم شعيب — عليه السلام — أن تلك العبادة باطلة لأنها عبادة مخلوق لمخلوق وليس فى المعبود ما يميزه عن العابد فكيف به ، وقد خضع له وذل ، وعبد من دون الله سبحانه ؟ ، ثم يبين لهم الطريق الصحيح وذلك بعبادة الله سبحانه الذى خلق تلك المخلوقات كلها وهو أولى بالتقديس والخضوع له ، وتلك القضية هى أهم القضايا فى رسالات السماء .

تبدأ الدعوات كلها بها ، وتبنى عليها قضايا الحياة الأخرى ؛ يقول الله تعالى :

﴿ وإلى مدين أخاهم شعيبا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره قد جاءكم بينة من ربكم ﴾ (٧) .

فعلى الرغم من وضوح قضية التوحيد ساق لهم نبيهم البينة التى تؤكد صدق دعواه ثم بين لهم صفات الخالق سبحانه بقوله : ﴿ واتقوا الذى خلقكم والجليلة الأولين ﴾ (٨) .

فإذا كانت قريش قد أقرت بالله سبحانه خالقا أشركت معه آلهة أخرى أعلنت ذلك حيث يقول الحق تبارك وتعالى على لسانهم :

﴿ ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ﴾ (٩) فإن أهل مدين أيضا كما تشير آية الشعراء قد اعتقلوا بأن الله سبحانه هو الخالق لهم ، ولن سبقهم ، ولكن على الرغم من ذلك عبلوا الأيكة من دون الله سبحانه ، ولم ينفهم اعتقادهم الذى توقف عند الخلق ، ولم يظهر فى الجانب التطبيقى العمل بالعبادة له .

وقد لفت شعيب — عليه السلام — نظر قومه إلى ما علموه من سيرته

(٧) الأعراف آية ٨٥ .

(٨) الشعراء آية ١٨٤ — الجليلة الأولين : الناس الأولين .

(٩) سورة الزمر الآيات ٣ .

بينهم فقد عرف فيما بينهم بالأمانة ، واشتهر بذلك ، ومن كانت هذه صفته في أمور الحياة العادية لا يمكن أن يكون غير ذلك في أمر الرسالة ، وخاصة وأنه لا ينبغي من وراء ذلك منزلة عندهم جاهاً أو سلطاناً ، ولا يطلب على إبلاغ دعوته الذى يعانى من أجلها أجراً دنيوياً منهم ؛ إنما هو يتعامل مع صاحب الدعوة الذى أمره بإبلاغها وهو الله سبحانه وتعالى قال الله سبحانه :

﴿ إذ قال لهم شعيب ألا تتقون ۚ إني لكم رسول أمين ؛ فاتقوا الله وأطيعون ، وما أسألكم عليه من أجر ؛ إن أجرى إلا على رب العالمين ﴾ (١٠) .

ولزمتهم الحجة فهذا نبي مشهود له بالأمانة ، ولا يطلب أجراً على إبلاغ دعوته ، ثم هو أيضا أول المذعنين لقضية التوحيد والإصلاح . .

﴿ وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه ، إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب ﴾ (١١) .

فليس هو إذن على شهوة القيادة والسلطة . بهما يتحرك ، وإليهما تبرر الوسائل الباطلة ؛ شأن الكثيرين من قادة الدنيا ، والذين تقع أبصار أهل مدين ، وأهل الأرض كلها على نماذج عفنة منهم .

إن الذى لا يعتبر ولا يتعظ بما سبقه من أحداث ولا يدرسها ، ويتبين أسباب الهلاك كما يتبين أسباب النجاة شخص بلغ من الغباء ما ينزله دون الحيوانات . وعلى أهل مدين أن ينظروا ويتأملوا ما أصاب قوم نوح وما أصاب عاداً الأولى بالأحقاف جنوبى الجزيرة ، وما أصاب ثمود شمالى الحجاز حين عصوا صالحاً وقتلوا الناقة ، وما أصاب قرية سدوم جنوبى البحر الميت ارتكب أهلها جريمة ما سبقهم بها أحد من العالمين ، على الرغم من نصيح لوط - عليه السلام - لهم .

تلك أحداث من سبقكم يا أهل مدين ويمكنكم أن تتداركوا الأمر ،

(١٠) سورة الشعراء الآيات من ١٧٧ - ١٨٠ .

(١١) سورة هود الآية ٨٨ .

وتستغفروا ربكم ، وهو الرحمن الرحيم قابل التوب ، يفرح بتوبة عبده ورجوعه إليه ، وقد نههم شعيب — عليه السلام — إلى ذلك كله ، وفي هذا يقول الله تعالى :

﴿ ويا قوم لا يجرمنكم شقاق أن يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح وما قوم لوط منكم ببعيد ، واستغفروا ربكم ثم توبوا إليه ؛ إن ربى رحيم ودود ﴾ (١٢) .

وفي مجال التعامل وقد تفشى الغش فيما بينهم وطففوا الكيل والميزان ، إذا كالوا على الناس يستوفون ، وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون ، وهم ليسوا على فقر يضطروهم لذلك ، بل كانوا على خير . وعلى الرغم من ذلك يأخذون حقاً ليس لهم ؛ ليزدادوا غنى على غنى ، ويزداد غيرهم فقراً على فقر ، وذلك شأن المجتمعات الجاهلية المعاصرة ، حين تحكم قبضتها على رقاب الناس ؛ فتحتكر السلع ، وتبيعها بالسعر الذى تفرضه غبنا وظلماً ، وليس للفقير بد من أن يخضع ويسلم طالما أنه قد خضع لهم وسلّم بانحرافهم فى العقيدة ، وتكون الدائرة عليه فى الدنيا والآخرة ، وكان يجب عليه أن يرفض الإذعان إلا لله سبحانه ؛ ليعيش الناس فى نعمة الله سبحانه إخواناً متحابين وأى فساد أكثر فى الأرض حين يكون التعامل مبتور الصلة والعقيدة الصحيحة .

قال الله تعالى :

﴿ أوفوا الكيل ولا تكونوا من المخسرين ، وزنوا بالقسطاس المستقيم ، ولا تبخسوا الناس أشياءهم ، ولا تعثوا فى الأرض مفسدين ﴾ (١٣) ويقول فى موضع آخر : ﴿ بقية الله خير لكم إن كنتم مؤمنين ﴾ (١٤) .

وأضافوا إلى انحرافهم فى العقيدة انحرافاً فى التعامل ، والاقتصاد ؛ بغيا

(١٢) سورة هود الآيتان ٨٩ — ٩٠ .

(١٣) سورة الشعراء الآيات ١٨١ — ١٨٣ .

(١٤) سورة هود الآية ٨٦ .

منهم ، وعدونا ؛ فأفسدوا في الأرض أيما إفساد ، وظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس . فإذا ما نادى رسالات السماء بتوحيد الله سبحانه ، فهي تجعل الناس جميعاً متساوين في الحقوق ، والواجبات . وتكون الأخوة ، إذن فلا تجبر ولا ظلم .

وفي القيادة وقع من أهل مدين انحراف آخر فقد وقف الملائكة منهم وهم سادتهم ، وكبرائهم في كل طريق للدعوة بمنعون الناس عن الدخول فيها ، والتشهير بها ، وإلقاء الاتهامات الكاذبة عليها ، ولأنهم في موقف السلطة فإن لكلامهم التأثير الكبير ، وذلك مشاهد ملموس في كل وقت حين يقفز أناس إلى السلطة ، دون كفاءة . وليس في صالحهم إلا أن يبعثوا الكفاءات الصالحة للقيادة ، واتهام من يبصر الناس الطريق المستقيم . إنهم يريدونها عوجاً والذي يريده الله تعالى للناس أن يكون أمرهم على بصيرة ، وهدى ، وما يريده الملائكة من قوم مدين هو عين الإفساد في الأرض وما يريده الله سبحانه هو عين الإعمار في الكون كله ؛ أرضه وسمائه ، أحيائه وجماده ، وإنسه وجنّه ، وفي هذا يقول الله تبارك وتعالى على لسان نبيه شعيب :

﴿ ولا تقعدوا بكل صراط توعدون وتصدون عن سبيل الله من آمن به ، وتبغونها عوجاً ، واذكروا إذ كنتم قليلاً فكثركم ، وانظروا كيف كان عاقبة المفسدين ؟ ﴾ (١٥) .

وما كان لأهل مدين من حجة إلا تلك الآفة الممتدة عبر الأجيال والقرون ، آفة الإلّاف ، والعادة ، آفة التقليد الأعمى ، آفة السير على عادة الآباء ، والأجداد دون تأمل ، ودون تمييز بين ما سبق من حق ، وما ألصقوا به من باطل ، فشوهوا جماله ، وصار بلون جديد ، فصار غير الحق الذي سبق مع الأنبياء السابقين قال الله تعالى على لسانهم :

(١٥) سورة الأعراف ٨٦ .

﴿ قالوا يا شعيب أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا أو أن نفعل في أموالنا ما نشاء إنك لانت الحليم الرشيد ﴾ (١٦) .

وما أضيع البشرية حين تقلب المصطلحات ؛ فيكون الإشارك بالله سبحانه ، والاستبداد الاقتصادي ، والتحكم في أرزاق الناس من الحلم والرشد ، ويكون التوحيد والعدل الاقتصادي ، والتكامل الاجتماعي ، وعدم ظلم الناس جهلاً وضللاً .

وما أضيعها حين تقوم الأمور بمركز الداعية المادي ، والاجتماعي ؟ ولا تقومها بالتأمل فيها ، ومناقشتها وإعمال الفكر والتفكير فيها ؟ قال الله تعالى :

﴿ قالوا : يا شعيب ما نفقه كثيراً مما تقول وإنا لنراك فينا ضعيفاً ولولا رهطك لرجمناك وما أنت علينا بعزيز قال : يا قوم أرهطى أعز عليكم من الله واتخذتموه وراءكم ظهرياً إن ربي بما تعملون محيط ﴾ (١٧) .

ومن دعواهم أيضاً كون شعيب — عليه السلام — بشراً مثلهم ، وأن البشرية لا تتفق والرسالة السماوية ، وليسوا في هذا الادعاء ينادون بالمساواة بين الناس ، فهم قد ألفوها بكبرهم وزعمهم بأنهم يفعلون في أحوالهم ما يشاءون وأن ضعف شعيب فرصة للاعتداء عليه (١٨) .

فهم يقصّلون بأنه بشر أنه لا يصح أن يكون نبياً مميّزاً عليهم ، وهو بهذه البشرية ، وطالما هو على هذا النحو فهو إذن مسحور أصابه مس من الجن وفي هذا يقول الله تعالى :

(١٦) سورة هود ٨٧ .

(١٧) سورة هود ٩١ — ٩٢ .

(١٨) وقد وقفت قريش هذا الموقف نفسه حين تمت أن يكون القرآن الكريم قد نزل على غير محمد — ﷺ — حيث قال الله تعالى على لسانهم ﴿ وقالوا : لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ﴾ (الزخرف ٣١) أرادوا بذلك الوليد بن المغيرة بمكة ، وعروة بن مسعود الثقفي بالطائف . وقيل غيرها .

﴿ قالوا : إنما أنت من المسحرين . وما أنت إلا بشر مثلنا وإن نظنك لمن الكاذبين ﴾ (١٩) .

وهم بهذه الدعوى يجهلون تماما ما حدث للأقوام السابقين حين وقفوا نفس الموقف . بنفس الدعوى ، فكانت العاقبة عليهم بالهلاك ، والدمار ؛ جزاء ما صنعوا وزعموا .

وقد نبههم شعيب إليها سلفا حيث قال الله سبحانه على لسانه :
﴿ ويا قوم لا يجرمنكم شقاقى أن يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح ، أو قوم هود ، أو قوم صالح ، وما قوم لوط منكم ببعيد ﴾ (٢٠) .

استعلاء الكفر واستبداده :

على الرغم من دعوى المسألة والتعاش مع شعيب — عليه السلام — ووصيته لقومه بالصبر ﴿ فاصبروا حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين ﴾ (٢١) فإن قوم شعيب لم يقبلوا أن يكون للمؤمنين هذا النصيب على بساطته وضآلته .

يقول صاحب الظلال : (٢٢)

« ولكن الطواغيت لا يرضيهم أن يكون للإيمان في الأرض وجود ممثل في جماعة من الناس لا تدين للطاغوت — إن وجود جماعة مسلمة في الأرض لا تدين إلا لله سبحانه ، ولا تعترف بسلطان إلا سلطانه ، ولا تحكم في حياتها إلا شرعه

(١٩) سورة الشعراء ١٨٥ ، ١٨٦ ووقفت قريش هذا الموقف حيث قال الله تعالى :
﴿ وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا أن قالوا : أبعث الله بشرا رسولا ﴾ (الإسراء ٩٤) .

(٢٠) سورة هود ٨٩ .

(٢١) الأعراف ٨٧ .

(٢٢) سورة الأعراف . فى ظلال القرآن لشهيد الإسلام : سيد قطب .

ولا تتبع في حياتها منهاجا إلا منهجه — إن وجود جماعة مسلمة كهذه يهدد سلطان الطواغيت ، حتى لو انعزلت هذه الجماعة فى نفسها ، وتركت الطواغيت لحكم الله حين يأتى موعده .

إن الطواغوت يخوض المعركة فرضا على الجماعة المسلمة حتى لو آثرت هذه ألا تخوض معه المعركة — إن وجود الحق ذاته يزعج الباطل ، إنها سنة الله لا بد أن تجرى . قال الله تعالى :

﴿ قال الملأ الذين استكبروا من قومه لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودن فى ملتنا ﴾ (٢٣) .

هكذا فى تبجح وفى إصرار على المعركة لا يقبل الملأ المهادنة والتعايش إلا أن قوة العقيدة لا تتلعم ، ولا تنزعج أمام التهديد والوعيد . لقد وقف شعيب — عليه السلام — عند النقطة التى لا يملك أن يتراجع وراءها خطوة ، نقطة المسالمة والتعايش ، على أن يترك لمن يشاء أن يدخل فى العقيدة التى يشاء ، وأن يريد السلطان الذى يشاء فى انتظار حكم الله سبحانه بين الفريقين .

وما يملك صاحب دعوة أن يتراجع خطوة واحدة وراء هذه النقطة تحت أى ضغط ، أو أى تهديد ، من الطواغيت ، وإلا تنازل بالكلية عن الحق الذى يمثله وخانه .

فلما أن تلقى الملأ المستكبرون عرضه هذا بالتهديد بالإخراج من قريتهم أو العودة فى ملتهم صدع شعيب بالحق متمسكا بملته كارها أن يعود فى الملة الخاسرة التى أنجاه الله منها ، واتجه إلى ربه سبحانه وملجئه ، ومولاه ، يدعوه ، ويستنصره ، ويسأله وعده بنصرة الحق وأهله . قال تعالى :

﴿ قال أو لو كنا كارهين قد افترينا على الله كذبا إن عدنا فى ملتكم بعد إذ نجانا الله منها ، وما يكون لنا أن نعود فيها إلا أن يشاء الله ربنا ، وسع ربنا كل

(٢٣) سورة الأعراف الآيات : ٨٨ ، ٨٩ .

شيء علماً ، على الله توكلنا ؛ ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير
القاتحين ﴿٢٤﴾ .

وفي هذه الكلمات القلائل تتجلى طبيعة الإيمان ومذاقه في نفوس أهله ، كما
تتجلى طبيعة الجاهلية ومذاقها الكريه ، كذلك تشهد في قلب الرسول — عليه
السلام — ذلك المشهد الرائع مشهد الحقيقة الإلهية في ذلك القلب ، وكيف
تتجلى فيه قال : ﴿ أو لو كنا كارهين ﴾ يستنكر تلك القوة الفاجرة حين
قالت : ﴿ لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودن في
مملتنا ﴾ يقول لهم : أتجبروننا على ما نكره من ملتكم التي نجانا الله منها ؟ .

إن الذي يعود إلى ملة الطاغوت ، والجاهلية التي لا يخلص فيها الناس
الدينونة والطاعة لله وحده ، والتي يتخذ فيها الناس أربابا من دون الله — إن الذي
يعود إلى هذه الملة بعد أن كشف الله سبحانه له الطريق ، وهده إلى الحق وأنقذه
من العبودية للعيد إنما يؤدي شهادة كاذبة على الله ودينه .

شهادة مؤداها أنه لم يجد في ملة الله خيراً فتركها ، وعاد إلى ملة
الطاغوت ، أو مؤداها على الأقل — أن الملة الطاغوت حقا في الوجود وشرعية في
السلطان ، وأن وجودها لا يتنافى مع الإيمان بالله سبحانه ، فهو يعود إليها ويعترف
بها بعد أن آمن بالله — وهذه شهادة خطيرة أخطر من شهادة من لم يعرف
الهدى ، ولم يرفع راية الإسلام — شهادة الاعتراف براية الطغيان . ولا طغيان
وراء اغتصاب سلطان الله سبحانه في الحياة .

وكذلك يستنكر شعيب — عليه السلام — ما يتهده من الطغاة من
إعادته هو والذين آمنوا معه إلى الملة التي أنجاه الله منها .

﴿ وما يكون لنا أن نعود فيها ﴾ .

ومن شأننا أصلا وما ينبغي لنا قطعاً أن نعود فيها يقولها وأمامه التهديد
الذي يزاوله الطاغوت في كل أرض مع الجماعة المسلمة ، التي تعلن خروجها من

(٢٤) من سورة الأعراف ٨٩ .

سلطانه ، ودينونها لله وحده بلا شريك معه أو من دونه « ا. ه .

إنهم يعتبرون هذا الإخراج أقل ما يجب في نظرهم ؛ لأنهم يمثلون جانباً من القوة ولولا هذا الرهط المؤمن لكان الحكم على المؤمنين بالإعدام رجماً ، هكذا في تبجح ، و صلف ، وفي هذا يقول الله تعالى :

﴿ قالوا : يا شعيب ما نفقه كثيراً مما تقول ، وإنا لنراك فينا ضعيفاً ، ولولا رهطك لرجهناك ، وما أنت علينا بعزيز قال : يا قوم أرهطى أعز عليكم من الله واتخذتموه وراءكم ظهرياً إن ربي بما تعملون محيط ﴾ (٢٥) .

ولم يشفع لشعيب — عليه السلام — أنه :

— واحد منهم وأخوهم ورسول الله تعالى .

— لا يسأل على دعوته أجراً .

— سوجه البينة على دعواه .

— لم يرفع في وجوههم سلاحاً .

— اعترافهم بأنه الحليم الرشيد .

— ليس على شهوة المخالفة لقومه لمجرد المخالفة .

ثم :

— دعواه بالإصلاح بينهم ، وإعمار الأرض بالخير والعدل .

— والتعامل المبني على العدالة وعدم الغش وعدم الإفساد في الأرض .

— ونصحه لهم بترك الناس يفكرون ولا يحجرون على عقولهم، وتحذيره إياهم بما حدث للأمم السابقة .

وعلى الرغم من كل هذه الدلائل قالوا كما ورد في القرآن الكريم على

(٢٥) سورة هود ، ٩١ ، ٩٢ .

لسانهم :

﴿ وقال الملأ الذين كفروا من قومه : لئن اتبعتم شعيباً إنكم إذا
لخاسرون ﴾ (٢٦) .
﴿ قالوا : يا شعيب أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا أو أن
نفعل في أموالنا ما نشاء ؟ ﴾ (٢٧) .
﴿ قالوا : يا شعيب ، ما نفقه كثيراً مما تقول ، وإنا لنراك فينا ضعيفاً ،
ولولا رهطك لرجمناك ، وما أنت علينا بعزیز ﴾ (٢٨) .
﴿ قالوا إنما أنت من المسحرين وما أنت إلا بشر مثنا وإن نظنك لمن
الكاذبين ﴾ (٢٩) .

جزاء عادل :

أنى لقوم قد بلغ بهم العنت والعنف هذا المبلغ ، ووصل بهم الهزء والسخرية
أن طلبوا إلى شعيب — عليه السلام — أن ينفذ ما أوعدهم به إن كان صادقاً .
﴿ فأسقط علينا كسفا من السماء إن كنت من الصادقين ﴾ (٣٠) .
وليس بمقتور شعيب — عليه السلام — ومن آمن معه أن يردوا عدوانا
صارخاً عليهم ، وهو الطرد من الأرض التى عاشوا فيها ، ووللوا فيها ورغبوا في
إصلاحها ، وإصلاح أهلها .
وأدارت السماء المعركة وحدها .

(٢٦) سورة الأعراف رقم ٩٠ .

(٢٧) سورة هود رقم ٨٧ .

(٢٨) سورة هود رقم ٩١ .

(٢٩) سورة الشعراء ١٨٥ ، ١٨٦ .

(٣٠) سورة الشعراء رقم ١٨٧ .

وأصيب القوم بما كسبت أيديهم ، ومن جنس العمل الذى صنعوه مع شعيب - عليه السلام - والمؤمنين .

يقول الله تبارك وتعالى :

﴿ ولما جاءهم أمرنا نجينا شعيباً والذين آمنوا معه ؛ رحمة منا . وأخذت الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا فى ديارهم جاثمين ﴾ (٣١) .

والمناسبة هنا كما رأى ابن كثير والله أعلم أنهم لما تهكموا فى قولهم :
﴿ أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا أو أن نفعل فى أموالنا ما نشاء إنك لأنت الحليم الرشيد ﴾ (٣٢) جاءتهم الصيحة فأسكتهم .

وقال الله تعالى إخباراً عنهم :

﴿ فكذبوه ، فأخذهم عذاب يوم الظلة ؛ إنه كان عذاب يوم عظيم ﴾ (٢٣) .

وما ذاك إلا لأنهم قالوا فى سياق القصة :

﴿ فأسقط علينا كسفا من السماء إن كنت من الصادقين ﴾ (٣٤) .

فأخبر أنه أصابهم عذاب يوم الظلة كما أخبر أنهم أخذتهم الرجفة وذلك كما أرجفوا شعيباً — عليه السلام — وأصحابه . .

﴿ فأخذتهم الرجفة فأصبحوا فى ديارهم جاثمين ﴾ (٣٥) .

واجتمع عليهم ذلك كله . أصابهم عذاب يوم الظلة ، وهى سحابة أظلتهم فيها شر من نار ، ولهب ، ووهج عظيم ، ثم جاءتهم صيحة من السماء ، ورجفة

(٣١) سورة هود - ٩٤ .

(٣٢) سورة هود - ٨٧ .

(٣٣) سورة الشعراء - ١٨٩ .

(٣٤) سورة الشعراء - ١٨٧ .

(٣٥) سورة الأعراف - ٩١ .

من الأرض شديدة ، من أسفل منهم فزهقت الأرواح ، وفاضت النفوس وخمدت
الأجسام فأصبحوا في دارهم جائئين ، وكأنهم لما أصابتهم النقمة لم يقيموا بديارهم
التي أرادوا إجلاء الرسول شعيب - عليه السلام - وصحبه المؤمنين به عنها ثم قال
تعالى :

﴿ الذين كذبوا شعبياً كانوا هم الخاسرين ﴾ (٣٦) مقابلاً لقولهم السابق
بنفس السورة :

﴿ وقال الملأ الذين كفروا من قومه لئن اتبعت شعبياً إنكم إذن
لخاسرون ﴾ (٣٧) .

وحكم الله عليهم كما حكم على من سبقهم بنفس الصنيع . .
﴿ ألا بُعداً لمدين كما بُعدت ثمود ﴾ (٣٨) .

مبلغ الجهد قبل الجزاء :

لم تكن فرصة لشعيب — عليه السلام — أن يستنزل عذاب الله سبحانه
عند بدء تكذيبهم فليست هذه من شيمة الأنبياء والدعاة إلى الله سبحانه فالإلحاح على
القوم وسوق البينات والدعوة إلى الإصلاح واتخاذ العبرة من السابقين ضرورة الاستمرار .
ثم إنه واجه عزمهم على الطرد من أرض مدين قائلاً لهم :

﴿ على الله توكلنا ، ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق ؛ وأنت خير
الفاوتين ﴾ (٣٩) .

كلام رقيق جميل لا ينم عن تشفٍ في قومه بل إنه يطلب في آخر لحظة لهم
أن يفتح الله سبحانه عليهم بالإيمان ؛ حتى ينجوا من العذاب ويفوزوا برضوان الله
سبحانه — سعادة وعدل في الدنيا وجنة عرضها السموات والأرض في الآخرة .

(٣٨) سورة هود رقم ٩٥ .

(٣٩) الأعراف الآية ٨٩ .

(٣٦) سورة الأعراف رقم ٩٢ .

(٣٧) سورة الأعراف رقم ٩٠ .

ثم ها هو وقد نظر إلى مقدمات العذاب تنزل يقول أيضا :
﴿ وقال يا قوم ، لقد أبلغتكم رسالات ربي ، ونصحت لكم . فكيف
آسى على قوم كافرين ؟ ﴾ (٤٠) .

وحين تحدوه باستئزال العذاب عليهم إن كان صادقا .. ﴿ قال ربي أعلم
بما تعملون ﴾ (٤١) .

فأى عذر لقوم يخاطبهم نبهم برقيق الكلام وأجمله وأحكمه رغبة في
إصلاحهم ثم هم يهزعون بكلامه ويعزمون على طرده وهو أخوهم وابن وطنهم
مدين .

دروس وعبر :

يقول الله تبارك وتعالى معقبا على قصة شعيب — عليه السلام — :
﴿ إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين ، وإن ربك هو العزيز
الرحيم ﴾ (٤٢) .

كما يقول سبحانه معقبا على نفس القصة في سورة الأعراف :
﴿ وما أرسلنا في قرية من نبي إلا أخذنا أهلها بالبأساء والضراء ؛ لعلهم
يضرعون ، ثم بدلنا مكان السيئة الحسنة حتى عفوا وقالوا قد مس آباءنا الضراء ،
فأخذناهم بغتة وهم لا يشعرون ﴾ (٤٣) .

ويقول الله أيضا ملفتا نظر قريش إلى أخذ العبرة بعد الحديث عن شعيب
— عليه السلام :

(٤٠) الأعراف الآية ٩٣ .

(٤١) الشعراء الآية ١٨٨ .

(٤٢) سورة الشعراء رقم ١٩٠ ، ١٩١ .

(٤٣) سورة الأعراف رقم ٩٤ ، ٩٥ .

﴿وعادا وثمود وقد تبين لكم من مساكنهم ، وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السيل وكانوا مستبصرين﴾ (٤٤) .

— هذه الآيات تدعو إلى أخذ العبرة لتكون درساً مفيداً للبشرية لتنعم بخيرى الدنيا والآخرة .

— يستفاد من الآيات الكريمة تاريخياً وجغرافياً أن أرض مدين كانت بجوار خليج العقبة من أعلى جنوب أرض سدوم ، التى كانت على شاطئ البحر الميت ، من أسفل ، وأن الأرض التى مر بها موسى — عليه السلام — فى سيناء امتداد لأصلها من جهة الجزيرة .

— إن أخوة الداعية لأبناء وطنه متى ما تركوا الفرصة له يدعوا الناس إلى دين الله سبحانه ، وأما حين تظهر النوايا الخبيثة بالعدوان ، فإن هذه الأخوة تنهى وتم المفاصلة بينه وبينهم .

— إن دين الله سبحانه يشمل كل ما يصلح البشرية ، يضع لهم الأسس والقواعد التى تنظم حياتهم ، وتبعدهم عن الظلم والعدوان .

— إن الشرك لظلم عظيم وأساسه أن يعبد المرء آلهة أخرى من دون الله ، فى الوقت الذى يقر فيه بأنه سبحانه هو الخالق .

ويأخذ هذا الشرك ألواناً شتى ، وفى قصة شعيب — عليه السلام — عبدت مدين الأيكة من دون الله سبحانه ، وقد عبدت قريش هبل ، ووضعته فى جوف الكعبة ، ووصل اعتزازها به من دون الله سبحانه أن أبا سفيان حين أراد الانصراف يوم أحد ، أشرف على الجبل ، ثم صرخ بأعلى صوته : يوم يوم بدر . اعل هبل .

فقال رسول الله ﷺ — لعمر :

« قم يا عمر فأجبه ، فقل : الله أعلى ، وأجل ، لا سواء . . قتلانا فى

(٤٤) سورة العنكبوت رقم ٣٨ .

الجنة ، وقتلاكم فى النار .. » (٤٥) .

— إن الداعية المسلم يجب أن تسبقه إلى الناس صفاته الطيبة ، والمعروفة
لديهم .

فقد اعترف أهل مدين بأن شعيياً — عليه السلام — هو الحلیم
الرشید ، ثم هو لا يطلب أجراً على دعوته ، وهو الأمين بينهم ، والناصح لهم .
— ليست القيادة فى ذاتها غاية الداعية وإنما هى وسيلة لتحقيق أمر الله
سبحانه فى الأرض فقد قال الله عن عباد الرحمن :

﴿ واجعلنا للمتقين إماماً ﴾ ويجب أن يتبرأ الداعية من تلك الآفة التى
يتسابق عليها طلاب الدنيا ، ويبدلون فى سبيلها ماء وجوههم ، ثم إذا كانت لهم
حرموا الناس نعمة الطمأنينة ، والأمن ، وصار المصلحون فى حلقهم علقماً
لا يطيقونهم .

— إن الله سبحانه وتعالى يريد للمجتمع الإنسانى اقتصاداً نظيفاً من
الدينس .. نظيفاً من أخذ حقوق الناس والتحكم فى أرزاق الفقراء لإتخام بطون
الأغنياء ؛ فالمال مال الله سبحانه والناس مستخلفون فيه وناظر إليهم كيف
يتصرفون فى تلك الأمانة التى وضعت فى أيديهم ؟ .

— على الداعية المسلم أن يكون خبيراً باقتصاد الأمة ، ويعلم الأساليب
المعوجة ، كما يعرف القويم منها ؛ لتكون دعوته على بصيرة ، وهدى ، دون تحبط
وغفلة .

— وعلى الداعية حين يسعى إلى الإصلاح الاقتصادى أن يربطه بالقاعدة
الأساسية فى العقيدة ، والإيمان بالله سبحانه وتعالى .

(٤٥) حديث صحيح أخرجه أحمد ، والحاكم وصححه ، وله شاهد من حديث البراء
— رضى الله عنه — عند البخارى وغيره ؛ وشاهد آخر من حديث ابن مسعود
— رضى الله عنه — أخرجه أحمد . هامش فقه السيرة تحقيق الشيخ ناصر الدين
الألبانى ص ٢٧٣ معركة أحد .

— لا يندع الداعية بتلك المقولة : إننا نتصرف في أموالنا كما نشاء . كما قال كفار مدين فالتصرف الذى يؤذى الآخرين ليس بحق شرعاً ، وعرفاً وإنسانية .

— إن الذى يتصدى للدعوة بالمواجهة هم الذين يستفيدون مادياً من بقاء الكفر فى الأرض ، وهم سادة القوم وكبرائهم ، إنهم يضعون الحواجز أمام الناس حتى لا يؤمنوا على الرغم من أنهم تحكموا فيهم وطففوا الكيل والميزان معهم مما يدل على تناقضهم .

— إن الله سبحانه يهدى للتي هى أقوم ، وأئمة الكفر ييغونها عوجاً ، والرسل الكرام وأتباعهم يسرون على طريق الله سبحانه .

— إن الداعية يجب أن يكون على خبرة بالتاريخ ، يختار منه ما يناسب دعوته ويأخذ منه العبر والعظات ؛ فقد قال شعيب — عليه السلام — لقومه : ﴿ وانظروا كيف كان عاقبة المفسدين ﴾ فى الوقت الذى دفعهم ، وصارحهم بأنهم مفسدون ، طلب إليهم أن ينظروا إلى من سبقهم ؛ حتى ييتعدوا عن هذا الإفساد ، ثم ينجوا من الهلاك .

— إن المجتمع الجاهلى يقوم الناس بما لديهم من عرض زائل ؛ غباء وضلالاً من أبنائه ، فشعيب ضعيف ؛ لأنه فقير ولولا القلة التى معه لأعدموه رجماً ، ولكنهم اكتفوا بالطرد من الوطن .

— إن المجتمع الجاهلى يثير فى الناس دائماً آفة العرف والتقاليد ؛ ليخدم بذلك مصالح سادته فقط ، ويتناسى التفكير ، والتأمل فيما وصل إلينا ؛ فقد يكون خليطاً من دعوة صالحة ، ومما ابتدعه الناس ، وألصقوه بالدين .

ويستمر فى الابتداع ولا يعمل عقله الذى وهبه الله إياه .

— إن المجتمع الجاهلى ليضيق بمجرد وجود الدعاة ؛ لأن هؤلاء الدعاة يضعون حداً لطغيانهم ، واستبدادهم ، وتحكمهم فى أرزاق العباد ، وإلغاء العقول ، ومنعها من التفكير ، وإعطائهم الدعاوى الكاذبة كأنها مسلمة . مقطوع بصدقها .

— يُفرض المستفيدون النفعيون فرضاً على المؤمنين وقبل أن يكون للمؤمنين قوة ، ولا يملكون إلا الصبر حيث لا عتاد لهم ولا قوة .

— على الداعية أن يكون صلب العود حتى ولو كان أعزل من السلاح ، لا يرهبه تهديد ولا وعيد ، ويتبرأ من الكفر وأهله ؛ حتى في أحرج اللحظات كما صنع شعيب — عليه السلام — والأنبياء الكرام ﴿ قد افترينا على الله كذباً إن عدنا في ملتكم بعد إذ نجانا الله منها وما يكون لنا أن نعود فيها إلا أن يشاء الله ربنا ﴾ (٤٥) .

— إن المجتمع الجاهلي يغمض بصره عن كل حسن للداعية وكأنه مجرد من كل محمودة ، ومتصف بكل نقیصة ، على الرغم من اعترافهم سابقا بغير ذلك .

فقد تعامى قوم شعيب — عليه السلام — عن صفاته القيمة ولم تشفع له أى صفة منها ؛ ليكون بمنجاة من الاعتداء .

— إن سمو الداعية ، واستعلاءه بقوة الله سبحانه من سماته الدائمة حتى في أحرج الأزمان .

فالأزمات التى يواجهها لا تجعله يزن القضايا بغير ميزان الله سبحانه .

ولا تجعله يتطرف في الاستنباط لمجرد الغضب على قومه ؛ وهذا شعيب — عليه السلام — حين عزم القوم على الطرد يدعو بقوله : ﴿ ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق ﴾ .

وليس معنى ذلك سلبية منه فقد قال شعيب عن قومه : ﴿ فكيف آسى على قوم كافرين ﴾ .

— ﴿ وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ﴾ صدق الله العظيم والجزاء من نفس العمل ولا يمكن لباطل أن يدوم ويستمر استعلاؤه على الحق ، وأهله حتى ولو كان أهل الحق ضعافاً من حيث القوة المادية .

(٤٥) سورة الأعراف . الآية ٨٩ .

— إن الله سبحانه وتعالى رحيم بعباده وهو أعلم بهم فعلى المؤمنين أن يتفیعوا ظلال هذا الإيمان .

الجهاد دعوة ، وإعدادا فإذا ما استعجلهم الكفر فوضوا الأمر إلى الله سبحانه ، وصبروا على حكمه ، وتمحيص قلوب عباده ؛ أيهم أثبت عودا ، وأقوى مراسا ، وأشد استمساكا بدينه .

اللهم لا تجعل فتنتنا فى ديننا ولا تجعل الدنيا أكبر همنا .

— إن الله سبحانه يجعل العاقبة للمؤمنين ؛ مهما كانت التضحيات . شريطة أن يظلوا على هذا الإيمان ، متمسكين بدينه القويم دون ابتداع أو تحريف أو تبديل وأن الأمن ، والأمان ، فى دين الله سبحانه لا ظلم ، ولا عسف ، ولا تسلط ، ولا أنانية .

الكل سواء أمام الله سبحانه — الفرص متكافئة والمسئولية فردية والله أعلم .

هذا الكتاب

من حيث المضمون :

- يجمع بين القديم والحديث ؛ فيه من القديم أصل الموضوعات ، من سير الأنبياء عليهم السلام .
- والاعتماد على النصوص القرآنية ، والأحاديث النبوية .
- ومن الجديد ؛ استخلاص العبر والدروس التي تلزمننا على وجه الضرورة في حياتنا المعاصرة .
- ودحض الأفكار الفاسدة ، مثل فكرة التطور .
- كما حدث من إسقاط تاريخي ؛ لمزيد من الربط بين الأحداث مع تباعد العصور والربط بين الأحداث القديمة والمعاصرة في إسقاطات تاريخية .

ومن حيث الغاية :

- يثير الجانب الوجداني لدى القارئ ؛ ليحب الله ، وأنبياءه ، وقول الحق .
- ويحب من سار معه على الدرب ، فيأخذه أخاً وصديقاً .
- ويرسم الطريق الأقوم لشباب هذه الأمة ، فيتأولون الأحداث بفكر سديد ، وسلوك صائب .

ومن حيث الشواهد :

- فقد أخذت النصوص القرآنية الدرجة الأولى ، وبمجموعها في نقطة واحدة وضع الأساس الأول للمعاني .
- وتم الاستشهاد بالأحاديث النبوية بعد التأكد من صحتها أو ثبوتها ، مع بيان مصدر كل حديث بياناً شافياً ييسر رجوع من يرغب من القراء إلى أصل الحديث متناً وسنداً .

والكتاب بهذا وغيره محاولة متواضعة لتربية جيل مسلم على أساس سليم . نرجو من الله سبحانه أن يجعله سبيلاً هداية وارشاد ،

الناشر